المجلة الأمريكية التي يوزع منها كل شهر ١١ مليون نسخة
٣ قروش



من مجلة
ريدرز دايجست
في كل مقالة لذة دائمة

أكتوبر ١٩٤٣

احد عشر مليون نسخة من كل عدد
طبعات فى الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والسويدية والعربية
إننا نرجو أن يعجبكم « المختار » من مجلة ريدرز دايجست .

فأخذ عشر مليون نسخة من هـذه المجلة تطبع فى خمس لغات . إن الطبعات الانجليزيه تصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ومصر والصين . والطبعة الأسبانية تباع فى ثمانية عشر بلداً من البلدان المتكلمة باللغـة الأسبانية فى أمريكا اللاتينية . والطبعة البرتغالية تباع فى البرازيل والبرتغال . والسويدية فى السويد . وهذا هو العـددُ الثانى من الطبعة العربيـة . وقد وُزّع منه ستون الف نسخة فى مصر وفلسطين وسـوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن وسائر الجزيرة . ويرجو المحررون أن تنال هذه المجـلة رضاك . ويَسرُّهم أن يتلقوا ما يبدو لك من ملاحظة أو نقد أو اقتراح بتحسينها وإتقانها .

READER'S DIGEST

(Reg. U.S. Pat. Off. Marca Registrata)

تصدر شهرياً فى بليزانتفيل ، نيويورك ، بالولايات المتحدة الأمريكية — وتصدر طبعات انجليزية ، وأسبانية ، وبرتغالية ، وسويدية ، وعربيـة — وتصدر دار الطباعة الأمريكية للعميان بلويزفيل كنتكى طبعتين للعميان إحداهما طبعة « براى » وأخرى على « أقراص مسجلة » .

قسم التحرير : رؤساء التحرير — ده ويت ولاس ، ليلى اتشيسون ولاس
سكرتير التحرير : كنيث و . باين ، مدير التحرير : الفريد س . داشيل
قسم الإدارة : المـدير العـام — ا . ل . كول

الطبعة العربية

رئيس التحرير : فؤاد صروف — المدير المالى : ت . ى . مورد
مصر والسودان — ثمن النسخة ٣ قروش صاغ — قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ قرشاً صاغاً
فلسطين وشرق الأردن ٣٥ ملاً — العراق ٣٥ فلساً — سـوريا ولبنان ٣٥ قرشاً
الاشتراك السنوى ما يعدل ٤٠ قرشاً مصرياً

الطبعات الدولية

المدير العام : باركلى اتشيسون — مدير الإدارة : فرد د . طمسون



من مجلة ريدرز دايجست

كتاب فيه لكل يوم، مقالة محكمة الإيجاز باقية الأثر

السنة الأولى | اكتوبر ١٩٤٣ | المجلد ١ العدد ٢

هل أنتَ حيّ ؟

ستيوارت تشايس

ملخصة عن مجلة « النيشن »

كثيراً ما حيرني الذين يلهجون بذكر « الحياة » وهم يقولون لى إن الأمريكيين لايدرون كيف يحيون ، أما الفرنسيون — أى نعم الفرنسيون — أو المنغاريون ، أو البولونيون أو الباتاجونيون . . . « فهؤلاء أدرى » .

وأسألهم عما يعنون بالحياة ، فلا يفيدوننى شيئاً فيما أبغى من تعريف الحياة .

فما معنى أن يكون المرء حياً ، وأن يحيا حياة قوية ؟ وماذا يعنى رسل الإصلاح الاجتماعى حين يعدون الناس نظاماً جديداً للحياة ؟ إن من البديهى أنهم لا يمكن أن يعنوا ضرباً جديداً من الحياة لم يسبق أن نعم به أحد ، بل لعل المقصود أن تنبتث وتنمو فى نفوس الجماهير الإنسانية صفات الحياة التى لم ينعم بها إلى الآن — على وجه طبيعى — إلا أفراد قليلون ، ولم تنعم بها جماعات كبيرة من الأفراد إلا نادراً .

ماهو المؤدى المحسوس لهذا «الإدراك» ، لهذا « الوجود الصالح » ؟ أريد بأسلوب

شخصي أن أسوق إليك الحقائق كما وجدتها. وأريد أن أبين لك متى كنت فيما أرى «أحيا»، ومتى كنت في رأيي لا أعدو أن «أوجد» على اعتبار أنهما حالتان متميزتان. وأريد أن أستجلي معنى الحياة من تجاربي، فإن المرء في مسائل من هـذا الضرب يكاد يكون هو الينبوع الوحيد الذي يستمد منه المعلومات. ولست أدري مامعنى الحياة عند غيري، ولكني أدري معناها عندي، وقد اتخذت لنفسي مقياساً أقيسها به.

أنهض من فراشي في الصباح، وأذهب إلى مكتبي — إلى آخر ذلك. وهـذه هي الأصـول. تناول الأيام كما تجيء، وضع علامة زائد (+) أمام الساعات الحيـة، وعلامة ناقص (—) أمام الميتة. وابحث عما يجعل الحية تحيا، والميتة تموت وتذهب ضياعاً. فهل نستطيع أن نهتدي إلى حقيقة الحياة بمثل هـذا التحليل؟ فأما الشاعر فيقول كلا، ولكني رجل صناعته الحساب، ولا أنظم الشعر إلا في ساعة فراغ ولهو.

وأرى من مذكراتي أن هنـاك تسع حالات أحس فيها أني حي، وخمساً أحس فيهـا أني موجود ليس إلا.. ولا حاجة بي إلى القول إن هذه الحالات هي الكبرى، وهنـاك، فضلا عن هـذه، عشرات من حالات أدنى، أراها أغمض من أن أستطيع تحليلها. وإليك الحالات التسع:

أرى الجبال والبحر والنجوم — وكلها موضـوعات قديمة تناولها آلاف من الشعراء — تجدد الحياة في نفسي. وكما هو الحال في الفن لا يحدث ذلك على منوال آلي، فإني أمقت البحر أحياناً، ولكني في الأغلب والأعم أحس أن خط الوجود تحتي حين أرى هذه الأشياء.

والحب هو الحيـاة — بقوته وشـدة الحاجة إليه — ومن الحب الحقيقي عندي أيضاً ما ينطوي عليه المرء لأصدقائه.

وأنا أحيا حين يحركني وينعشني الحديث الطيب والحوار الطيب. وإن في تناول الآراء بمجردها لنوعاً من الحيوية أراه، أنا على الأقل، حقيقياً جداً.

وأنا أحيا حين أكون عرضة لخطر — كأن أتسلق صخرة مثلا.

وأحس أني حي جـــداً حين أكون بمحضر حزن صادق.

وأحيا حين ألعب — وأفضل ما كان خارج البيت، كالغطس، والسـبـاحة، والرقص، وكقيادة سيارة، أو المشي أحياناً.

ويحيا المرء حين يأكل بعد جوع شـديد، أو حين يضع شفتيه في نبع ماء بارد سلسال بعد أن طال إصعاده في جبل.

والمرء يحيا حين ينام، فإن النوم العميق

المستغرق بعد يوم يقضيه الإنسان خارج البيت يكسبه الإحساس بمثل المولد الكهربائي الدائر في سكون . وأنا مقتنع بأن المرء يحيا في الأحلام الواضحة .

وأنا أحيا حين أضحك — من قلبي ، ومن تلقاء نفسي ، أي بباعث من إدراكي لما يدعو إلى ذلك .

وعلى نقيض ذلك أجد خمس حالات كبرى للوجود هي كما يأتي :

فأنا أعد موجوداً حين أجشم عملا كالسخرة من أي نوع مثل جمع الأرقام ، والرد على الرسائل ، ومراجعة الشئون المالية ، ومطالعة الصحف ، والحلاقة ، وارتداء الثياب ، وركوب السيارات العامة، والصعود والنزول في المصاعد ، وابتياع الأشياء .

وأعد نفسي موجوداً حين أشترك في الواجبات الاجتماعية العادية مثل الشاي أو العشاء ، أو الإصغاء إلى حديث ممل ، أو الكلام في الجو .

والطعام والشراب والنوم إذا كان المرء شبعاناً ، أو كانت حواسه فاترة كليلة ، تعد حالات من الوجود لا من الحياة ، وأنا أكون موجوداً لا أكثر ، معظم الوقت ، حين أمرض .

والمناظر القديمة ، والأشياء العتيقة المملة — كجدران المدينة ، والشوارع المألوفة ، والمنازل ، والغرف ، والأثاث ، والثياب — هذه كلها تسوق الإنسان إلى مستوى الوجود . والدمامة الصريحة ، كالتي يراها المرء في مخازن البضائع ، أو في الأحياء الفقيرة في مدينة ، تدفعني إلى الاكتئاب الشديد .

وأنا أتراجع عن الحياة حين أغضب ، وأصبح موجوداً فما أنا فيه من الشجار والخلاف ، وفي تيه الانتقام .

وهكذا أفرق ما بين الحياة والوجود ، على صورة عامة . ولا بد من الاعتراف بطبيعة الحال بأن كون المرء يحيا يعد في أكثر الأحيان حالة عقلية مستقلة عن البيئة المادية وعن العمل . وقد يشعر المرء فجأة — في الربيع مثلا — بأنه حي ، وإن كان ما يحف به قديماً مألوفاً . وفي هذه الحالة يصبح مجرد ارتداء الثياب أو غسل الصحاف حادثاً ، ويروح المرء يغني وهو يحلق . ولكن هذه الفورات شاذة على العموم . ويبدو أن هناك في الأغلب سبباً جلياً لشعور الإنسان بأنه يحيا ، وسبباً جلياً لشعوره بأنه موجود لا أكثر ، أو هذا ما أراه أنا على كل حال . وأعتقد أن في وسعي ، بإرادتي ، أن « أحيا » في ساعات ضعفي ما أحيا الآن إذا وسعني أن أصدع عني

قيود الضرورة التى تكبلنى ، وهى اقتصادية على الأكثر .

وقد حسبت الزمن الذى قضيته فعلا فوق « خط » الوجود وتحته . مثال ذلك أنه يؤخذ من مذكراتى أنى فى أسبوع لم أحى سوى أربعين ساعة ، من الساعات المائة والثمانى والستين التى هى عدة ساعات الأسبوع ، أى ٢٥ فى المائة من جملة هذه المسافة من الزمن . وفى هذه الفترة قمت بعمل إنشائى ، وذهبت أتمشى يوم الأحد ، وجعت جوعاً حقيقياً ، ونمت نوماً هنيئاً ، وقرأت قليلا مما يوقظ النفس ، وشهدت فصلين من رواية مسرحية ، وبجانباً من شريط سينمائى ، وسلخت ثمانى ساعات فى حوار ممتع مع طائفة من الأصدقاء .

ولعل الحالات التى تطلق الحياة فى نفسى وينبثق من جرائها ينبوعها فى صدرى ، تطلقها أيضاً فى معظم الآدميين . ويمكن أن نقول على العموم : إن خلاص المرء مرتبط أوثق ارتباط بخلاص الناس جميعاً — وإن نسبة الحياة تنمو وتزداد تبعاً لنسبتها فى جمهور الناس .

على كل جيل أن يحمى تراثه

الجهاد فى سبيل الحرية معركة لا تنتهى . انتصار غير حاسم وهزيمة لا تدوم . وعلى كل جيل أن يحمى تراثه ، لأن كل ظفر فى هذه المعركة يظهر قوى جديدة تحاول أن تستبدل بأساليب الاستبداد القديمة أساليب جديدة . وإذن فلا سلام فى عالم قانونه الحياة والنمو . فكل معركة ظن الآباء أنها انتهت ، فلا مناص للأبناء من أن يخوضوها مرة ثانية إذا ما أحبوا أن يحافظوا على حريتهم ويوسعوا نطاقها .

[فيليب فان دورن ستيرن]

تصيد بلسانها

إن حرباء طولها سبع بوصات تستطيع أن تصيد ذبابة على بعد اثنتى عشرة بوصة منها ، دون أن تتحرك . وسلاح الحرباء لسان طوله طول الحرباء نفسها ، تطلقه كالصاعقة ، كما تنطلق بذرة البطيخ عندما تضغطها بين إصبعيك . ورأس اللسان تغطيه مادة لزجة تلصق الذبابة به .

[مجلة التاريخ الطبيعى]

علموا الصغار فنون الحياة

كورين أوپدجراف ولز

فى أذهان كثيرين منا ذكريات حية على الزمان ، لأمكنة وأزمنة كشف لنا فيها الكبار عن إحدى حقائق الحياة ، بطريقة تستوقف النظر أو تثير الخيال ، فعلقت بالخواطر وحركت مشاعر لم تخمد نارها .

وإننى أذكر أن عمتى الطاعنة فى السن كانت كلما تشاجرتُ مع إخوتى أو رفاقى ، فى صغرى ، تطوقنى بذراعها قبل المساء وتقول : « لا تدعى الشمس تغيب على غضبك يا عزيزتى » . وكنت ، وأنا واقفة جنبها أتطلع إلى الشمس وهى تتوارى وراء الأفق ، وأنظر إلى الابتسامة العذبة فى عينى عجوز ، أشعر أن شيئاً بارداً قاسياً فى داخلى قد ذاب حناناً . وسرعان ما أهرع إلى إخوتى ورفاقى فنعود إلى الصفاء . وقد قطعت من ذلك الحين عهداً على نفسى بأن لا أدع الشمس تغيب قبل أن أضع حداً لكل ما يكدر وأبدد كل ظل لسوء التفاهم .

وأعرف رجلا يعد فى محيط أسرته وأصدقائه وزملائه فى العمل ، ركنا من أركان الشجاعة والقوة والوفاء . وقد باح لى بسره من عهد قريب فقال : إن أمه عودته منذ طفولته أن يبتسم فى المرآة كلما برح به الدهر . . . « كانت أمى تحملى منذ نعومة أظفارى ، أمام المرآة ، كلما حدث لى ما يؤذى جسمى أو عقلى أو يؤلم شعورى ، ثم تصطنع الإشارات المضحكة ، ودموعى تنهمر ، إلى أن أجد الابتسام أمراً لا مفر منه ، فتقول : « الحمد لله لقد زال ما يؤلمه » ، ثم تضعنى على الأرض .

« ولما كبرت وجدت أن عادة النظر فى المرآة قد تمكنت منى ، حقيقة ومجازاً . فقد كنت وأنا صبى يافع أهرع إلى المرآة فى غرفتى وأكشر مبتسما لأزيل ألماً أو شعوراً بخيبة ألمت بى . والواقع أنك لا تستطيع أن تنظر إلى نصب الحياة وتعبها فى مثل هذه الحالة نظر المكترث . فوجهك الذى تعلوه أمارات الهم يبدو مثيراً للضحك عندما تنظر إليه فى المرآة . وعلى ذلك تزداد الابتسامة عمقاً وعرضاً حتى تنفذ إلى الروح . وعندئذ يغلب ما يؤلمك على أمره » .

ومن عهد قريب ذهب شاب إلى مدير إحدى الحدائق العامة وقال له : « لعلك لا تذكرنى . ولكننى كنت أحد الصبيان الذين كانوا يلعبون هنا ، عندما كنت مساعداً للمدير . وفى أحد الأيام جلست فى ظل شجرة وحدثتنى عن النجاح فى الحياة ، وقد أشرت إلى دودة سمراء كانت قد زحفت

من منبسط العشب إلى جـذع الشجرة . فقلت : إنها بدأت رحلتهـا فى مكان ما ، وستبلغ قمـة الشجرة سائرة رويداً رويداً متخطية حائلا حائلا . فوقع هذا الشبه من نفسى موقعاً عظيما . ففهمت . فسرت متخطياً الحـوائل ، فجزت الكلية ـ وفى الأسبوع الماضى قيد اسمى فى جدول المحامين » .

وعنـد ما كنت صبية كان على إخوتى الصغار أن يعنوا بحديقة الخضر وتنقيتها من الحشائش ، وكانوا كارهين لهـذا العمل طبعاً ، وكانوا يرجئون إنجازه ما استطاعوا. ولذلك كان يتعين عليهم على الأكثر أن يصرفوا عطلتهم فى أيام السبت وهم ينجزون ما عليهم . وجاء أحد أعمامنا فى أحد الأيام وخرج متمشياً فى الحديقة ورأى الصبيان يعملون متبرمين ساخطين فسألهم : أتعلمون يا أبنائى لماذا تقتلعون هـذه الحشائش ؟ إنكم تقتلعونها لأنها لصوص ، تسرق الغذاء الخاص بالخضر . أتدرون خير طريقة للتغلب عليها بغـير أن تضيعوا وقتاً ما من أوقات لعبكم ؟ أقسموا الحديقـة إلى ست مزارع صغيرة، (وأشار بعصاه كيف يكون التقسيم) ثم يتولى كل منكم تنقية إحدى هذه المزارع الصغيرة مرة كل يومين بعد الظهر ، وهذا لا يسـتغرق كثيراً من وقتكم ، وتبقى أيام السبت والأحد للراحة واللعب . وعلاوة على هذا وذاك تكون الحديقة كلها نقية من الحشائش وتغدو مدعاة لفخركم ومباهاتكم .

أما الحديقة فأصبحت جنة تبهر الأنظار فعجب أخونى كيف كان قلع الحشائش عملا يعملونه على مضض من قبل .

وكلما سمعت الناس يقولون: «لايستطيع أحد أن يعلم الصغار فنون الحياة ، فعليهم أن يتعلموا بالتجربة والاختبار » ، أتذكر قصة الحديقة والحشائش وما كان عمى مطبوعاً عليـه من الفهم والعطف . إن القول بأن الصغار يجب أن يتعلموا وحدهم فنون الحياة، عار عن الصحة . . وفى وسـعنا أن نلقنهم دروساً فى فن الحياة ، كما نلقنهم الحساب . وعمى لقن إخوتى الثلاثة دروساً فى معالجة عمـل شاق ، فرسخت فى نفوسهم مـدى الحياة ، إنه علمهم :

١ — تصـور الباعث على عمـل ما ، وضعه نصب عينيك .

٢ — تصور العمل وقد تم .

٣ — قسم العمل أقساماً صغيرة تسهل معالجة كل منها ، ثم عالج كلا منها على حدة .

ويخطر لى ذكر رجل آخر كان حكيما فى فهم الصغار وتعليمهم . فمن أشق الأمور تعليم الأطفال قيمة المال إذا كان أهلهم من ذوى اليسار . فهذا الرجل كان يحتفظ دائماً بفكة جنيهين من الملاليم الجديدة ، وهى ألفا

قطعة براقة . وإذ كان أولاده أطفالا ، كانت تشتد رغبة أحدهم فى لعبة ما ، أو يظن أن رغبته فيها شديدة فيلحف فى طلبها ، فكان الوالد يسأل : ما ثمنها ؟ ثم يجلس مع أولاده بعد العشاء يعدون ثمن تلك اللعبة بالملاليم على غطاء المائدة الأبيض . ثم يسأل : أتريد حقاً اللعبة التى ثمنها كل هذه النقود ؟ فإذا قال الولد : « نعم » فالمحتمل أن يبتاع الوالد لفتاه هذه اللعبة . ومما يبعث على الدهش أن الصغير كان فى الغالب يقرر أن اللعبة لا تسوى هذه الكومة من النقود !

ولما كبر الأولاد واتجهت رغبتهم إلى أشياء أغلى ثمناً — دراجات وآلات تصوير السينما وزوارق — كان والدهم يسحب من البنك الثمن المطلوب أوراق نقد ، كل ورقة قيمتها دولار واحد ، وينشرها أمامهم على المائدة ويقول مشيراً إلى المال : « أيهون عليك كل هذا فى سبيلها؟ » . وأعرف والدين كانا يقولان لصغارهما : « ما أكثر النجارين الذين هشموا أصابعهم فى سبيل تعلم الطرق بالمطرقة ، وكثيرون من الجزارين قطعوا أصابعهم فى سبيل إجادة الذبح وتقطيع اللحم . أفليس من الحمق أن نجلب الأذى على أنفسنا فى سبيل تعلم شىء حذقوه ويسرهم أن يعلمونا إياه ؟ والآن إليكم الطريقة التى يشير بها الجزارون . . . » . « إن أذكياء الناس لا يرتكبون من الأخطاء ما ارتكبه سواهم من قبل » ، هكذا كانوا دائماً يسمعون من والديهم. وكانا يعلمانهم كيف يستعملون القص وعيدان الكبريت ، وكيف يدبرون أمرهم فى رفع الصحون وهى فى الفرن . وأهم ما فى هذا أن الصغار يتعودون منذ صغرهم استشارة الخبراء فى حل مشكلاتهم العملية . وقد يأتى من الكبير الفطن عمل تتجلى فيه للصغير دروس لا تنسى خالدة الأثر . أعرف سيدة من كبار العلماء ، تعزو عادة التأمل والتفكير إلى نزهة صغيرة قامت بها مع والدها فى غابة يوماً ما ، فلما أن لاحظ والدها أنها تمطره بسيل من الأسئلة ، استوقفها فى الحال ودق بعصاه على جذع شجرة وخاطبها حازماً : « لا تسألى أحداً سؤالا قبل أن تحاولى جهدك الإجابة عنه بنفسك . اقتصدى بعض النقود واشترى عدسة مكبرة ، وادرسى بها فم النملة ، وتحققى من شكله وحدك » . فأثر فيها هذا القول ، فأخرجت الفكرة إلى حيز العمل ، إلى أن أصبحت عالمة يشار إليها بالبنان .

إن تعليم الأطفال فنون الحياة يتطلب حنكة وحكمة وصبراً . وكثيراً ما تثبط عزائمنا فنفشل ، ولكن المثابرة فى هذا السبيل تجارة رابحة ، بل صفقة مقطوعة النظير ، والعمل على بلوغها تحد لأسمى ما فينا من الكفايات ، وامتحان لأجلّ مواهبنا .

صَدِّق أَو لا تُصَدِّق

● كان الفلاحون فى أوربا إلى أوائل القرن التاسع عشر، ينامون، وأقدامهم لا رؤوسهم على الوسائد، اعتقاداً منهم أن الأقدام أكثر من الرؤوس معاناة فى النهار، فهى أجدر منها بالراحة.

● عندما تزوج الملك لويس الرابع عشر مدام ده مانتنون فى سنة ١٦٨٤ كانت تستدعى طبيبها مرة أو مرتين فى الأسبوع لكى يفصدها حتى لا تتورد وجنتاها خجلا إذ تسمع الحكايات البذيئة التى كانت تروى فى البلاط الفرنسى.

● من أغرب الحقائق التى جمعها القسم الطبى للقوات الامريكية المسلحة، أن فى جنوبى المحيط الهادى محارات كبيرة تطبق على قدم السباح كما يطبق الفخ المنصوب. وأن فى أدغال بورما علقاً ضخما شرهاً يحدث فقر الدم فى فترة قصيرة، وإذا علق الجلد وأخذ يمتص الدم فلا يجب أن يزال ينفضه باليد نفضاً، لأن ذلك يترك رأسه غارزاً فيسبب مرضاً، بل يجب مس جسمه بسيجارة مشتعلة فينكمش ويسقط.

● سكان الولايات المتحدة سدس سكان الكرة الأرضية، ولكنهم يستهلكون من البن ما يفوق ما تستهلكه سائر البلدان مجتمعة.

● فى ريو ده جانيرو عاصمة البرازيل سيد كريم يدفع عشرين ريالا فى السنة بدل اشتراكه فى صحيفة يومية تصدر فى نيويورك، ويدفع ٤١٠٠ ريالا إضافياً لكى تنقل إليه بالبريد الجوى.

● كانت إميكلى إحدى مدن يونان القديمة، وكثيراً ما كان يزعجها ما يشاع عن قرب غزو الإسبرطيين لها، فصدر قانون شديد يمنع ذكر العدو. وبعد قليل وصل الإسبرطيون، فلم يجرؤ أحد على إنذار الشعب، فوصفت فى التاريخ بأنها « المدينة التى أهلكها السكوت ».

● أغار الألمان على لندن فى الحرب العالمية الأولى مائة غارة وثلاث غارات، ولكن مجموع القنابل التى ألقيت على قلب بريطانيا لم يزد وزنها على ٢٧٠ طناً، وهو أقل قليلا من عشر وزن القنابل التى ألقيت على همبورج فى غارة واحدة من غارات أواخر يوليو ١٩٤٣

● فى خرطوم الفيل — على ما يرويه فرانك لاين فى كتابه « مشهد الطبيعة » — أربعون ألف عضلة. فهو أقوى عضو واحد بين أعضاء الأحياء جميعا، وبه يستطيع الفيل أن يرفع حملا وزنه طن تقريبا، وأن يقذف رجلا مسافة أربعين ذراعاً. وقد اصطدم فيل نافر بقطار مشحون، فخرجت القاطرة وبضع عربات عن الخط وانقلبت، وقتل الفيل ودفن تحت أنقاض القطار.

سرّ حدث خطير بعد
الطائرات فى تاريخ الحروب

رادار

أخطر سلاح سرّى فى هذه الحرب

دونالد ولهلم

فى سنة ١٩٤٠ أصيب هتلر بهزيمته الأولى على أيدى فئة قليلة من طيارى سلاح الطيران البريطانى ، وكان هتلر يكثرهم بطائراته، بنسبة عشرة إلى واحد . فقد أراد هتلر أن يقضى على سلاح الطيران البريطانى ويدمر مطاراته بغارات النهار ، فلما عجز عمد إلى ضرب المدن ليلا بالقنابل . ولكن أمكن هذه « الفئة القليلة » ، وظهورها إلى السماء ، أن تتصيد طائراته السود ، على أى ارتفاع كانت . وقد استطاعت طائرات قليلة متفرقة فى مهابط عديدة ، أن تصد طائرات العدو ، من أى جهة جاءت ، وفى أى مكان أغارت ، لأنها كانت تتلقى الإنذار قبل اقترابها بمدة كافية . ولكثرة ما حطم من الطائرات الألمانية ، لم يكن لهتلر بدّ من التسليم بالهزيمة .

وقد بذل وكلاء النازى جهدهم ليكشفوا سر ما صنع البريطانيون بطائراتهم . ولو أنهم التمسوه فى سنة ١٩٣٥ ، يوم كانوا أحراراً فى تطوافهم بإنجلترا ، لجاز أن يقفوا عليه فى طريق ريفى هادئ بجوار مدينة دافنترى .

ففى الصباح الباكر ، فى يوم من مارس سنة ١٩٣٥ ، كانت عربة عتيقة رثة واقفة على الجليد فى جانب الطريق ، وفى السماء طائرة من طائرات سلاح الطيران البريطانى لا تفتأ تظهر وتختفى . وكان فى العربة امرأتان شابتان من الساعدات فى معامل البحث العلمى ، ممن يعرفن كيف تكتم الأسرار ، ومعهما رجل اسكتلندى قصير مكتنز ، أسود الحدقة ، يلبس نظارة ، وعمره ٤٣ سنة ، هو روبرت وطسن واط (وهو الآن السير روبرت) ، وهو عالم بريطانى ، ومخترع ، وخبير بالأجواء . وكان معه فى العربة علماء فى الطبيعة ، وآخرون فنيون ، يحدقون فى أجهزة صنعوها على عجل . وأخيراً لانت نظراتهم الصارمة ، وجعلوا يتبادلون الرأى

فى انفعال وابتهاج ، فقد نجحت تجربتهم . وهذه الأجهزة على قلة إتقانها وخشونة صنعها ، استطاعت أن تكشف اقتراب الطائرة ، وأن تتبعها حيث طارت كأنها إصبع تتحرك .

فهذا ميلاد أكبر سلاح سرى لهذه الحرب فى بريطانيا ، هذا ميلاد « رادار » . وهو السلاح الذى به كسبت « معركة بريطانيا » . ولقد كان لدى الولايات المتحدة حينئذ جهاز يؤدى الغرض من كشف الطائرات بالراديو ، ولم تكن الأمتان فى ذاك الوقت تتبادلان ما لديهما من أسرار حربية . والفئة القليلة من الناس التى عرفت الغرض منه لم تذكر شيئاً عنه إلا بالشفرة . فظل سراً محفوظاً على أحسن ما تحفظ الأسرار الحربية — حتى ١٧ يوليو سنة ١٩٤١

ففى هذا اليوم أذاع اللورد بيفر بروك إذاعة يستنجد فيها بكل فنى خبير بالراديو ، أن يسرع إليه ليدخل فى خدمة « رادار » . ولم يكن عندئذ سبب يدعو إلى حفظ « رادار » سراً على الألمان ، إذ كانوا قد صنعوا جهازاً شبيهاً به ، وإن كان أقل منه جودة ، قلدوا به جهازاً وقع فى أيديهم . (بعد ذلك رأى البريطانيون العدو يبنى محطة « رادار » على الجانب الفرنسى من بحر المانش فى برونيفال ، فلما أتمها أرسل إليها البريطانيون فرقة من فرق الكوماندو فعادت بكل ما فيها) .

فما هذا السلاح السحرى الخفى ؟ وكيف يعمل ؟

« رادار » — كما هو اليوم — يطلق أمواجاً قصيرة من أشعة الراديو تفحص الهواء فى مدى أميال من فوقه ومن حوله ، وتسير بسرعة الضوء أى ١٨٦٫٠٠٠ ميلا فى الثانية ، وهى أكبر مليون مرة من سرعة أمواج الصوت ، التى كانت قديماً تستخدم فى كشف الطائرات بكشف أصواتها على مدى قصير . وأشعة « رادار » لا تتأثر بالضباب ولا بالدخان ولا بالمطر ولا بالثلوج .

فإذا اصطدمت أشعة « رادار » بطائرة أو سفينة ارتدت راجعة بسرعة هائلة ، فتسجل ما تجده على لوحة الجهاز . ويبين جهاز « رادار » الارتفاع والسرعة ، واتجاه الطائرات المغيرة أيضاً .

وأجهزته قائمة حول بريطانيا ، وفوقها لا تنام ، ولا تكل ، ولا تخطئ ، ولا يفلت من نظراتها المحيطة شئ . وعلى مداها لا تستطيع سفينة أو طائرة ، فوق الماء أو تحت السماء ، أن تفلت دون أن تكشف . فإذا هى « أبصرت » شيئاً منها أو أشياء ،

كان من الممكن فى الحال إحكام تسديد المدافع والأنوار الكاشفة ، بالرغم من أن أهدافها لا تزال خافية .

وفى سنة ١٩٤٠ — ١٩٤١ حين زين لنا أن نعتقد : أن بين طيارى سلاح الطيران البريطانى رجالا لهم « عيون القطط » ، وأن آخرين كانوا يطعمون الجزر ، فصارت لهم قدرة — على الإبصار فى الظلام — كان « رادار » هو الذى يدل رجال الطائرات المطاردة الليلية على مواقع قاذفات القنابل المعادية . ولو قال أحد ، قبل خمس سنوات : إن طائرة أو سفينة تستطيع أن تعين بالراديو هدفاً من أهداف العدو ، فتنطلق إليه ، فتنسفه قطعاً ، لعدّ هذا إغراقاً فى الخيال ، ولكن « رادار » جعله ممكناً .

وقد أنقذ «رادار» الطيارين والطائرات ورجال المطارات ، فى بريطانيا ومالطة ، من الإعياء والتلف ، حين ثقلت عليهم وطأة العدو . أما ما وفره « رادار » من استهلاك قطع الطائرات ، ومن البنزين والزيت وأعمال الصيانة ، بأن جنبهم ضرورة الدوريات الجوية المستمرّة ، فهو أكثر من أن يحصى .

و « رادار » أسرع عملا من حواس الإنسان ألوف المرات ، إذ يؤدى وظيفته فى أجزاء من مليون جزء من الثانية .

وبواسطته يستطيع رجال الأسطول أن يبصروا ما حولهم على مدى عدة أميال ، مهما تكن حالة الجو . فإذا هم أبصروا سفينة للعدو ، أرسلوا إليها طائرة أو أطلقوا عليها نيرانهم ، فى دقة خارقة . وقد لا يسمع أحد من رجال السفينة المصابة دوى المدافع ، أو يدرى من أى ناحية جاءتها هذه القذائف .

و « رادار » يبذل فى كل مكان معونته للدفاع ضد الطائرات ، ليكفل له زيادة مستمرة فى أن يكون دفاعاً فعالا . ولما أقبلت الطائرات الألمانية لتهاجم لندن فى قوة كبيرة ليلة الإثنين ١٨ يناير سنة ١٩٤١ — انتقاماً لغارات سلاح الطيران البريطانى على برلين — تلقت ضربة قاتلة . وبالاعتماد على تعيين مواقع الطائرات بالراديو لم تعد المدافع الجديدة المضادة للطائرات تملأ الجو قذائف متفجرة ، بل تطلق لتصيب المقتل .

ولعل « رادار » كان خليقاً أن يدفع الكارثة التى حلت بميناء بيرل . ففى ذلك الصباح المشئوم ، صباح الأحد ٧ ديسمبر ، كان الجندى جوزف لكهرد فى راحته ، فصرف وقت فراغه يجرب جهاز «رادار» ، فأبلغ أن طائرات تقترب على بعد ١٣٢ ميلا . ولكن كان رؤساؤه يعلمون أن هذا موعد وصول عدد كبير من الطائرات

الأمريكية ، فلم يأمروا بإطلاق صفارات الإنذار . أما جزيرة مدواى فقد استخدم حماتها « رادار » فكسبوا به المعركة التى وصفها روزفلت بأنها : « نصرنا الأكبر فى سنة ١٩٤٢ » . وأعان « رادار » على إنقاذ لينجراد وموسكو وستالينجراد . وبعد هذه الحرب سيجد كثير من رجال المعامل عملهم مدى الحياة فى « رادار » ، فيعينون على زيادة السلامة والأمن فى الهواء وعلى الماء . فبهذه «العين السحرية» يستطيع رجال المطارات أن يتبعوا عبور طائرات الركاب ، فإذا خرجت عن خط سيرها المرسوم أمكن تنبيهها بالتليفون اللاسلكى . ويمكن إنذارها بما أمامها من جبال أو غيرها من الحوائل ، وبما هو قريب منها من الطائرات الأخرى أو السفن . فإذا وجب عليها أن تهبط اضطراراً فى جو كثيف معتم ، أمكن أن تبلغ أين موقعها من موقع أحد مهابط الطائرات.

والبواخر الكبيرة لن تتحسس فى المستقبل أيضاً طريقها فى الضباب ، خائفة من جبال الجليد أو من السفن الأخرى ، ويمكنها أن تعرف تماماً أين موقعها — فى كل وقت من الأوقات — من مواقع أى جزيرة أو أى عقبة أخرى فى الماء .

ومن قبل فى سنة ١٩٢٢ ، اكتشف العلماء الأمريكيون أنه إذا مرّ بين جهاز لاسلكى مرسل وجهاز مستقبل ، جسم صلب ، كسفينة مثلا ، أحدث هذا الجسم تأثيراً فيما يستقبله الجهاز . ثم اكتشفوا بعد ذلك أنه ليس من الضرورى أن يمر الجسم الصلب بين المرسل والمستقبل لكى يستكشف ، فإن الجسم الصلب يعكس أو « يرد » أشعة الراديو الكثيرة التذبذب التى تصدمه ، فلذلك كان من الممكن أن تجعل المرسل والمستقبل فى مكان واحد . وكما يمكن أن يكونا على ظهر سفينة — مثلا — فليس بعيداً أن يمكن ذلك على طائرة .

وفى سنة ١٩٣٠ كان لدينا جهاز يستطيع أن يكشف الطائرة فى الجو ، وفى سنة ١٩٣٤ استطعنا أن نقيس المسافة بين الجهاز المكتشف وبين الطائرة . وركبت البحرية البريطانية أجهزة « رادار » على عدد من السفن الحربية والقواعد الساحلية. واستقلت بجهاز صممته لنفسها قام مكتب المعايير البريطانى ببحث أسسه العلمية تحت إشراف الدكتور دلينجر وكذلك كان قسم الإشارات بالجيش فى طليعة المهتمين بتنشئة « رادار » وتحسينه فى معامله الواسعة السريعة النمو .

إن القواعد التى بنى عليها « رادار » كانت معروفة لدى عدد عديد من صغار هواة الراديو وطلبة المدارس الثانوية . وقد تسلم مكتب تسجيل المخترعات فى بريطانيا

والولايات المتحدة مئات من الطلبات لاستعمال هذه المبادىء استعمالا تجارياً، ومنح عشرات من الرخص، ونشر تفاصيلها. ومنها رخصة منحت سنة ١٩٣٦ لجهاز يقيس ارتفاع الطائرات بواسطة صدى أمواج الراديو، وهو جهاز صنع فى معامل بل فى مدينة نيويورك.

لقد بلغ «رادار» اليوم مبلغاً من التعقيد والتنوع والتقدم حتى لم يبق إلا مجال ضيق — إن كان قد بقى شىء — لآراء أحد من المخترعين الذين لم يحيطوا بعلمه بعد.

من أجل هذا رجا وكلاء الحكومتين فى بريطانيا والولايات المتحدة أن يكف الجمهور عن توجيه الأسئلة أو تقديم المقترحات.

وقد استعملت ألمانيا وإيطاليا واليابان جهاز رادار فى نطاق واسع، فبين الفريقين المتحاربين سباق يجرى الآن على قدم وساق للتفوق فيه. وتعلن الصحف البريطانية بين وقت وآخر عن تقدم مدهش فى هذا الميدان الجديد من ميادين العلم. وأما الولايات المتحدة، وهى موطن الراديو الأكبر فى زمن السلم و «مقر قيادته»، فقد ضمت مواردها العلمية إلى موارد بريطانيا والأمم المتحدة الأخرى، فإذا استطاعت أن تحتفظ بما لها من تفوق «رادار» فقد يكفى هذا لكسب الحرب.



● فى العالم قوتان — السيف والروح، والروح أبداً غالبة.

[نابليون]

القصاص جزاء . . .

● كانت ميرل أوبيرون ممثلة السينما المشهورة تزور الجرحى فى مستشفى بلندن فسألت أحدهم «أقتلت نازياً» فأجاب بالإيجاب فقالت «بأى يديك؟» فرفع يمناه فانحنت عليها ميرل وقبلتها. ثم انتقلت إلى الجريح الثانى وسألت: «وأنت، أقتلت نازياً» فقال على الفور «حتما، وقد عضضته حتى مات»!

[ولتر ونشل]



اثنان عادا

فى ليلة الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٤٠ كانت السفينة « أنجلو ساكسون » — وهى باخرة إنجليزية موقرة بالفحم إلى أمريكا الجنوبية — قد غادرت جزر الأزورز وصارت منها على مسافة خمسمائة ميل. وكانت تشق طريقها بين الأمواج المتلاطمة فى اتجاه جنوبى غربى. وكان الليل حالك السواد، والسحب الدانية المسفة تسبح فى صفحة السماء، وإذا بأربعة انفجارات متلاحقة حتى لكأنها انفجار واحد، ترج السفينة من مقدمها إلى مؤخرها. وبدا على ربع ميل منها شبح أسود يسرع إليها ومدافعه تومض.

وكانت القذيفة الأولى التى أطلقتها الغواصة قد أهلكت كل من كانوا على الجانب الأيمن من الباخرة، ثم غمرها كلها وابل من الرصاص، واشتعلت النار فى زوارق النجاة، وطار سالك اللاسلكى.

وكان اثنان يجثمان عند مرقب الربان، فرأيا قارباً يدلى فزحفا إليه، فلما لامس الماء انحدر إليه ثلاثة على الحبل، وبعد هنيهة هبط إليه اثنان آخران من سطح السفينة.

ونجا القارب من مراوح المحركات ولما يكد، وذهب يسبح حتى صار على مائة قدم من الغواصة. فانكفأ من فيه وربضوا كأنهم حيوانات مطاردة، وحبسوا أنفاسهم. وانطلقت فجأة ألسنة من النور قرب « الأنجلو ساكسون » تدور على الموج وتكشف ما عليه. أطواف النجاة! سددت الغواصة مدافعها وانطفأت الأنوار. فما أسرع ما امحت الألواح بمن كانوا يتعلقون بها!

وامتد لسان من النور الكشاف، ونفض السفينة المنكوبة « الأنجلوساكسون » وتهاوت القذائف المحرقة على حطام غرفة اللاسلكى، حتى لا يبقى أحد حياً فيبعث برسالة. ثم ارتفع مقدم السفينة حتى كاد يصبح عمودياً، فلما ابتلعتها الأمواج اختفت الغواصة فى ظلام الليل.

وقضى السبعة الناجون ، من ملاحى الأنجلوساكسون الأربعين ، ليلتهم متزاحمين تعساء ، وطلع الفجر فلم يطلع عليهم إلا بأميال عارية من المحيط والسماء .

وتولى الضابط الأول س . ب . ديني القيادة ، وكان الجرحى أول ما عنى به . وكان أبلغهم إصابة ر . ه . بلتشر عامل اللاسلكي الثانى ، فقد مزقت قدمه شظية ، فنظف له الضابط بمعاونة المهندس الثالث قدمه المهشومة كأحسن ما يستطيع ، ثم نقلوه إلى مقدم القارب .

وكان المدفعى ريتشارد بى قد شقت شظية فخذه الأيمن ، والطباخ لزلى مورجان قد مزقت الشظية ما فوق كعب رجله اليمنى ، والنوتى روبرت تابسكوت قد انكسرت إحدى ثناياه وبدت أصولها ، والنوتى روى ويديكوم قد هرست يده حين حشرت بين جانب السفينة والقارب عند تدليته .

وبعد مواساة الجرحى على خيرما تيسر ، وجه الضابط الأول القارب وجهة جزر ليوارد — على مسافة ٢٨٠٠ ميل — فى هذا القارب المكشوف الذى لا يتجاوز طوله ١٨ قدماً ! ولكن لم يكن من هذا مفر ، فقد كان تيار الماء واتجاه الريح يحولان دون السير شرقا . ونزح الأصحاء القادرون الماء من القارب ، وشدوا فى وسطه صارياً مدوا عليه شراعاً . ثم نظروا فى أمر زادهم ، فلم يجدوا إلا ثمانية عشر رطلا من لحم الضأن المساوق المحفوظ ، وإحدى عشرة علبة من اللبن المركز ، واثنين وثلاثين رطلا من الكعك ، وكان فى فنطاس الماء أكثر من نصفه ، وفيه حوالى أربعة جالونات .

وكان عامل اللاسلكى هو وحده الذى وسعه أن يحمل معه شيئاً من السفينة ، فكان معه موسى ، ومقدار رطل من الطباق « الدخان » ، وسجله اللاسلكى وجداوله . وكتاب يشتمل على مقتطفات من الإنجيل ، بعدد أيام السنة . وقد اتخذ القوم أوراقه للف السجاير ، وكانوا يحرصون على أن يقرأوا ما فيها قبل أن يفعلوا ويحيلوها دخاناً . واتخذ الضابط من ظهر الجداول سجلا له ، وكان التقويم الذى ابتدعه أن يحز لكل يوم حزاً فى حافة السفينة .

وتناولوا أول طعام ذلك المساء فى الساعة السادسة ، فخص كلا منهم كعكة . وشربوا أول ما شربوا عند طلوع الشمس فى اليوم الثانى . وقدر الضابط جراية كل رجل فى اليوم بنصف كوب من الماء صباحاً ومساء ، ومعه قليل من اللبن ، ونصف كعكة صباحاً ومثل هذا مساء .

وطاب لهم السير إلى يوم الأحد ، ثم ركدت الريح وامتنعت المطاوعة ، وظلوا

طول يومهم يسيرون على غير هدى والشمس الحامية تضربهم ، وجفت أجسامهم وتعذر عليهم أن يبلعوا الكعك الناشف إلا بعـد أن يبلوه أولا .

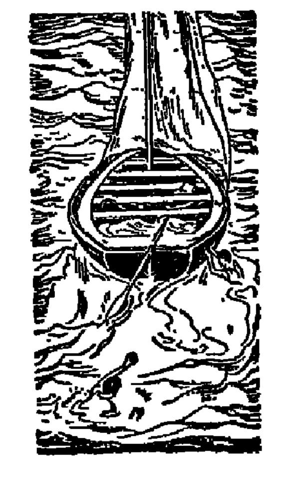
وكان بلتشر ومورجان يكابدان آلاماً متزايدة البرح ، وورمت قدماها ، فاحتاج الأمر إلى أن ترخى الضمادات المشـدودة ، فلما أرخيت شاع فى القارب نتن الجراح التى تقيحت .

وفى الساعة السادسـة وزع الضابط جراية الماء ثم قال : « احتفاء بيوم الأحد سيكون عشاؤكم لحم الضأن » . وكان القوم يشخصون إليه مفتونين وهو يفتح العلبـة ويوزع نصف ما فيها . فجعلوا يأكلون على مهل وفى رفق ليطيلوا متعتهم بكل لقمة . وكان هذا أنعش لنفوسهم من الشراب .

ولكن اليوم التالى ، والذى بعده ، جعلا عذابهم غليظاً فى هذا القارب الذى سكن به الموج والريح . وكانت الشمس المتلظيـة تشـويهم ، واحتمى بعضهم بالشراع من الوقدة فألفوا أنفسهم فى مثـل الأتون ، واشـتد بهم العطش ووجـدوا حرّه فى جوفهم ، وعدمت مسامهم ما يخرج منها فانسـدت ، ولوحت الشمس جلودهم فنشفت وتجعدت ، ويبست ألسنتهم فلا ريق لهم . وتلقوا جراية الصـباح من المـاء فألقوها فى أفواههم بلهفة ، فكانت أشـبه بقطرة على ورقة من النشاف .

وصب الأصحاء من ماء البحر على أجسام الجرحى ، ثم تدلوا هم فيـه ، وحرصوا على أن تكون وجوههم فوق الماء لئـلا تغلبهم الرغبة فى الشرب ، وامتصت أجسامهم الماء من المسام فعاد الريق يجرى على ألسنتهم ، ولـكنها راحة لم تدم .

وفى مساء اليوم السابع أراد الضـابط أن يشجعهم ويقوى فى نفوسهم الأمل . فأجرى قرعة ، اختار لها سبعة أيام — من التاسع إلى الخامس عشر من سبتمبر — يلتقطون فى خلالهـا أو يبلغون أرضاً ، وكتب الأسماء على قصاصات وألقاها فى قبعة عامل اللاسلكى ، فسحبها الطباخ . والذين يخسرون يكون عليهم حينئذ أن يسقوا الذى يربح كل ما يستطيع أن يشرب .



وقد لقيت القرعـة نجاحاً عظيما ، فعظم ضجيج القوم وعلت أصواتهم المشقوقة المبحوحة ولهج كل منهم باليوم الذى فى قصاصته ، وتهيأوا للنـــوم فى ليلتهم وهم لا يزالون يتجادلون . فـكأن مجرد إجراء قرعة على إنقاذهم ،

كان كافياً لجعل الأمر حقيقة واقعة .

وفى اليوم التالى اشتدت الريح ، وصار البحر مضطرباً رجافاً ، فساروا سيراً حسناً واغترف قاربهم من البحر ملء بضعة دلاء ولكنهم لم يكترثوا للماء ووطنوا نفوسهم ، وهى منشرحة ، على البلل فى ليلتهم ، وحدثوا أنفسهم بأصوات مشقوقة من العطش أن هذه آخر ليلة يقضونها فى الماء . ولكن النوم لم يواتهم ، فقد كان بلتشر يهذى ، وكان ما يطلقه من الضحكات العصبية ، ويرفع به صوته من الغناء ، أو عقيرته من الشتائم لا تتسنى معه راحة .

وأجمعوا رأيهم فى الصباح على أن البتر هو الوسيلة الوحيدة التى يرجى معها إنقاذ حياته . وكانت الأداة التى لا أداة لهم غيرها لهذا البتر ، هى « فأس » ، وكانت إلى هذا كليلة الحد صدئة ، ولم يكن عندهم مطهر أو بنج .

وكان بلتشر حاضر الذهن صافيه وإن كان ضعيفاً منهوكا . وقد وافق بشجاعة على بتر قدمه ، ولكن أعصاب الضابط وعزيمته خانته فى اللحظة الأخيرة .

فقال له : « تجلد ياصاحبي ، فلا بد أن يعثروا علينا ، وحينئذ يتولاك طبيب فيصلح من حالك » .

فابتسم بلتشر بضعف ، وأغمض عينيه .

ولما حملوا إليه جرايته من الماء قال لهم : أعطوه من هو أحوج إلى الماء منى . ولفظ روحه فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى فى هدوء . فنظر الباقون بعضهم إلى بعض غير مصدقين ، أبهذه السرعة يموت ؟ إن هذا غير ممكن ! ووقفوا حيارى عاجزين ، وقد كبتهم الموت بما ينطوى عليه من حسم فظيع . وألقى الضابط أوامره بإيجاز وبصوت خفيض ، لإنجاز ما ينبغى إنجازه . وحمل تابسكوت وأحد النواتية الجثمان إلى الحافة ودلوه فى البحر فى رفق ولم يكن ثمة ما يلفونه عليه ، أو يثقلونه به ، فحمله الموج ، ولبثوا يلحظونه حتى غاب عن أبصارهم .

وفى اليوم الحادى عشر اعترى الضابط هيضة فى جوفه أورثته مغصاً وتشنجاً وغثياناً ، فازرقّ وجهه وارتسمت عليه للألم خطوط ، وصار جلده ، حتى حيث لوحته الشمس ، ميتاً وبلون الطين فى رأى العين ، فخط فى سجله آخر ما أثبته فيه بيد لا تقوى على أكثر من رسم الحروف : «اقتراح فيما يتعلق بمؤونة القارب ـ على الأقل قنطاسان من الماء ، وعلب من الفواكه مثل الخوخ والمشمش والكمثرى الخ الخ »

وفى الرابع من سبتمبر أثبت وثقل ، فلم تبق له قدرة على الحركة ، ولم يعد يستطيع

أن يتولى القيادة ، وشربوا آخر جرايتهم الضئيلة من الماء ظهراً . وبعد قليل مال القارب بغتة ، ولم يكن ثم أحد عند الدفة ، وكان « بينى » الذى تناولها ، يطفو على مسافة من القارب ووجهه إلى الماء . وكان من العبث أن يحاول أحد إدراكه .

وانقضى يومان آخران . ولا شىء فى السماء يؤذن بمطر . وكأنما أبت المقادير إلا أن تتم النكبة ، فأقبلت موجة عظيمة فنزعت الدفة وحملتها ، فجعلوا المجداف مكانها .

وبعد ساعات طويلات رفع الضابط نفسه على كوعه ، وقال وشفتاه منتفختان قد تغير لونهما : « سألقى بنفسى فى الماء ، فمن يجىء معى ؟ »

قال النوتى الثالث : « أنا » .

فأدار الضابط عينه فى الباقين ، فهزوا رءوسهم ، واحداً واحداً ، ولكن هول ما لا بد أن يشهدوه ، راعهم ، فشخصوا بأبصارهم إلى الرجلين اللذين قضيا على نفسيهما بالهلكة .

وقال النوتى الثالث ، بلهجة تكاد تكون مرحة : « لحظة واحدة فإنى أنوى أن آكل وأشرب ! » ، وملأ طاساً من ماء البحر وجرع جرعاً شديداً ، ثم بل كعكة فى ماء البحر وأكلها . ونزع الضابط خاتمه ومد به يده إلى ويديكوم وقال : « اعط هذا لأمى إذا نجوت » . وفهق ، ثم قال : « وثابروا على الاتجاه غرباً » .

وتحامل الرجلان على نفسيهما حتى ركبا الحافة ، ثم سمع صوت الغطس فى الماء . . .

ولم يكن للثلاثة الذين بقوا ما يقيم أودهم فما كان معهم ماء ، ولا خير فى الكعك بغيره . وكان مورجان يهذى معظم الوقت وكان تابسكوت وويديكوم أضعف من أن يستطيعا التجديف أكثر من ساعة . ولكنهم تشبثوا بالحياة ، وجعلوا ينفقون ما بقى لهم من قوة ضئيلة بحساب وتدبير .

وفى ذات صباح نهض مورجان من حيث كان راقداً وقال بصوت جلى ، وكأنما يذكر أمراً عرضياً : « سأذهب فى هذا الشارع لأشرب شيئاً » . ومشى بسرعة إلى المؤخرة وخطا فهوى ولما ظهر مرة أخرى كان الموج ينأى به ، ولم يتحرك حركة ، ولم يصح صيحة . فنظر كل من تابسكوت وويديكوم إلى صاحبه فما بقى غيرهما من السبعة الذين غادروا « الأنجلوساكسون » .

ولما كان الظهر ، بلغ العطش بتابكسوت مبلغاً يعجز عن احتمال عذابه ، فشرب قليلا من ماء البحر ، وما كاد يفعل حتى اعترته نوبة من القىء تركته ساكناً لا يقوى على شىء .

وأخذت ويديكوم آلام تشنجية فى

أحشائه كأنها التمزيق ، فألقته متيبساً فى قاع القارب ، وكان يتقلب من تبريح الأوجاع ، وتنقبض يداه على بطنه ، وينفجر غضبه ، وقد خبله ما يقاسى ، باللعنات العصبية .

ومالت الشمس عن كبد السماء ، وأخذت تدلف إلى المغرب فى بطء . فلما قل الحر خفت آلامهما ، وظلا راقدين فى ذهول محموم . ولما طلعت الشمس فى اليوم التالى لم يدركا أكثر من أن هذا نهار . وراح القارب يسبح كما يشاء ، على ماء مطمئن فى جو حار رطب ، وقد حل بالطبيعة نفسها مثل الفتور الذى حل بنبض الحياة فى القارب .

وقال تابسكوت وهو يستجمع ما بقى فيه من قوة كليلة ، بجهد ، : « سألقى بنفسى فى الماء ، فهل لك فى مثل ذلك ؟ »

فهز ويديكوم رأسه بضعف أنْ نعم ، ودلى نفسه من الحافة وهو متعلق بها . ورمى تابسكوت نفسه فى الماء ، فطفا ، وبدا كأنما تشرب الماء البارد ، ونبهت الصدمة أعصابه الوانية ، وحركته إلى العمل فرفع رأسه فألفى نفسه على مسافة خمس أقدام أو ست من القارب . وكان ويديكوم لا يزال متعلقاً بالحافة .

فصاح تابسكوت « تعال ! » ولكن ويديكوم لم يبد عليه أنه سمع .

وعاد يصيح : « دع القارب » ، غير أن ويديكوم لم يتحرك .

وعالج تابسكوت أن يذهب إليه ، فأدهشه أنه يستطيع أن يسبح ، فلما صار إلى جانب القارب سأله : « لماذا لا تدع القارب ؟ »

فهز ويديكوم رأسه هزاً عنيفاً .

فتلهب تابسكوت غضباً ، وحدث نفسه أن ويديكوم يخلف وعده ، فمد يده فتعلق هو أيضاً بالحافة .

وتجادل الرجلان وهما معلقان هكذا ، وكان تابسكوت قد آلى ليذهبن ، ولكنه آلى أيضاً إذا ذهب أن يذهب معه صاحبه ، ولكن ويديكوم كان قد خفت حدة آلامه ، وأنعشه الماء .

وقال : « إذا كانت فيك بقية من القوة استطعت بها أن تسبح هذه المسافة ، فإنك تستطيع أن تصبر وتحتمل زمناً آخر » .

فرأى تابسكوت أن هذا صحيح ، وكان قد أصبح مستعداً أن يقتنع . وبعد جهد ما استطاعا أن يعودا إلى القارب ، وأن يزحفا فيستترا بغطائه ، وأحسا أنهما وهبا فسحة جديدة من الأجل .

وخطر لتابسكوت خاطر : لماذا لا يشربان الكحول الذى فى القارب ؟ فأفرغاه فى علبتى لبن مركز ، نخص كلا

منهما حوالى ثلاثة أرباع كوب من الزجاج ، وجلسا متقابلين كأنهما يتشاربان فى حان بنيو بورت . وشربا ، فكوى الكحول حلقيهما الجافين وألهب أحشاءهما ، ولكنه سائل على أى حال !

وبعد عدة جرعات تبسما ، ونسيا الخطر والألم ، وراحا يضحكان ويتمازحان مزاحا خشناً بأصوات غريبة مشقوقة ، وأفواه مشوهة كالميزاب ، ، وتذاكرا سهرات لهما فى موانئ اجنبية . ولما ذهب أثر الكحول ، استلقيا وناما ، وكان هذا أول نوم مريح ظفرا به منذ غادرا السفينة المشتعلة .

وقبيل الصبح أيقظتهما جلجلة رعد فظيعة ، وبعد هنيهة سقطت قطرات على غطاء القارب . المطر !

وكان الماء يسح حثيثاً متداركا ، فسرعان ما صار الرواق ، الذى نشراه بين دسر المجدافين ، بركة . فراحا يلقيان فى حلقيهما الماء بالعلب ، فيسيل من جانبي الفم على ذقنيهما وصدريهما ، وهما يضجان ويعجان من فرط السرور بأصوات كأصوات الحيوان ، فما سرهما شراب فى حياتهما كما سرهما هذا . ثم تقلا الماء — ستة جالونات منه — إلى إناء .

وبعد أن ارتويا أدركا ، لأول مرة فى الأيام الأخيرة ، أن ما يحسان به هو الجوع ، فغمسا الكعك فى الماء وأكلا ، وارتدت إليهما الحياة . ولم تثب إليهما القوة ، فقد كانا ضعيفين جداً ، غير أن التيار تحول ، والجزر آذن بالمد . فصار ويديكوم جذلا .

وقال : « لقد كنت واثقاً أننا سنجتاز هذه المحنة أيقنت من ذلك فى اللحظة التى عدنا فيها إلى القارب . وما دمنا لم نذهب حينئذ فى سبيل غيرنا ، فإن من المعقول أن تكون النجاة قد قسمت لنا » .

وكان هـذا هو اليوم الثانى عشر من سبتمبر ، ويومهم الثالث والعشرين فى القارب

وظلت الريح طيبة ستة أيام ، وفيها وجدا كل ما اشتهيا من الماء . وبلغ من اغتباطهما بالنجاة من الموت عطشاً أنهما صارا يسخران من جوعهما . وجمعا ما بقى من طباق عامل اللاسلكى وحشوا «البيبة» ودخنا قليلا

ولكن الحر صار أشد عليهما وآلم لهما والهواء أثقل ، والرطوبة أكثر ، وكانت أشعة الشمس عند الظهر تصهرهما وتخزهما وتلسعهما لسع الإبر المحماة . ولما دخلا فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر كان الماء قد نفد مرة أخرى ، ولكن هذا لم يكربهما كما كربهما من قبل ، فقد تعلما فن احتمال

الآلام والتشدد لها . وجادتهما السماء مرة أخرى فى بكرة اليوم العشرين من سبتمبر ، فمدا الغطاء وشربا حتى هنئا . وبينما كان الماعون يمتلئ بالماء بلاّ ست كعكات ، وكان زادهما قد قارب النفاد ، ولكنهما كانا قد قضيا يومين على الطوى .

وكانا لا يعلمان أن دون أقرب أرض أميالا وأميالا من المحيط الأطلسى . وفى الرابع والعشرين من سبتمبر كانا يستقطران آخر ما عندهما من الماء فى الكوز ، وفتشا فى صفيحة الكعك فلم يجدا سوى كسرات وفتات ، فأصبحا وليس عندهما طعام ولا ماء .

وكانت الأسابيع الخمسة التالية حلماً ثقيلا طويلا . واليوم يتلو اليوم ولا شىء يتغير — لا الجوع ، ولا الشمس ، ولا البحر ، وصار كل شىء غيما لا يتضح أو يستبين فى هذا الألم المستمر .

وكان المطر قلما يحتبس عنهما ، ولكنهما سلخا أياماً كثيرة من غير أن يطعما شيئاً . ثم سمعا ذات يوم صوت شىء يخبط الشراع ويضرب مضطربا فى القارب . وما راعهما إلا أن سمكة طيارة قد وثبت إليهما . فأخرج تابسكوت موسى عامل اللاسلكى ، وقطعها نصفين ، وأخذ النصف الذى فيه الرأس ، وأخذ ويديكوم النصف الآخر ، فأتيا على كل شىء ، حتى العينين والعظام والزعانف .

ثم وقعا بعد ذلك على بعض نباتات البحر ، وسرهما أنهما وجدا ضرباً من سرطان البحر عالقاً بها ، كما وجدا إربياناً (جمبرى) وبعض المحار . وقد عالجا عدداً كبيراً من هذه ، ولكن إعداد وجبة كان يستغرق ساعات .

وفى التاسع من أكتوبر ، وكان يوماً ماطراً يأخذ بالنفس ، بصرا بباخرة كبيرة على مسافة نصف ميل منهما تتجه جنوباً ، فوقفا فى القارب يلوّحان بأذرعهما ويصيحان ، وحملا المجدافين وجعلا يشيران بهما ، ونفخا فى صفارة الضابط حتى انقطعت أنفاسهما ، ولكن الباخرة مضت فى طريقها .

فتهافتا على المقعد وما بقيت فيهما ذرة من القوة ، وكان قلباهما يخفقان كأنهما سيتمزقان ، ورئتاهما تعلوان وتهبطان ، فيلعان الهواء كأنهما مشفيان على الانتحاب .

ومرت أربعة أيام أخرى ، فاستيقظا بعد منتصف الليل على أصوات الرياح العاصفة واضطراب القارب ، وكان الموج عالياً ، وكأنما فقد القارب قدرته على الطفو . فأضاء ويديكوم المصباح الكهربائى فرأيا الماء على ضوئه الخافت ، إلى قريب من دسر

المجدافين . وفى هذه اللحظة انصبت عليهما ذروة موجة ، فتنـاول تابسكوت الدلو وويديكوم الـكوز ، وراحا ينزحان المـاء بكل ما أوتيـا من قوة . فـكانت تلك ليلة ليلاء .

وطلع الفجر كأنه البرق فى سماء مكفهرة وكانت الريح عاصفة حاصباً ، فجعلت تضربهما بالبرد فيلسعهما كأنه أطراف السـياط .

واحتاج الأمر إلى جهدهما معاً للتجديف ، واختلطت السماء بالمـاء فى رأى العين وإحساس القلب ، وظلا يكافحان العاصفة طول يومهما وليلهما أيضاً . ولم يدع لهما ذلك فرصة للنوم ، فالتفا بالغطاء وقد هدهما التعب وهرأهما البرد .

وفى اليوم الثانى من هذه العاصفة كانت الريح أقل اختلافاً ، فمضى القارب يخطف مع الموج العالى الذى يدفعه بأقصى سرعة .

فقال ويديكوم وهو متجهم : « على كل حال ، هذا سير حثيث » .

وطلعت الشمس فى اليوم التالى على بحر مصطخب العباب ولـكنه مأمون ، فارتميا على المقاعد منهوكين ، ثم تبادلا النظر وتبسما ، فقد خرجا سالمين من خطر جسيم آخر .

وسكنت العاصفة ، وقل ما يلقطانه من البحر ، فتكسرا على الجوع وكاد عقلهما يطير منه ، فقشرا ما جف من جلدهما ويبس وأكلا ، ماقشراه منـه ونزعا ما فى بطانة كيس الطباق الذى كان لعامل اللاسلكى وجعلا يمضغانه . ودار رأساهما ، وصار تلف أعصابهما المتفاقم يغريهما بالتماس الراحة فى الشجار المر .

ومر الأسبوع التالى وهما لا يكادان يدريان شيئاً منه ، ثم اتفق ذات ليلة أن تابسكوت ظن أنه سمع حركة سمكة فى جوف القارب ، وما كاد الصبح يتنفس حتى انحدر إلى قاعه يبحث عنها .

وأخيراً قال : « وجدتها ! »

ولـكن ويديكوم لم يقل شيئاً .

فعاد تابسكوت يقول : « لقد وجدت السمكة » ، وصعد طرفه إلى ويديكوم ليتبين السبب فى أن ويديكوم قد تلقى هذا النبأ العظيم بمثل هــذا الفتور ، فألفى ويديكوم شاخصاً ببصره .

وقال ويديكوم : « انظر ! » ، وأشار بيده .

فرفع تابسكوت نفسه لينظر ، ويده مطوية على السمكة ، فإذا أمامه خط طويل من الأرض الواطئة وشاطىء .

فقال : « أرض ، أو لا أرض ، سآكل هذه السمكة » .

وشطرها شطرين بالموسى ، وأكلاها معاً وهما يحدجان الأرض ببصرهما .

وفى عصر ذلك اليوم أذاع الراديو على العالم أن روبرت جورج تابسكوت وولبرت روى ويديكوم الوحيدين اللذين سلما من الباخرة أنجلو ساكسون التى ضربت بالطوربيد ، قد قطعا ثلاثة آلاف ميل من المحيط فى قارب مكشوف ، وسلخا سبعين يوماً من الظمأ والجوع والعواصف .

وقد عثر عليهما أحد الزنوج على الشاطىء فى اليوثيرا إحدى جزر بهاما إلى الشرق فى الطرف الجنوبى لفلوريدا ، فحملا إلى مقر الحاكم حيث استقبلهما الموظفون والأهالى استقبال الأبطال .

وقد تبين من الفحص ، فى المستشفى العام فى بهاما ، أنهما أصيبا بتلف جسيم فى الأعصاب واضطراب فى العقل ، فضلاً عما حاق ببدنيهما من جراء التعرض للشمس والتضور من الجوع والعطش . فكانا لا ينامان ، وقد تنتابهما الهستيريا أو يفتران ويكتئبان . ولكن حذق العلاج وحسن التعهد بضعة أسابيع ردهما إلى قريب مما كانا عليه من قبل .

وادخر القدر لويديكوم آخر سخرية له فى ملحمة هذا الكفاح فى سبيل الحياة . ذلك أنه ذهب إلى كندا فى فبراير ليلتحق بالباخرة « سيامىز برنس » ، وفى ١٨ فبراير ضربت بالطوربيد وأغرقت على مسافة من اسكتلندا .

وأذاعت الشركة : « أن كل من كان على الباخرة سيامىز برنس يجب أن يعد مفقوداً » .

واجه النجاح كفتى كريم . وواجه الكارثة كرجل رجل .

(لورد بركنهيد)

❦❦❦❦

المثل العليا نجوم لن تستطيع أن تلمسها بيديك ، ولكنك ، كالمقاديم من البحارة ، تتخذها مرشداً لك وتتبعها فتبلغ غايتك .

(كارل شورتز)

توجيهات لطيفة تعينك على معرفة الغرباء ، ومعرفة أصدقائك كذلك .

الناس مسلاة

جيليت بورجس

مؤلف « هل ثقفت قلبك ؟ » . ملخصة عن مجلة « الروتيريان »

ما من تجربة فى الحياة أمتع من لقاء شخص جديد . وليس المعنىّ بهذا أن تقدم إلى حسناء وضيئة من معبودات السينما ، فإن مخاطبة أى شخص عادى يمكن أن تحرك النفس أيضاً إذا عرفت كيف تستخلص المتعة منها .

وقد اتفق لى أن كنت فى ليلة موحشة بمطعم لا ينعش النفس فسألت الفتاة القائمة بالخدمة فيه: ألا تسأمين رؤية الناس يأكلون ويأكلون ؟ .فقالت : « يا لله ! كلا ! إنك لا تدرى من ذا عسى أن يجلس إلى مائدتك ، وهم يختلفون اختلافاً بيناً ، وأنا يطيب لى أن أراقبهم » .

فسألتها : « حتى ولو كانوا جفاة غلاظاً لا ينفكون يصيحون بك ويزعقون ؟ » .

قالت : « نعم على التحقيق ، فإنى أتخذ لى ملهاة ، فأزعم أنهم جميعاً ممثلون يؤدون أدوارهم فى شريط سينمائى هنا . أى نعم . واليوم فقط — عند الظهر — أقبل فتى غرير داخلا فى خفة ونشاط فألفيته كخير ما يكون ميكى رونى . وصدقنى حين أقول لك إن الناس مسلاة كبيرة » .

هذه الفتاة ذات موهبة نفسية نادرة ، فإنها تستطيع أن تفكر تفكيراً موضوعياً ، وفى وسعها أن تجد فى الناس ما يعنيها ، وأن تستمتع بهم سواء أتستخفهم كانت أم تستثقلهم ، ومتى تسنى لك أن تنظر هذه النظرة المجردة عن الهوى فإن الناس يبدون لك كأنما يؤدى كل منهم دوراً لتسليتك ، وإدخال السرور على نفسك ، فتفيد من شذوذ من تراهم كل يوم وخصائصهم ، من اللهو والمتعة نظير ما تفيده من رواية جيدة .

ومن المفيد أن تنظر إلى من تلقى ، حتى من إخوانك أحياناً ، هذه النظرة ، فإنك إذا استطعت أن تضع حولهم إطاراً خالياً ، وأن تعزلهم عن بيئتهم الاجتماعية والعملية كنت خليقاً أن تراهم كما هم بلا تحيز ، وأن تطلع على ما لم تفطن إليه من قبل . فقد يعرف أحدنا رجلا معرفة طويلة ولا يكون مع ذلك عارفاً به معرفة شخصية

صحيحة ، إذ كانت الألفة كثيراً ما تجعلنا ننظر إلى المرء نظرنا إلى الأمر المفروغ منـــه ، فنعده طيبــاً ، أو امرء سـوء ، وحكيا أو مأفوناً ، ونحبه أو نبغضه ، ونحن لا نعرف سبب ذلك على وجه الدقة .

وما زال دأب الكتاب ووكدهم أنهـم ينشدون الشخصيات الطريفـة ، وينظرون إليها نظرة موضوعية . وهل تظن أن دكنز حين التقى أول ما التقى بالأصل الذى نقـل عنه شخصية « يورياهيب » كبر عليه وهاله نفاقه ؟ كلا ، ولعـله كان أكثر عناية بأن يوريا مسيح الحاجبين ، وكيف كان يفرك كفيه فى ذلة ومسكنة .

ويحسن أن تجرب ذلك حين يدعوك الواجب مرة أخرى إلى زيارة عمتك . لماذا تدعها تسـأمك ؟ أدرس تعـابير وجهها ونبرات صوتها وإيماءاتها ، كانك تنوى أن تصور شخصيتهـا فى كتاب . فإنك بذلك تمسح سَدَدَ الذهول عن عينيك ، وتشرع فى معرفتها على حقيقتها للمرة الأولى .

والناس مسلاة إذا راقبتهم فقط ، إلا أنه لما كانت كل خلة خاصة فيهم تعنى شـيئاً ، فإن مزية الدرس لا تقتصر على المتعـة بل تتجاوز ذلك إلى الفائدة ، فإذا استطعت أن تترجم هـذه الخصائص الإنسانيـة فإن المتعـة السلبية تصبح إيجابيـــة فيتحرك خيالك وينشط .

وجرب أن تثنى على امرىء ثناء صادقاً ولـكنه غير منتظر ، وراقب أثر ذلك فإن له إمتـاع التجربة الـكيميائية . وإذا اتفق لك مرة أن تنـاول أحداً مالا فانظر كيف يتلقاه ، فإنك تستطيع إذا جعلت بالك إلى الطريقـة التى يتناوله بها ، وهل يأخـذه بسرور الوامق أو بغير احتفال ، أن تعرف هل هو شحيح مقبوض اليـد ، أو كريم مبسوطها . فإذا كان المـال نفقة طفل فإن من المحتمـل أن يضعه فى راحتـه ويروح يحركها ليسمع رنينـه استباقاً للذة إنفاقه . أما إذا كان ديناً يرد فإنه يتقبله كأنما يستهجن رده ، إلا إذا كان قد يئس من ذلك ، فإنه فى هــــذه الحالة يسرع إلى طيـه إيثاراً للاطمئنان .

ولست تستطيع أن تعرف إنساناً حق معرفتـه ، إلا إذا اتصلت أسبابك بأسبابه ، فإن الناس لا يكشفون عن حقيقة نفوسهم فى أول لقاء ، وما أشبه الاتصال من أجل المعرفة بنزع اللفائف عن موميـاء ، فإن كل ما يقوله المرء يعـد كشفاً جزئياً عن شخصيته . وإذا عرفت الطريقة وساعفتك الحيلة فإنك تستطيع أن ترفع طبقة بعد طبقة من الحديث وتزداد اقتراباً من المطوى حتى

تصـل إلى الحقيقة الباطنة ، فإذا أنت أمام ملاك أو عبـد أو قرد مقدس . وثم دائماً تلك الفرصة التى تسنح مرة فى كل ألف مرة فتهتدى إلى أندر ما فى الدنيا — الصديق .

على أنك لا تستطيع أن تكتفى بأن تدع الطبيعة تفعل فعلها بغير عمل منك إذا أردت أن تجعل لقـاء شخص جديد تجربة ، فإن هذا فن ، وينبغى أن يكون لك فيه أسلوب، وفى وسعك بالحديث الذى يراد به الاستطلاع أن تعرف هواه وتغريه بالتحدث عنه .

وإذا حرصت على أن تظل عيناك وأذناك مفتوحة فإن هنـاك دلالات كثيرة تهـديك إلى أهواء الإنسان . ولنفرض مثـلا أنك راكب قطـاراً ، فانظر ماذا يقرأ جارك ، فإنك تستطيع دائماً أن تعرف أى إنسـان هو مما يقرأ . وقد تعينك طريقته فى ارتداء ثيـابه على معرفة ذوقه ، ومن الممكن أن تدلك على عمله أو حرفته . وإذا أردت أن تستدرجه إلى الحديث فخمن من أى بلد هو فلن يثقل عليه ذلك .

ثم دعه يتـكلم وأنت مصـغ ، فإن من المرجح أن تسـتفيد شيئاً من المعـلومات الممتعة . ومما يجعل التـلاقى الجديد ذا قيمة أن كل امرىء تلقاه يعرف فى الأغلب شيئاً لاتعرفه ، فإن لـكل امرىء علماً أو خـبرة بشىء ما . وقد اتفق لى أخـيراً ، وكنت مسـتقلا قطاراً ، أن وسعنى أن أتلقى من رجل كان جالساً بجوارى درسا مسهباً فى العزل : كيف يصنع مادة العزل ؟ ومنذ متى تستعمل ؟ وما نفعها للبيت ؟ ولقيت رجلا آخر فى مطعم فأفضى إلى بتفاصيل كثيرة رائقة عن تجـارة الحلى والجواهر ، كنت أجهلها كل الجهل .

وتجـد فى أول عـدد من « ريدرز دايجست» النصيحة الآتية بقلم المرحوم جون م . سيديل محرر « الأمريكان مجازين » :

« ينبغى لتحصيل المعرفة أن تقرأ ، وتدرس ، وتدير عينك فيما حولك ، وتسأل عما تجهـل . وبعض النـاس يفعل ذلك ، ومعظمهم لا يفعـلون . وسؤال المرء عما يجهل يقتضى التواضع والوداعة . ولا يزال أبرع رجال العـالم هم الذين لا يفتأون يجمعون الحقائق » .

وبعـد أن نشرت رواية كبلنج المسماة « الربابنة البسل » سأل بعضهم ربان سفينة الصيد التى ركبها كبلنج كيف كان ؟ فقال : « رجل غريب . شاربان كثيفان ونظارة كبيرة ، وعيناه كأنهما مجهران وله ست آذان وقد سأل عشرة ملايين من الأسئلة » .

كان كبلنج رجـلا يفيد التجـارب والمنفعة من معرفة الناس . وكان يعلم أن الناس مسلاة .

الحربُ فى مُعسكر التّدريب

دون وارتن

خلاصة مقالة نشرت فى مجلة « أميريكان ليجيون »

لم يعد الجندى الأمريكى اليوم يخوض المعامع غراً غير مدرب . فكل رجل منهم يمارس — قبل لقاء العدو — ضرباً من المعارك التدريبية هى أقرب ما يكون إلى حقيقة الحرب .

فمن ذلك أن جنوداً فى معسكرات التدريب يزحفون مسافة ١٠٠ ياردة تحت وابل من مقذوفات المدافع الرشاشة ، وهى مدافع حقيقية ينقذف رصاصها على ارتفاع ثلاث أقدام فوق سطح الأرض ، فتراهم ينسابون تحته انسياب الأفعى ، فيجتازون الخنادق ، ويزحفون على المرتفعات التى تدنيهم إلى قدم ونصف من القذائف القاتلة . ثم تنفجر على مقربة منهم قذيفة ، تهزهم وتهيل عليهم الوحل والأقذار ، بينما تمضى المدافع السريعة فى قذف حممها فوق رؤوسهم .

ثم يتقدمون إلى الأسلاك الشائكة وهى تعلو ست بوصات عن سطح الأرض، فيتلوى الرجال تحتها على ظهورهم وأكتافهم . فإذا هم يدنون من أفواه الرشاشات المتدفقة حتى يشعروا بحرارتها المتوقدة . فإذا جمد أحد الجنود من الرعب حيث يكون ، فى هذه المائة ياردة التى لا تنتهى ، لم تنقطع من أجله المدافع عن قذف نيرانها . وقد بلغ الذعر من بعضهم حتى قضى ساعتين يجتاز المسافة التى يقطعها من هم أثبت جناناً فى ست دقائق . وسواء أساعات كانت أم دقائق ، فإن الجندى إذا هو اضطرب فنهض فقد هلك .

وهذا التدريب العملى على أسلوب «التغلغل» جزء من خطة حربية شاملة يراد بها توطين الجنود على صدمات القتال . ومنذ سنين وضباط الجيش الأمريكى يتمنون مثل هذا التدريب ، ولكنهم وقفوا صامتين خشية الرأى العام . أما الآن وقد واجهوا حقائق الحرب المتجهمة ، فقد وجب على كل جندى أن يتعرض لكل ما يشاهد ويسمع ويحس فى القتال الحقيقى . وأساس هذه الفكرة ، هو أن المخاطرة بأرواح قليل من القتلى تنقذ آلافاً من الأرواح . ومنذ عهد قريب أصيب أحد جنود « الهابطات » فى فخذه برصاصة منحرفة من مدفع سريع الطلقات فى أثناء التدريب ، فصرخ

صرخة منكرة ، ولـكن رفاقه جميعاً ، ازدادوا التصاقاً بالأرض ــ بفضل تدريبهم ــ ولم يقفزوا من الذعر . فهذا الجرح اليسير سيسـاعد على إنقاذ حيـاة كثيرين متى جد الجد .

ويتدرب الجنود اليوم على الزحف فى الغـابات والسهول وقذائف المدافع تصفر فوق رؤوسهم مسددة إلى مواقع الأعداء .

ويحفرون الخنـادق ويضطجعون فيهـا بينما تدمدم دبابات الاعـداء مارة فوق رؤوسهم ، ثم يثبون منهـا ليلقـوا عليهـا القذائف اللاصـقة وقذائف مولوتوف . وتنقض عليهم طائرات ترش عليهم الغازات المسيلة للدموع .

ويعـــدو الجنود فى طرق وعرة ، ويجتـازون الجداول وهم يتطوحون على الحبال ، والمواد المتفجرة تنفجر من تحتهم ، ويطلقون النار على أهداف تبدو لهم فجأة ــــ يطلقون ذخيرة حقيقية لا فارغة .

يتدربون أول ما يتدربون على مواجهة الأشراك المحجوبة التى دست فيها الألغام . وقد رأيت أحد المشاة يفجر منها أربعة فى دقيقة لقلة دربته . وقد كان الجنود منـــذ سنتين يشتكون من استـعمال بنادق التمرين فى المنـاورات ، أما اليوم فهم يتسللون وراء الرماة المختفين فى الغـابات الـكثيفة ، بينما الرماة المجيدون يقذفون الرصاص فيمر على قيد شعرة منهم .

وعلى كل معسكر من المعسكرات أن يحذق جنوده القتال فى قرى « الأعداء » . ففى « حصن بنتج » بولاية جورجيـا الأمريكية شيدوا قرية « ألمـانية » ببيوتها ومخازنهـا ومدرستها ، بل بيت « للعمدة » أيضاً . وتمتـد القرية ربع ميل على جانبى شـارعين كبيرين ، تصـل بينهما شوارع صغيرة . وفى الهجوم عليهـا يجب على المرشحين لرتب ضباط فى المشاة أن ينتزعوا المدينـة من زملاء لهم مقيمين فى مبانيهـا الرئيسية . ويقع الهجوم فى وقت متفق عليه تكتسح فيـه قذائف الرشاشات شـوارع القـرية . وبينما يهجم فريق على طائفة من المبـانى يمنع رجال الرشاشات العـدو من التقدم . ثم يعطى أحـد الضباط الإشارة ، فيقف إطلاق النـار ، ويقتحم المهـاجمون المبانى القائمة على الجانب الآخر من الشارع . وهـذا عمل مروع ، فإن الإشارة الخاطئة معناها عندئذ إبادة نصف كتيبة .

ويدرب جنود الهابطات ، بولاية نورث كارولينا الأمريكية ، على مهاجمة قرية للعدو ، وهم يقفزون من طائراتهم ، ويجمعون مدافعهم الرشاشة ومدافع الهاون والذخيرة ، ويقطعون عشرة أميال مستعينين بالبوصلة

مخترقين مستنقعات فيهـــا المواد المتفجرة والأسلاك الشائكة ، ويزحفون تحت نيران المدافع الرشاشة ، ثم بعد ذلك يهجمون على القرية بنيران حاصدة .

وجنود الهــابطات من أصلب الجنود عوداً ، فلكى يخترقوا أسلاك العدو الشائكة يجب عليهم أن يزحفوا حتى يصبحوا على مقربة منها والديناميت ينفجر من حولهم . ثم يثب اثنان منهم ، ثم يعـدوان إلى الأمام وهما منحنيان ، ثم يقذف كل منهما بكل شدة جسمه على أحد أعمدة الأسـلاك الشائكة . وفى لمح البصر يأتى على إثرهما جنديان آخران ، قد غطيا وجهيهما بأذرعتهما ، وينقذفان على الأسلاك الشائكة نفسها ، فيما بين العمودين المتداعيين . وبعـدئذ يتخذ الجنــود ظهــور هؤلاء الرجال جسراً يمرون عليه .

وفى كل مكان ضباط أذكياء يبتدعون طرقاً لتعــويد الجنود منـــاظر الحرب وروائحها . وقد تمكن علماء الكيمياء من عمل روائح تشبه روائح المعارك ستضاف إلى التدريب على القتال . فإذا أحسن استعمالها فلا شك فى أنهـا ستخفف من وقع الصدمة التى تلحق الجندى حين يجد لأول مرة رائحة جيف القتلى .

والجهود تبـذل الآن لصنع دمى تمثل رجالا أثخنتهم جراح مخيفـة . وقد تمكن أحد قواد الفرق من الفوز بصبغ أحمر كالدم يفصده الجندى من تحت ثيابه وهو يتقدم تحت القذائف .

وقد ذهب أحد ضباط الهابطات بولاية « ألاباما » إلى مذبح ، واشترى ما فيه من أمعاء الخنازير ثم نشرها على الأسلاك الشائكة وكتم الأمر عن جنوده ، ثم أمرهم بالزحف تحت تلك الأسلاك . واشترى ضابط آخر من ضباط الهابطات جثتى بغلين ماتا منذ يومين ، لتمرين جنوده على الطعن بالحربة . أما غيره فقد اتخذ لهذا التمرين جلود بعض الحيوانات فملأها سائلا أحمر يشبه الدم .

واتخذت إحدى فرق الجيش الأمريكى « غرفة الأهوال » ليعتاد ضـباطها رؤية المناظر المروعة . فيجتمع الضباط ليلا فى غابة ثم يزحفون فى خنادق مفتوحة لوضع خطة لتنفيذ أمر صادر إليهم ، وفى أثنـاء ذلك يزعجهم أزيز رصاص البنـادق ، ودمدمة السيارات على مقربة منهم ، وتنفذ إليهم الروائح المنتنة ، ونباح جريح يتعذب ، ووميض أنوار مختلفة الألوان ، وريح تسفى الرمال فى وجوههم . وإذا عمد أحد الضباط إلى التليفون يجده مكسواً بمادة لزجة حمراء ، فيضيء مصباحه الكهربائى فيرى جثة رجل

ميت — وهو دميـــة — دامى الوجه قد بقرت بطنه شظية .

وعلى ما بلغته هذه التمرينات من البشاعة فإن العـائدين من مختلف ميادين القتـال يغالون فى الإصرار على ضرورتها وأثرها . ويروون عن جنود قتلوا لأنهم لم يمرنوا على الزحف تحت رصاص المدافع السريعـة . وقد روى لى أحـد ضباط الهابطات ممن شهدوا معـارك تونس أن بعض الـكتائب كانت — أحياناً — تبطىء عن الاقتحام فى أول القتال ، وذلك لما يلحق الجنود من هول الصدمة ، إذ تفجؤهم منـاظر المعركة وأصواتها . وقد رأى مرة شرذمة من الجنود الأمريكيين يحملون المؤن والذخائر فى خلال المعمعة ، جمدوا فى أماكنهم لا لشىء إلا لأنهم سمعوا لجب القتال ودويه الشديد . ثم لم يتقدموا لتسلم ما تنتظره المدفعية من الذخائر ، بل لبـد بعضهم فى بعض ولصقوا بالأرض من الفزع ، وقد غفلوا عن أن طريقهم قد اعترضه تل يحميه .

هذه العبر المستخرجة من ميادين القتال تدل على قيمة نظام التـدريب العسكرى الجـديد ، ولا شك فى أن هـذا التدريب الغليظ الجـافى يودى ببعض الأرواح ، ولـكنها لا تزيد على ما يماثلهـا بين الذين يتعلمون الطيران أو سوق مركبات الجيش . وقد أخبرت أنه لم يجرح إلا نفر قليـل ، ولم يقتل إلا اثنان ، من ألوف الجنود الذين تدربوا على الزحف تحت رصاص المدافع الرشاشة ، ولم يغرق سوى ثلاثة رجال فى تمرينات شاقة لا يكلف القيام بها إلا المجربون من الجنود . وقليلا ما يصاب جندى فى أثناء التدريب من ديناميت متفجر .

ومنـذ عهد قريب تعب أحـد جنود الهابطات وهو يحفر خندقاً ، فاعتراه النوم فنام ولم يستيقظ حين رحلت فصيلته ، وكان لا يزال نائماً حين بدأت القنـابل تتساقط إلى جواره ، ولـكنه نجا منها غير مصاب . ووصف قائد فرقتـه الشعور الذى خالجـه وهو « تحت نار المدافع » .

وبعـد حديثى مع عشرات من الضباط والجنود لم أجـد بينهم من يعارض فى هذا النوع من التدريب الجديد على المعـارك . بل هذا هو رأيهم : كلما زاد التدريب جفاء وشـدة ، زادت فرص النجـاة التى تتاح للجندى فى معركة القتال . بقـدر ما يشتد التدريب تزداد فرصة النجاة فى القتال الحقيقى .

تبنّانا قبل أن نتبنّاه

ملخص من " يورلايف "

طالما قرأنا فيما رواه الكتاب عن أبناء السبيل ، أن من صفاتهم المرح والجاذبية وحلو السجايا وسحر الطباع ، وأنهم إذا ما تحدثوا بدت فى حديثهم لثغة عذبة ، ونطقوا بأجمل الأقوال فى خير المناسبات . بيد أن الطفل « جونى » الذى تبنيناه لم يكن كذلك . فقد كان من أبناء الشوارع ، وكان فظاً فى القول والعمل ، حتى خفنا على أطفالنا الثلاثة من الاختلاط به .

وقد كان ، قبل مجيئه إلينا ، شريكا فى عصابة غلمان يكبرونه سناً . وذات يوم وضعت هذه العصابة فوق شريط السكة الحديدية أكواما من الأحجار سببت خروج قطار للبضاعة عن الخط . وقد أودع أفراد العصابة الكبار مدرسة إصلاحية ، أما « جونى » فقد حار ولاة الأمور فى أمره لصغر سنه ، إذ لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره ، وكانت أمه قد ماتت ، وكان أبوه معطلا عن العمل . وأخيراً رأينا أن نتطوع فنأخذه إلى شاطئ البحر لقضاء أسبوعين هناك ، إلى أن يجدوا له مكاناً ملائماً .

وصل « جونى » إلى المنزل فى المساء حاملا متاعه القليل فى حقيبة من الورق . ألقى ما يحمل ، ونظر إلى مائدة العشاء وصاح دهشاً : « ما هذا ! أتأكلون لحماً والأسبوع لم ينتصف بعد ؟ إذن أتأكلون اللحم مراراً ياقوم ؟ »

وسرعان ما قدمت له طبقاً مملوءاً باللحم والخضار ، فاغترف الطعام بيديه يلتهمه التهاماً بغير أن يكلف نفسه مؤونة البحث عن الشوكة والسكين .

ولكنه مع ذلك لم يستطع الاحتفاظ بما أكله إلا دقائق معدودات .

ولما أن طال إعياؤه استدعيت له الطبيب فقال : إنه كاد يموت من قلة الزاد ، ونصح بإعطائه ملعقة من الخبز المغموس فى اللبن الساخن مرة كل ساعة إلى أن يتمكن من الاحتفاظ بالطعام فى معدته . ثم أودعته الفراش ، وألبسته قميص ابنى البالغ من العمر ست سنوات ، فبدا على هيكله العظمى متهدلا فضفاضاً ، رغم أنه فى العاشرة من عمره ، وقد برزت ضلوعه كقفص الطائر ، وظهرت عظام الكتفين كأجنحة من الورق القوى التى يلهو بها الأطفال فى عيد الميلاد .

وبينما كنت أضع ملعقة من اللبن فى فمه الجائع فى الساعة الثانية صباحاً ، كنت أتساءل والحزن يملأ جوانحى : « ترى ما الذى ألجأنى إلى الوقوع فى هذه الورطة ؟ » . ولم يمض

وقت طويل حتى عادت إليه قواه فاستطاع أن يأكل ثلاث مرات فى اليوم ، ولـكنه ظل غريباً فى منظره ، وبات بياض بشرته كريهاً ، تبدو عليه صفرة الموت ، وكان فمه مترهلا تعافه العين ، وكان يتعمد الحول فى عينيه حتى يتجعد جبينه ، ويسعل سعالاً عميقاً كأنه كاب ينبح فى مقبرة، حتى خشينا إصابته بالدرن . وقد وجدالطبيب قناة الأذن مسدودة بالألياف، ولكنه وجدالصدر صحيحاً والعين سليمة ، ولم يكن الحول والسعال إلا نتيجة لحدة مزاجه .

وكان «جونى» يعلم أن المدة التى يمكثها معنا لن تتجاوز الأسبوعين . فلما أوشكت هذه المدة أن تنتهى ، عاوده التىء ، فأرقدته فى السرير وهو يستعطفنى بكل حماسة أن أبقيه معنا ، وتعهد بأن يقوم بكل ما نريده منه بعد ذلك .

فقلت له : «وكيف ذلك وأنت فى شجار دائم مع الأطفال ، تلجأ إلى الغش فى اللعب فيمنعونك عن الاشتراك معهم ، وتلجأ إلى الكذب فى القول ، فلا ندرى متى تصدق ؟ » فأجاب : « لن افعل شيئاً من هذا إذا بقيت هنا ، فأرجو ألا تبعدونى » .

فقلت : « ليكن ما تريد » . فهرول مسرعاً إلى زوجى ، ليحمل إليــه الخبر ، ولم أكن على يقين من أن زوجى سيرضى عن ذلك . ولـكنه بدأنى قائلا : « اسمع أننا رزقنا ولداً آخر » ، وقبل أن تقوى اعصابى فتمكننى من الجواب قال : « ألا يوجد لدينا غرفة فى أعلى المنزل ، فما بها ؟ » فقلت : « حقائب قديمة» . قال : « لا أظن أن هناك ما يمنع أن نضع مكانها ولداً » .

وبعـد بضـعة أيام جاءنى « جونى » يقول : أأستطيع الآن أن أناديك « أماه » كالآخرين ؟ وقبـل أن ينبلج صباح اليوم التالى كان صوته يرن فى صحن الدار وهو ينادى « أماه » . فقـال زوجى وهو بين اليقظة والنام : « ها هو ذا ، أجيبيه فإنه يخشى أن تكونى قد ذهبت هباءاً منثوراً خلال الليل »

فقلت: « أجل ، أتريد شيئاً ؟ » ولكنه لم يكن يريد إلا أن يقول : « يا أماه » فتعثر فى أقواله يبحث عن جواب ، ثم قال : « لقد لبست قميصى ياأماه » .

وقبل نهاية الصيف تغير جسم «جونى» حتى كأنه طفل آخر . فأخذ يتنفس من أنفه ويغلق فمه ، وأضاء جبينه ، وأصبح الناظر إليه يرى رأساً حسن التكوين، وعينين سوداوين مرحتين ، وشعراً كثيفاً حالك السواد .

ولـكن شخصيته كانت شديدة التعقد ، لا يسهل حلها . ولم يمض طويل وقت حتى تبينت النموذج الذى يتبعه فى كذبه . فقــد كان يكذب فى بادىء الأمر ليظفر

بالاستحسان ، ثم أخذ يكذب خشية العقاب كما يفعل سائر الأطفال الذين تساء معاملتهم . ثم تحول الكذب ابتغاء المباهاة والظهور والتفاخر أمام زملائه، فيسرد روايات خيالية تظهره بطلا مغواراً .

وحدث ذات يوم أننا اصطدنا سمكة فقلت للأطفال: « هذه السمكة إذا دغدغت انتفخت حتى تصبح ثلاثة أمثال حجمها ، وإذا نخست عادت صغيرة ، إلى حجمها الطبيعي» . وبعد هذا الحادث كان الأطفال يصيحون « السمكة ، السمكة » ، كلما أخذ « جونى » فى سرد حكاياته الخيالية . وكان هذا الدرس خيراً من عدة عظات تلقى عليه .

على أن البيانو كان له أكبر فضل فى إصلاحه، وكنا لا نعلم أن له مواهب موسيقية حتى عدنا من المصيف إلى بيتنا . فلم يكد نظره يقع على البيانو حتى صاح فرحاً وهو يشير إليه ، مستأذناً فى أن يلعب . وبينما كنا مشتغلين بفتح حقائب السفر كان «جونى» يتعثر فى عزف لحن النشيد المعروف بعنوان « أميركا بلادى » . فلما حان وقت العشاء أبى النهوض فوضعنا له الطعام بجانبه وقلت له : « كل متى تشاء » . وفى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين كان لا يزال جاداً فى توقيع المقطع الأول من اللحن ، فحملناه على الذهاب إلى الفراش ، ولكنه استيقظ مبكراً فى السادسة وجلس إلى البيانو يوقع عليه .

فقال زوجى وهو يرفع الغطاء إلى رأسه : « ها هو ذا ابنك موزار » . وفى الساعة الخامسة مساء صاح « جونى » : « ماما ، اسمعى . أستطيع أن أعزف اللحن الآن» . وفعلا عزفه ، وبكلتا يديه . فلم يسعنا بعد ذلك إلا أن نحضر له معلماً للموسيقى . وقد كان لشغفه ، الولد الوحيد فى المنزل الذى لابد من أن ننتهره قائلين : « كفى كفى» .

وقد كانت مقدرته الموسيقية سبباً فى وثوقه بذاته ، حتى كف عن التفاخر . ومتى توسم المرء فى نفسه القدرة على إحسان عمل ما ، اتصف بالتواضع ، وأقلع عن عادة المباهاة بذاته .

بيد أن هناك عقبة كأداء ، لم تستطع مواهبه الموسيقية التغلب عليها ، وهى الخوف. ولا يخفى أن تربية الشوارع لا تشمل الرياضة البدنية ، ولذلك شب « جونى » يخاف الألعاب . وقد زودناه بمضرب وقفاز وكرة للعبة الأمريكية المعروفة باسم « بيسبول » . ولكنه كان كلما أخذها إلى المدرسة عاد إلىّ والدموع تنهمر من عينيه ، لأن زملاءه كانوا لا يقبلونه شريكا لهم فى اللعب لخوفه من الكرة . وكنت أخرج وإياه لتدريبه، فأرمى الكرة نحوه فلا تكاد تبلغه حتى يرفع يديه

خوفاً ، ذلك بأنه تعود فى حياة الشوارع أن يرفع يديه دفاعاً كلما هم أحد بضربه . وأقبل زوجى على تدريبه بعد ظهر كل يوم باستعمال كرة لينـة ، فعوده رويداً رويداً التقاط الـكرة . وفى أحـد الأيام كانت ابنتنا جالسة على سطح الحظيرة ، فقذف والدها بالـكرة نحوها فالتقطتها وأعادتها إلى « جونى » فداخله السرور حين رأى فتاة صغيرة تلتقط الـكرة وتعيـدها على الفور ، فمد يده والتقطها فصاح زوجى : « أرأيت أنك تستطيع ؟ ... أحسنت ! » .

كذلك كان يخشى الظـلام ، ولذا كان يترك النور حتى الصباح موقـداً فى حجرته طول الليل ، ولـكنه نادانا يوما معلنا أنه قرر إطفاء المصباح لأنه لم يعد يخشى الظلام ، كما لم يعد يخاف الـكرة .

وأخيراً أصبح لاعبا فى فرقة الـكرة فى المدرسة الثانوية وعضواً فى الأوركسترا ، وفاز بجائزة المجانية أربع سنوات للدراسات العليا ، واشتغل فى أوقات فراغه بعدة مطاعم ومخازن تجارة ، ليستعين بما يربحه منها على الإنفاق على نفسه ، ثم أحرز شهادة طيار وأصبح عضواً فى فرقة الطيران البحرى . وقبل أن يقبل ضابطا فى الأسطول الأمريكى تطوع لى بقدر كبير من دمه على أثر عملية جراحية خطيرة ، وبعد أن نلت الشفاء صاح قائلا : « أرأيت يا أماه ! نحن أقارب ، إنه يجرى الآن فى عروقنا دم واحد » .

حكمة كنفوشيوس

قيل إن الحكيم الصينى كنفوشيوس كان سائراً ذات يوم فى نفر من تلاميذه عنـد سفح جبل تاى فشاهد عن بعد امرأة تنوح على قبر . فحث السير إليها ، وعندما أقبل عليها بعث بتلميذه « تزى لو » يسألها ما مصيبتها ، فدنا منها وقال : إنك تنوحين نواح من نكب مرة بعد أخرى .

فقالت : والصواب ما قلت . إن وحشاً افترس حمىّ هنا . ثم نزلت المصيبة نفسها بزوجى . وها هو ذا إبنى يسقى الردى من كأس واحدة .

فقال الحكيم : ولماذا لا تبرحين هذا المكان وتلجأين إلى آخر .

فقالت : لأنه لا توجد حكومة مستبدة هنا .

فقال الحكيم : تذكروا يا أبنائى هـذا واحفظوه — إن الحكومات المستبدة شر من الوحوش المفترسة .

[برتراند رسل فى كتاب «السلطان»]

جنكيزخان
فاتح العالم

ادوين مولر

« لو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيزخان ، لبقى لرجال الحرب كنز زاخر تستخرج منه أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها » .

هكذا قال الجنرال دوجلاس ماك آرثر . ويقول ماك آرثر إن الجندى لا يستطيع أن يحذق الجندية بالتمرين وحده . ومهما تتغير أسلحة القتال فلا بد للجندى من الرجوع إلى الماضى ليحذق المبادئ الحربية الأساسية التى لاتتغير . ولن يجدها ممثلة خيراً من تمثلها فى سيرة إمبراطور المغول لسبعمائة سنة مضت.

فقدأنشأ جنكيزخان بفتوحه إمبراطورية شاسعة لم ير التاريخ مثلها ، إذ كانت تمتد من المحيط الهادى إلى أواسط أوربا وتشتمل على معظم العالم المعروف يومئذ ، وعلى أكثر من نصف سكانه . وكانت عاصمة قبيلته مدينة فى أواسط بلاد المغول تسمى « قرة قوروم » فغدت عاصمة العالم الشرقى .

إن نابليون انتهى أمره بالهزيمة . وأما جنكيزخان فلم ينهزم فى موقعة حاسمة ما ، بل مات شيخاً وهو فى أوج انتصاراته ، وإمبراطوريته لا تزال تمتد وتتسع . وكان قيصر والإسكندر مدينين بكثير مما أحرزاه لأسلافهما ، فالرومان أتقنوا فن تنظيم الكتائب المعروفة «باللجيون» . والمقدونيون ابتدعوا كتائب « الفالنك » ، وأما إمبراطور المغول فهو الذى أنشأ بنفسه جيشه وأداته الحربية .

كانت جيوش أعدائه فى أغلب الحروب أكثر عدداً من جيشه . والمرجح أنه لم يقذف فى ميدان معركة ما بأكثر من مائتى ألف مقاتل ، ومع ذلك استطاع بهذه القوة الصغيرة أن يسحق إمبراطوريات فيها من الرجال ملايين كثيرة . ولعله كان أوفر قادة الجيوش نجاحاً فى التاريخ كله . ولفظ جنكيزخان يعنى « أقوى الحاكمين » ، وهو الذى اختار هذا الاسم لنفسه . أما اسمه

الحقيقى ، الذى كان يعرف به فى صباه فهو « تيموجن » .

ولما كان تيموجن فى الثالثة عشرة من عمـره مات أبوه مسموماً بيـد أعدائه ، ولـكن الفتى كان قد بلغ مبلغ الرجال قوة وجسما ، فهو يمتطى صهوات الجيـاد طول النهار، ويجيد رماية السهام من قوس شديدة. وكان قوىّ النفس ، فعقد عزمه على أن يخلف والده زعيما لرجال القبـائل الرحل الأشداء التى كانت تضرب فى نجود آسـيا الجافية لتنتزع منها رزقاً يسيراً . إلا أن تلك القبائل أبت زعامته . وحاول شيوخ القبائل أن يتخلصوا من منافسهم الفتى ، فصـاروا يطاردونه فى برارى آسيا كما يطارد الوحش، إلى أن ظفروا به ، فوضعوا فى عنقه نيراً ثقيلا من خشب وقيـدوا فيه رسغيه . وفى ذات عشية غافل حارسه فضربه بالنير وأوقعه على الأرض وفر هارباً من جوف المخيم والناس نيام . ولما شـعر الفرسان بفراره أخـذوا يطاردونه ، ولـكنه اختبأ فى جدول ماء إلى أن توارى مطاردوه عن العيان ، بعد أن فتشوا الضفتين ، فخرج من الجدول وسار حتى قابل صياداً فأقنعه بأن يحل وثاقه .

إن تاريخ تلك السنوات الأولى سجل حافل بحوادث نجاته العجيبة من المطاردة والخيـانة . على أن تيموجن ظل يكافح فى سبيل الوصول إلى غايته وهى زعامة القبائل . وقد رماه أحد أعدائه مرة بسهم فجرحه فى عنقه جرحاً بليغاً طرحه عاجزاً على الأرض المتجمدة قريباً من معسكر أعدائه . فامتص أحد رفقائه الدم والقذى من الجرح ، ثم خلع رداءه ودثره به ، وزحف إلى معسكر الأعـداء فى طلب قليل من اللبن ، ثم نقله إلى حيث يكون بمأمن من الأعـداء . وبمرور الزمن بدأ يجتمع حول تيموجن نفر من الأنصار ممن كانوا يلتفون حول أبيه .

وقبل أن يبلغ العشرين من عمره أصبح زعيم قبيلته ، فمضى يحوك الدسائس ويحارب لـكى يضم القبائل الأخرى إلى قبيلته . ولم يرض بمنزلة دون منزلة الزعيم ، وإذا حاول أحـد أن يقاسمه السلطان قتله . وكان له ابن عم يسمى « جاموكا » ، كان فى أيام بؤسه يقاسمه شظف العيش ، وكانا ينامان تحت غطاء واحد ، وكثيراً ما كانا يخرجان إلى الحقول ليصطادا الفئران ويقتاتا بها يوم لا يجدان غـيرها شيئاً يأكلانه . ولم يقنع جاموكا بأن يكون تابعاً لابن عمه ، فوقعت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على جاموكا فوقف أسيراً بين يدى ابن عمه ، فما كان من تيموجن إلا أن أمر به أن يخنق ، غير محتفل .

وكان طغرل صديقاً لأبيه ، وكثيراً

ما أعان تيموجن فى أوقات محنته . فلما أبى الزعيم الشيخ أن يخضع للفتى، أمر تيموجن بقتله . ومع ذلك فقد كان يسرف فى بذل العطايا للقواد الذين يدخلون فى طاعته .

ومرت السنوات ، واتخذ تيموجن مقر قيادته فى « قره قوروم » (ومعناها مدينة الرمل الأسود) ، وهى مجموعة خيام على طريق القوافل التى تسير شرقاً وغرباً . ولم يكن تيموجن يتعرض لتلك القوافل بسوء لأنه كان ينوى أن يستغلها فى تحقيق أغراضه فيما بعد .

كان شديد البأس مفتول العضل ، يلبس جلود الغنم ، ثقيل المشية ككل من ينشأ على صهوات الجياد . وكان وجهه غليظ الجلد كثير التجاعيد يكسوه طلاء من الشحم لاتقاء البرد القارس والريح اللاذعة . والأشبه به أنه لم يكن يستحم إلا من سنة إلى سنة . أما عيناه فكانتا متباعدتين، قد استقرتا تحت جبهة مائلة ، تحيط بهما هالتان حمراوان من لفح الرمال السافية ، تتوهجان بلهيب القسوة الوحشية . وكان قليل الكلام فإذا تكلم فبعد أناة وروية .

وما كاد يبلغ « تيموجن » الخمسين حتى كان قد وحد جميع قبائل آسيا الوسطى وجعل منها قوة واحدة ، وكان هو قائدها الأوحد . وذاع صيته فى جميع السهول المترامية التى يعيش فيها قومه . ومع ذلك ، فلو أن سهماً من سهام أعدائه وجد — يومئذ — فى درعه ثغرة ينفذ منها إلى مقتل ، لكان بعيداً أن يسمع التاريخ ذكره . ذلك لأن الأعمال العظيمة التى خلدت ذكره احتشدت فى السنوات الست عشرة الأخيرة من حياته ، إذ كان قد أعدّ أداة حربية ليفتح بها العالم .

كانت مملكة الصين فى شرق بلاده ، وفيها أقدم حضارات العالم . وكانت يومئذ تنقسم إلى إمبراطوريتين ، إحداها إمبراطورية « كين » ، والأخرى إمبراطورية « صنج » . وفى غرب بلاده كانت دول الإسلام التى نمت واتسعت بعد الفتوحات الإسلامية . وفى الغرب الأقصى بلاد الروس، ثم مجموعة دويلات ، ثم أواسط أوربا ، وهى خليط من دول صغيرة وكبيرة .

فبدأ جنكيزخان بالهجوم على الصين ، فاخترق السور العظيم ، وقذف بكتائبه على البلاد الواسعة فى « كين » أو الإمبراطورية الشمالية . فاستولى على « ين كنج » عاصمة الإمبراطورية ، وفر الإمبراطور ، فقد كانت هزيمة « كاملة » .

وبعد ثلاث سنوات سار جنكيزخان غرباً . ولم تكد تمضى شهور قلائل حتى كانت جنود المغول فى سمرقند تنهب عاصمتها

الجميـلة ، أما سلطان سمرقند فكان يفر يومئذ بحياته .

وفى السنوات التى تلت هذا ، اندفعت جيـوش جنكيزخان منحدرة إلى سهول الهنـد ، واكتسحت الشرق الأوسـط ، واخترقت روسـيا إلى وسط أوربا . كانوا منتصرين أبداً وفى كل مكان . فلماذا ؟

كان لجنكيزخان عزيمة لا تقهر ، ونشاط طاغ فى جسمه وعقله ، وكان ملء نفسه قسوة . ولكن عظمته ترجع إلى شىء أقوى من ذلك كله . وقد درس أعـداؤه تفاصيل نظامه الحربى وخططه العسكرية ، وهذه الدراسة تكشف سره .

كان جنكيزخان يثق بقـدرته وقوته فيجرؤ على إهمال جميع التقاليد العسكرية وينفذ إلى صميم كل مشكلة فيعالجها علاجاً جديداً كل الجدة . وكان قادراً على أن يستعرض جميع الخطط والأساليب والأسلحة المعروفة ، ثم يدمجها معاً ويفرغها بعناية عظيمة فى قالب جديد يحقق أغراضه .

وهو أول من عبأ شعباً كاملا لغرض واحـد هو الحرب . أى إن هـذا الرجل الذى عاش منذ سبعمائة سنة وضع للحرب صـورة يزعمون أنها حديثة وهى صـورة « الحرب الشاملة » .

كان الجواد المغولى والفارس المغولى هما أروع عناصر جيشه . فالجواد لا يكل أبداً ويستطيع أن يواصل السير إذا ما سقى الماء مرة فى كل ثلاثة أيام ، ويستطيع أن يجد لنفسه طعاماً حيث كان، فقد يحفر بظلفه



فى الثلج والجمد باحثاً عن بقايا عشب جاف . أما الفارس فلا يعجزه أن يظل على صهوة جواده ليلة ونهارها ولا أن ينام على الثلج ، وهو يطيق أن يقضى الأيام بطعام قليل أو بغير طعام . وهو محارب بفطرته ، فقد نشئ فى المعارك والملاحم ، وعلم الرماية من يوم تعلم أن يتكلم .

ومما يدل على عبقرية جنكيزخان فى العناية بتفاصيل التنظيم الحربى ، اهتمامه الدقيق بتسليح هذا الجندى . كانت درع المغولى من جلد مقسى مطلىّ ، ولكل رجل قوسان ، إحداهما للرمى وهو على جواده ، والأخرى لإحكام الرماية إذ يكون مترجلا . ومعه ثلاثة أنواع من السهام — للأهداف القريبة والمتوسطة والبعيدة . فأما الأولى فكانت ذات أطراف فولاذية تخترق الدروع . ويحمل كل جندى الجراية الضرورية من اللبن الخاثر المجفف ، ويكفى لغذائه نصف رطل طول يوم القتال . ولا تخلو جعبته من احتياطى من أوتار القسىّ ، ومعها إبرة وشمع لإصلاحها . ويضع سلاحه فى جعبة من الجلد يمكن نفخها ليستعين بها على اجتياز الأنهار .

وكان الجيش يتألف من فصائل قوام كل منها عشرة أو مائة أو ألف أو عشرة آلاف من الجنود . وفيه — فضلا عن المقاتلة — فصائل إضافية من مهندسين وإخصائيين فى فن قذف المجانق ، واستعمال معدات الحصار . كما كانت له أيضاً فرقة خاصة بتموين الجيش وأخرى للعناية بكل ما يحتاج إليه الفرسان وحفظة للذخيرة . وكانت الأمة كلها تعمل خلف الجيش ، لتوفر له ما يحتاج إليه من طعام وكساء ومعدات . ولا تزال تقتر على نفسها لتموينه .

أما أساليب القتال التى ابتدعها جنكيزخان فكانت معجزة من معجزات الإتقان المكتسب بالتدريب الدقيق المحكم . وكانت المقاتلة خمسة صفوف وبين كل كتيبتين فراغ واسع . ففى الطليعة كانت جنود الهجوم ، وهى مدرعة أحسن تدريع تحمل السيوف والحراب والصوالج . وفى مؤخرة الصفوف الفرسان الرماة .

وكان هؤلاء يندفعون بجيادهم من خلال الفراغ الذى بين كتائب الهجوم ، فيشرعون فى رماية العدو ، والخيل تعدو بهم بأقصى سرعة . فمتى دنوا منه ترجلوا وأخذوا القسىّ الأخرى فيمطرونه وابلا من السهام الثقيلة .

وأساس هذا الهجوم هو الشدة والتركيز فى الرماية إلى حد لم يكن قد عرف إلى ذلك العهد .

فإذا اختلت صفوف العدو ، أجهزت عليه كتائب الهجوم وأتمت هزيمته . لقد

كان تعاون الأسلحة المختلفة يجرى فى يسر وإحكام . ولم تكن الأوامر تعطى بأصوات عالية بل ترسل بالتلويح برايات بيض وسود.

فالفضل فى انتصار المغول يرجع إلى تفوقهم فى الأسلحة ، وإلى سرعة إطباقهم على العدو بها ، ثم إلى سرعة الرماية وإحكامها . لذلك اندحرت أمامهم جيوش الصين وصناديد الإسلام المتقحمون ، وفرسان المسيحية وأبطالها ، ولم يستطيعوا الثبات أمام وابل نبالهم . وكثيراً ما كان الذعر يدب فى صفوف الأعداء قبل أن تشرع كتائب الهجوم فى الانقضاض عليهم .

ومع أن جيوش جنكيزخان كانت أقل عدداً من جيوش أعدائه ، إلا أنه كان يحشد أكثر ما يتيسر له من الجنود ، ولكن فى الموقف الحاسم من المعركة . وكان يعرف كيف يفرق قوات أعدائه ، وكيف يحشد قواته . وكان واسع الحيلة كثير الخدع يتوقع العدو أن يراه فى جهة ، فإذا به يفجؤه من جهة أخرى . وكان يحرز النصر فى المعركة بالالتفاف حول جناحى العدو، ويتجنب الهجوم المواجه وما يكون فيه من خسارة كبيرة .

كانت أعماله الحربية قائمة على السرعة وعلى قدرته فى السبق ، فكانت جحافله السريعة تخترق جيوش العدو فتمزق أوصالهم تمزيقاً منظما محكما ثم تبيدهم . وكان جنكيزخان يجاوز الحصون المنيعة ويتركها تسقط فيما بعد .

ولم يكن يرتجل الخطط الحربية بل كان يضعها غير مهمل شيئاً من تفاصيلها ، قبل أن يعرف العدو أن حرباً ستقع . وكان يستطيع أن يوجه إلى بلد ما ثلاثة جيوش أو أربعة تفصل بينها المسافات الشاسعة ، وقد تكون بينها طرق اتصال قليلة ، وقد لا تكون . ومع ذلك كانت تلك الجيوش تعمل طبقاً لخطط تنسق ما بينها وتزحف حتى تتلاقى عند هدف متفق عليه .

وقد ربح جنكيزخان فى بعض حروبه نصف المعركة بالدعاية ، قبل أن يلقى بالجيش فيها . ولم يكن فى قادة الجيوش من فاق هذا المغولى الأمى فى اتخاذ الكلام أداة حرب . وكانت قوافل التجارة هى « طابوره الخامس » . فكان يتخذ من رجالها عمالا لنشر الدعوة فى البلاد التى ينوى غزوها . ومتى استقر رأيه على غزوها درس جغرافيتها وأحوال شعبها وسياستها، واتصل بالطوائف المتمردة فيها ، وألقى بذور العداوة بينها .

ونقل إليه جواسيسه فى بعض بلاد الإسلام أن والدة السلطان تغار من ابنها ومما كان يتمتع به من حول وطول . فبعث إليها بكتاب يوهم ظاهره أنه ردّ على كتاب منها إليه ؛ وأنه يشكر لها المعونة التى عرضتها

عليـه . وحرص على أن يقع الرسول أسيراً في يد السلطان . فلمـا زحف جنكيزخان على هذه السلطنة بعد ذلك ، وجد البلاد على شفا حرب أهلية .

وكان لهـــذا القائد أنصـار خونة (كويزلنج) فى أقطار كثيرة . وكان يرشو من لا أمانة له من رجال السياسة . فقد علم أعوانه مرة أن وزير الحربـ [illegible] ـية الصيـ بدّد أموالا كثيرة ، فلما أذيع الخبر فى جميع أنحاء الصين أحدث أزمة سياسية خطيرة ، وإذا المغول يزحفون للهجوم .

وكثيراً ما توسل هـذا القائد بضروب الدعوة لإلقاء الرعب فى القلوب . وجرى على تذكير كل قوم يريد غزوهم بالويلات التى حلت بكل من حدثتـه نفسه بمقـاومة « الخان العظيم » . فكان ينذر كل شعب : الخضوع أو الإبادة ! فإذا أخضع أعـداءه زحف عليهم وأبادهم على كل حال .

وحذق جنكيزخان بث الدعوة فى داخل مملكته لتعزيز عزيمة شعبه . وبلغ من إطرائه الجندية أن صار الشعب كله يرى العمل من أجل الجيش أمراً طبيعياً . وكان يلقى فى نفوس قومه أن الجنس المغولى هو وحـده أسمى أجناس البشر . وهى نظرية لا تقوم لها قائمة ، لأن أجناس البشر فى ذلك الزمن ــ كما هى الآن ــ خليط من سلالات مختلفة .

أما الإرهاب فكان خطة محكمة ينفذها بغير رحمة وبغير مبالاة . فإذا قاومته مدينةما حرقها وقتـل الرجال والنساء والأطفال . فإذا غادرها جيشه ترك نفراً من رجاله مختبئين فى بعض الأنقـاض ومعهم بضعـة اسرى . وبعد قليل يؤمر الأسرى بالخروج من مكمنهم لينادوا فى المدينة بأن المغول قد انصرفوا عنهـا . فإذا ما خرج من بقى من الأهالى من مخابئهم ، أخذهم المغول فقتلوهم أيضـاً وقطعوا رؤوسهم ليسـتوثقوا من موتهـم . وقد ذبح فى إحـــدى المدن ٥٠٠ر٠٠٠ نفس . ولا يعلم أحد كم أهلك جنكيز خان من ملايين الناس .

تلك كانت الأداة الحربية التى فتح بهـا جنكيزخان العالم . وقد مات سنة ١٢٢٧ فى أثناء حملة حربية وكان فى السادسة والستين من عمره وهو فى أوج قوته .

وظلت هـذه الأداة الحربية تعمل بعد وفاته ، وأصبح خلفاؤه أسياد آسيا كلها ، وتوغـلوا فى أوروبا فدوخوا البولونيين والهنغاريين والألمان ، ولم يستطع أحد أن يقف أمامهم . وظلت السيادة لقوة المغول قائمة إلى عهد حفيده كوبلاى خان ، ثم أخذ نجمها يأفل فى عهد الذين جاءوا من بعده . وقد عاد المغول ــ اليوم ــ جماعة من قبائل البـدو الضعيفة ، ودرست عاصمتهم

«قرة قوروم» ، وانهالت عليها رمال صحراء جوبى ، وكاد اسمها ينسى .
أما اسم جنكيزخان فلن ينساه رجال الحرب . ولذلك نصح الجنرال ماك آرثر بأن تدرس سيرته درساً دقيقاً للالمام بآرائه فى « ضرورات الحرب التى لا تتغير » . وإذا جردنا تلك النظريات من المجازر الفظيعة ، ومن القسوة الوحشية ، بدت لنا حقائق فن الحرب الجوهرية التى لا تتغير : « وهى التى لابد من مراعاتها إذا أريد إنشاء جيوش قوية كالجيش الذى أنشأه ذلك المغولى منذ سبعمائة سنة » .

سمك يصيد بقذف الماء

إن فى بعض بلدان الشرق الأقصى سمكا عجيباً يحسن الرماية،فيعرف بالسمك الرامى . وهو يصيد الحشرات التى يأكلها بقذف قطيرات من الماء عليها . ففى سقف حلقه قناة عميقة ، تصبح ،إذا ما أطبق اللسان عليها ، بمنزلة أنبوب . ومن هذا الأنبوب تطلق السمكة قطيرات الماء فى تيار مستمر . وبصر السمكة حاد فتستطيع أن تتبين الحشرة على نبات قائم على ضفة الجدول فتقذفها وهى تجيد الرماية ، فتكفى قطرة أو قطرتان من الماء لإسقاط الحشرة .

حيلة حربية من إملاء الطبيعة

إن الطبيعـة جهزت بعض السحالى بأسلوب من أغرب الأساليب وأعجبها للدفاع عن النفس . فحين يهـدد الخطر سحلية ما ، تحرك السحلية بعض عضلات وعصائب خاصة ، فتجرى عملية بتر عجيبة بغير إراقة دم ما . ذلك بأن تحريك هذه العضلات والعصائب ، يفصل ذيل السحلية عن بقية جسمها ، ويبقى الذيل متلوياً متحركا على الأرض ساعة تقريباً ، فيسترعى بحركته ولونه الزاهى نظر متعقب السحلية ، وتنجو هى من الخطر ، وبعد قليل ينمو لها ذيل جديد .

[فرانك ر. لاين : مشهد الطبيعة]

فلاحون تحت الأرض

روبال ديكسون

مؤلف كتاب « شخصية الحشرات »

زراع ورعاة ومهندسون — النمل — وفى مدنه المزدحمة اخصائيون يقابلون فى اختصاصهم الممرضات « والحوانيتية »

كل شيء كان يجرى فى سكون وهدوء فى تلك المدينــة برغم ما احتوته من بضعة ملايين من السكان . حتى إذا أعلن هزيم الرعد اقتراب العاصفة ، ظهر بغتة ، ومن حيث لا يدرى الناظر ، ألوف من رعاة البقر ، واقتحموا طريقهم بين الشجر ، حيث كانت ترتع آمنــة قطعان من المواشى قد فقدت أبصــارها . وخف كل راع إلى بقرة فاحتملها على ظهره ، وأسرع بها إلى حظائر تحت الأرض . وكانت حظائر مريحة حتى فى أشــد العواصف . وقبل أن تنزل من المطر قطرة واحدة ، كان سكان هذه المدينة قد اختفوا جميعاً فى بطن الأرض .

ولا أحسبك تصدق كلمة واحدة مما أقول ! ولـكن هو الحق ، فأنا إنما أتحدث عن مدينة للنمل . وأنا عالم بالتاريخ الطبيعى طوفت فى الأرض عشرين عاماً ، وقعت فيها على هذا النمل مراراً ، وراقبته وهو يرعى أبقاره . وما هذه الأبقار إلا خنافس صغيرة رباها النمــل فى جوف الأرض زماناً طويلا ففقدت فى الظلام أبصارها .

ولا يدرى أحــد فى أى العصور بدأ قبيل النمل هــذه الصناعة ، صناعة الرعاة ، ولا متى أخــذ فى تسخير هــذه الأبقار . ولـكن الذى نعرفه أننا ، معشر بنى الإنسان أنسنا لمتعتنا نحــواً من عشرين حيواناً وحشياً ، ثم سخرناها فى منافعنا ، بينا أنس قبيل النمل مئــات الأجناس من حيوانات أدنى منه جنساً .

إن بق النبات خشرة من الحشرات التى يعسر استئصالها ، ولهذا أسباب ، منها أن أجناساً كثيرة من النمل ترعى تلك الحشرات . ففى

الربيع الباكر يرسل النمـــل الرسـل لتجمع له بيض هـذا البق ، فإذا جاءوا به وضـعوه من مستعمرتهم حيث يضعون بيضهم ، ثم هم يولون هذا من العناية مايولون ذلك . فإذا فقس البيض فخرج صغاره ، أطعموها وأكرموها . وبعـد قليل من الزمن يأخذ البق يدر سائلا حلواً كالعسل ، وعنـدئذ يقوم على حلب عسـله فى كل مستعمرة أفراد من النمل يختصون بذلك . وهم يحلبون هذه الأبقار ، أو أشباه الأبقار ، بمسها بقرونهم . والبقرة الحلوب منها تنتج مقـداراً من العسل قد يبلغ ٤٨ قطرة فى فى أربع وعشرين ساعة. فإذا نحن قارنا بين ما تنتج بقرة البق هذه وبين ما تنتج أبقار المزارع ، حجما بحجم ، إذن لتصاغر محصول أكثر أبقار الحقول إنتاجاً إلى جانب ما تنتجه هذه . وبقر البق يخرج فيطلب طعامه مما يأكل من النبات ، فإذا أنت زرعت طماطم ، ثم وجـدت شجيراته بعد ذلك تذبل وتمـوت ، فافحص النبـات فلعلك واجد فيه بقاً يرعاه كما ترعى الأبقار الحشائش طلباً للبن ، ولعلك واجـد هذا البق قد جاءه من بيوت للنمل قريبة .

ولا يعنى النمل بتربية المواشى وحدها ، بل هو يعنى كذلك بالزرع وفلاحة الأرض ففى الربيع الباكر ، فى سنة من السنوات كنت أخبط فى الغابات ، فوقعت على قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف برى ، وكانت مساحة القطعة خمس أقدام طولا فى ثلاث عرضاً ، وكان طول الأرز بوصتين أو ثلاثاً . وتراءى لى من كل مظاهر هـذه الأرض أن أحداً لا بد يعنى بهـا . فالطينة حول الجـذور كانت مشققة والأعشاب الغريبة الضـارة كانت مسـتأصلة .

وأغرب من هذا أنه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز واحد فهذا الأرز لم يكن من تلقاء نفسه ، وإنما زرعه زارع .

ولاحظت أن طوائف النمل تأتى إلى هذا الأرز المزروع وتذهب عنه ، فانبطحت على الأرض أرقب ماذا يصنعون . ولم ألبث أن عرفت أن هـذا النمل هو هو القائم بزراعة الأرز فى تلك البقعة من الأرض ، وأنه جعل من زراعتها شغله الشاغل . فبعضه كان يقوم بشق الأرض ، فكان يحرثها كأحسن ما يقضى به علم الزراعة ، وبعضه كان يزيل ما ضر من الأعشاب .

* * * * * * * * * * * * * * *

رويال ديكسون كاتب اشتهر بدراسة أحوال الحيـوان وبخاصة الحشرات وله مؤلف مشهور عنوانه « شخصية الحشرات » .

فإذا ظهر عود من عشب غريب ، قام إليه خلان منهم ، فقضماه عند أصله ، ثم حملاه بعيداً عن المزرعة . وأقام النمل على هذه المزرعة خفراء يحمونه من الدود القارض ، ومما قد يعبث بها من سائر الحشرات .

وقضيت الصيف أزور مزرعة النمل هذه . فني أواخر أغسطس كانت أعواد الأرز بلغت من الطول ٢٤ بوصة . وكان حب الأرز قد استوى ، فبدأ موسم الحصاد فكنت أرى صفاً من شغالة النمل لا ينقطع يتجه إلى العيدان ، فيتسلقها إلى حب الأرز فتنتزع كل شغالة من النمل حبة ، وتنزل بها سريعة إلى الأرض ، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض . وأردت أن أميز النمل بعضه من بعض ، فدهنته بالألوان ، ثم تتبعته ، فعرفت أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز . ونظرت فإذا بأحد الأركان فريق شغل رأسه ليوفر أرجله ، فهذا الفريق ، كانت طائفة منه تتسلق الأعواد ، فتلتقط الحب ، ثم ترمى به ، بينما طائفة أخرى كانت تتلقاه على الأرض فترفعه وتذهب به إلى المخازن .

وفرغ الحصاد ، فتلاه مطر دام أياماً . فلما أقلع المطر ، أسرعت إلى زراع النمل لأتعرف أحوالهم ، فوجدت مداخل بيوتهم وهى تحت الأرض ، مزدحمة بالعمال والأعمال ووجدت النملة منهم تخرج من بيتها تحمل حبة الأرز ، فتذهب بها فى العراء إلى جانب مائل من الأرض تضرب فيه الشمس ، فتضع عليه حبتها . وذلك أن المطر نفذ إلى مخازن الأرز ببيوت النمل ، فأخرجه إلى الشمس ليجففه . فلما ولىّ الظهر وجف الأرز ، عاد به إلى مخازنه تحت الأرض .

ويكثر هـذا النوع الزارع من النمل فى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة . ولعل أقرب منافس له فى الذكاء هو نمل البرازيل « ذو المظلة » ، فإنه يزرع طعامه فى أحوال مصطنعة فى قيعان بيوت له تحت الأرض . ولكم رقدت على الأرض أرقب هذا النمل يسير صفوفاً ، ومن فوق رءوسه قطع من ورق الشجر يحملها كأنما يتقى بها حرارة الشمس ، وهى شـديدة حارة . وليست قطع الورق هـذه بالمظلات ، ولا النمل يتقى بها حرارة الشمس . فإنك لو أتيت بفأس وكشفت به بيوت هـذا النمل من الأرض ، لوجدت شغالته فى تلك القيعان يقمن على هذا الورق من الشجر ، فيقطعنه شرائط ، ثم ينظفن هذه الشرائط بألسنتهن ثم يتركنها حتى تختمر وتتعفن . فإذا تم اختمارها وتعفنها صارت أرضاً صالحة طيبة يزرع النمل فيها لطعامه « عش الغراب » .

فإذا هو زرعه فنمت أعواده ، جاءها النمل وهى غضة طرية فتضمها عند ارتفاع معلوم وعندئذ يعود « عش الغراب » إلى النمو من جديد ، كما يفعل الأسبرجس (الهليون) .

ومع هذا النشاط الزراعى ، يعيش هذا النمل عيشة مدنية فى بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات ، إذا رأيتها وجدتها كومات من التراب ، بعضها تحت الأرض وبعضها يعلوها ، وإذا أنت نسبت أحجام هذه البيوت إلى أحجام سكانها ، لوجدتها بيوتاً واسعة عظيمة البناء واسعة الأرجاء ، يتصاغر إلى جانبها أكبر عمائرنا فى أكبر عواصمنا . ولقد رأيت مدينة من مدائن النمــل بجبال بنسلفانيا ، احتوت من هــذه البيوت على نحو من ٢٠٠٠ بيت ، أقيمت على مساحة من الأرض تبلغ ٣٠ فداناً ، يسكنها من ١٢ إلى ١٤ مليون مخلوق .

وتجد فى هــذه المدن الخدم والعبيد حاضرين ، وتجد الممرضات حاضرات قائمات بواجباتهن فى الليل والنهار ، وتجد فيها من يرفع جثث من يموت من الأحياء .

والنمل يعنى بصحة أطفاله أشد عناية ، وله حواضن خاصة كل واجبها رعاية هــذه الأطفال . ومن واجبات الحاضنة أن تفكك قرون الصغار وأرجلها عنــدما يئين أوان ذلك ، ويوزع الصغار على حجرات شتى ، فكل سن وكل درجة للنشوء لها حجرة خاصة ، فكأنما هم فى مدرسة من مدارســنا توزع تلاميــذها على فصولها بحسب أعمــارهم وكفاياتهم . وبهذه الحجرات تغسل الصغار وتطعم فى أوقات معلومة . فإذا شب الطفل واســتطاع المشى ، جاءت حاضنته تخرج به للرياضة ، فترى المئات من هذه الأطفال فى صحبة حواضنها تقودها فى رفق فى حارات هــذه المدينة ، مدينة النمل ، رائحة غادية . فإذا غزا الغزاة المدينة ، حملت هذه الحواضن أطفالها فى لمح البصر ، واختفت بهــا إلى حيث الأمن والسلام .

وللنمل ذكاء خارق وأبرع مظهر رأيته لهــــذا الذكاء كان عنــد باب كوخ فى كولورادو . فعلى أرض هــذا الكوخ ، وهى من خشب ، جاءت نملة تسعى ، وكانت هناك فرجة بين لوحين من خشب الأرض ، فأخذت النملة تأتى إلى حافة هــذه الفرجة وتنظر فيها فهولها عمقهــا ، كأنما تنظر فى هوة . وأخــيراً ذهبت من حيث أتت . ولــكن ما أسرع ما عادت تحمل إبرة من إبر الصنوبر أطول من جسمها عشر مرات فوضعت هــذه الإبرة عند حافة الهــوة ، وأخذت تدفع بها حتى استقر طرفها الآخر على حرف الهوة الآخر . وعندئذ مشت على هذا الجسر عابرة ، وهى فرحة بالنصر مسرورة .

المراعى الخضر حيث تريد

ستانلى هاى

ملخصة من صحيفة « بلطيمورصن الأحدية »



كان أبوه وأمه من العبيد السود ، ومع هـذا سماه الناس أول كيميائى ، وأكبر كيميائى ، عرف كيف ينتفع من خامات الأرض فى الصناعة ، لا سيما ما تنبت الأرض من زروع .

وقد نشأت صناعات عديدة ، تقوّم الواحدة منها بالملايين من الدولارات ، وكلها أو بعضها يرجع الفضل فيـه إلى مكتشفاته . ومن أكبرها صناعة الفول السودانى وفروعها ، وهى تدر فى العام مائتى مليون من الدولارات . وافتن فى محاصيل الأرض، فأكسب افتنانه الفلاحين فى جنوب الولايات المتحـدة الملايين من الدولارات تدخل جيوبهم كل سنة .

وجاءه التشريف يطلبه من كل وجه . فقد دعاه توماس إديسون لينضم إلى رجال مصانعـــه بأجر قدره ٥٠٫٠٠٠ ريال فى السنة . وخصص له هنرى فورد معملا ليقوم فيه بما تتطلبه الحرب من الأبحاث فى الأغذية .

ومنحته مجـــلة « الفلاح الراقى » الزراعية جائزتها السنوية « لخدماته الرائعة للزراعة فى الجنوب » . أما مدالية ثيودور روزفلت ، لسنة ١٩٣٩ ، فقد جاءته تسعى ، « لأنه حرر الرجال البيض كما حرر السود » .

قالت النيويورك تيمس : « أى رجل غـيره صنع للزراعة فى الجنوب ما صنع صاحبنا ؟ »

« جورج واشنطن كارڤر » ، هذا هو الرجل الذى تريد الدنيا أن تظفر به ، فتجده لا يزال قائماً فى صومعته العلمية ، حيث قضى فى العمل ٤٦ سنة ، فى مقاطعة ماكون بولاية ألاباما ، وفى رحبات ذلك المعهـد الكبير المشهور ، معهد السود ، معهد تسكيجى . وفلسفته الخاصة هى التى تحبسه عن مغادرة هذه الأرض، فهو يعتقد أنه لا أرض أخصب من المراعى الخضر فى الأرض التى أنت فيها .

ودفعه تفكيره العلمي إلى أن يحوّل عقيدته إلى قاعدة ، وهي : « إبدأ حيث أنت ، وبما تملك أنت ، واجعل منه شيئاً تنتفع به ، ثم لا تقنع أبداً » . ومع أنه الآن قد قارب الثمانين ، فهو لا يزال يطبق تلك القاعدة .

زرته حديثاً فطاف بي بمتحفه المعروف باسمه في بلدة تسكيجي ، وقد بناه بما اقتصده من المال ، ليجمع فيه ما أفاد من تجاربه وكشوفه التي كشفها فيما حوله من مناطق . وهو لا يزال يلبس قبعته المعهودة البالية ، وسترته الرمادية الجرباء . وقد ضعف صوته وتقوست كتفاه ، ولكني لم أجد أثراً للوهن في عقله أو روحه .

ومررنا بحقل صغير وراء المتحف ، فأشار لي فيه إلى نحو خمسين لوحاً من خشب الصنوبر قد عرّضت جميعاً للشمس بعد أن دهنت بدهانات مختلفة ، من زاهية زرق ، ومن صفر وحمر وخضر .

قال لي : إن الزارعين بأرضنا هذه لا يدهنون بيوتهم ، وليس هذا عن كسل أو قلة احتفال ، بل لأن المال يعوزهم . وهذه الدهانات التي تراها معرضة للشمس والجو لا تكلف إلا أقل من القليل . وألوانها من طفل نجده في أرضنا هنا . أما زيتها فمن فضلات زيت السيارات .

فهذه الدهانات ، التي صنعها وجربها الدكتور كارڤر في تسكيجي ، تستخدمها السلطات الآن بوادي تنيسي في تجميل البيوت القروية القائمة في ١٤ محلة .

كان وما فتئ الدكتور كارڤر أكبر داعية إلى استغلال أرض الجنوب البائرة ، ومحاصيلها التالفة ، والاستفادة من كل هذا لسد النقص الكائن في تغذية السواد من أهل الريف الجنوبي . وهذا العمل يحتاج من ضروب المعرفة إلى أكثر من العلم بالزراعة . فلهذا بذل جهده حتى يصير حاذقاً في علم التغذية وفن الطبخ . نشر مجموعة أسماها «٤٣ طريقة لإنقاذ محصول البرقوق البري» وهي مجموعة من وصفات لعمل المربى ، والشراب ، والخل ، والحساء ، والكفتة ، جربها ورضيها جميعاً الدكتور كارڤر .

وأجرى تجاربه الشهيرة في الفول السوداني ، فأفضت به إلى إنتاج أكثر من ٣٠٠ مادة نافعة . ومن هذه المواد ، مما يصنع اليوم للتجارة ، زبدة الفول ودقيقه ، وأنواع شتى من الزيت والسماد . وله رسالة منتشرة بين نساء الزراع ، اسمها « ١٠٥ طريقة مختلفة يجهز بها الفول السوداني للمائدة » . ويتضمن هذا الكتاب وصفات لصناعة الحساء من هذا الفول ، والخبز ، وعجائن الفطائر والحلوى ، والجبن . وباتساع

نطاق استعمال الفول السوداني زادت غلته من ٧٠٠ مليون رطل في سنة ١٩٢١ إلى ١٤٠٠ مليون رطل في سنة ١٩٤١

وفي مارس الماضي نشر كارڤر نشرته الخاصة للمساهمة في مجهود النصر بتوفير المزروعات، وسماها: «بستان النصر والسلام». وصدرها بكلمة اقتبسها من سفر التكوين في التوراة: «وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه الأرض... لكم يكون طعاما». وفي هذه النشرة جدول يحتوي أكثر من مائة نوع من العشب، ومن بري الزهر، يمكن جعلها طعاما، وفيها وصفات لطريقة تسويتها أو تهيئتها. من ذلك قهوة الشيكوريا، ومن الناس من يفضلها على قهوة البن. ومنها فطائر حشوها نوع من الحشيش حامض، تشبه فطيرة التفاح أو فطيرة الراوند. ومنها السلطات، وتصنع من البرسيم البري. ومنها الشطائر حشوها الحشائش، ولها رواج واسع في رحاب المعهد، معهد تسكيجي.

ولد الدكتور كارڤر حول سنة ١٨٦٤ في ميسوري. ولم يعرف أحداً من أبويه، فقد اختطفهما النخاسون وهو طفل وليد. فكفله أمريكي أبيض هو موسى كارڤر، ورباه، وخلع عليه اسمه. وكان الطفل ضعيف البنية فاختصه بأعمال النساء، بالطبخ والخياطة والغسيل.

ولكنه وجد قلبه تحرقه نار غريبة بأمل مبهم. وهو لا يذكر من الكتب التي رآها في منزل سيده غير كتاب هجاء، حفظه عن ظهر قلب. وافتقر آل كارڤر ولم يستطيعوا أن يرسلوه إلى المدرسة، فذهب إليها على نفقته، وصار ينام في الأجران ومخازن التبن، ويكسب طعامه من أي عمل يلقاه. وكانت مدرسته الأولى تتألف من حجرة واحدة، فاستوعب كل ما تستطيع مدرسة كهذه أن تقدم إليه. أما المدرسة الثانوية، وهي مجانية، فكان يكسب رزقه خلال دراسته فيها بغسل الثياب لبعض البيض.

وكتب إلى جامعة أيوا ليلتحق بها فقبلته. فلما جاءها فرأته، رفضته لأنه عبد أسود. فما كان منه إلا أن فتح مغسلا صغيراً. ثم لم تنقض السنة حتى كان قد جمع من المال ما يكفيه لدخول كلية سمپسون. وقضى السنوات الثلاث التي قضاها بهذه الكلية، يدرس ويغسل الثياب، ويحك الأعتاب وينظف المنازل. ولما فرغ منها ذهب ليقضي أربع سنوات أخرى يستتم بها تعليمه الزراعي بكلية الحكومة بأيوا. فظهرت موهبته في علم الأرض وعلم النبات، فكسبت له مكاناً بين مدرسي الكلية عند تخرجه.

وفى نحو هذا الوقت ، فى ألاباما الوسطى كان الزعيم الأسود ، بوكر وشنجطن ، مؤسس معهد تسكيجى ورئيسه ، يحلم لأحلام لتحرير الزراع السود تحريراً اقتصادياً . واحتاج فى تحقيق هذه الأحلام إلى رجل ، فوقع اختياره على كارفر .

ووصل كارفر إلى تسكيجى فى سنة ١٨٩٦ ولما بلغها لم يجد إلا قليلا يعمله ، وقليلا يعمل معهم . فإن وشنجطن أراد أن ينشىء معملا زراعياً ، ولكنه لم يجد الأجهزة ولا المال . وأراد أن ينشىء مدرسة زراعية ولكن الأرض كانت عنيدة أبية . وأراد لأفنية المعهد حشيشاً يغطيها ، ولكنه لم ير إلا الرمل .

وترى اليوم فى متحف « كارفر » صندوقاً زجاجياً فيه بعض الأدوات التى استخدمها لتجهيز معمله الأول ، فقد استخدم لتوليد الحرارة فى معمله مصباحاً استنقذه من مخزن غلال ، وتجده اتخذ هاوناً من فنجان مطبخ ثقيل ، واتخذ له مدقة قطعة مبسوطة من حديد . والكاسات صنعها من قنينات استخرجها من قمامة المدرسة وقطع رؤوسها . وقلب زجاجة حبر فصيرها مصباح كحول ، وصنع له فتيلا من عنده .

وكانت مساحة مزرعته التجريبية ١٦ فداناً ، وكانت تربتها رملية جرداء مجدبة . فأرسل تلاميذه بالسلال والجرادل إلى الغابات والمستنقعات ، فجلبوا القمامة والحمأة المتكونة من أوراق الشجر ، يوماً بعد يوم فغطوا بها وجه الأرض الرملية .

وعلى هذه الفدادين ، أثبت أن أردأ أرض فى الجنوب ، تستطيع أن تنتج من البطاطس محصولين فى العام الواحد لا محصولا واحداً . وعلى هذه المزرعة جعل الفدان ينتج بالة من القطن ، فكان من أوائل من جنى هذا القدر من المحصول فى ولاية ألاباما .

قال كارفر : « قال لى كل من لقيته : إن هذه الأرض غير منتجة . ولكنها كانت أرضى التى لا أرض لى غيرها . ولم تكن غير منتجة ، بل كانت مهملة » .

ووجد بها منافع أخرى . فمن الطفل ، وهو ذو ألوان كثيرة ، صنع فخاراً ، وصنوفاً من الحبرلتلوين ورق الحيطان ، وألواناً شتى لقوالب الأسمنت الزخرفية . وكان عدواً لدوداً للتبذير ، فصنع من سيقان القمح والقطن والذرة ألواحاً عازلة للحرارة . وصنع الورق من فرع أعشاب «الوستارية» ومن عباد الشمس ، ومن الخبيزة . ونسج من حشائش « ذيل الهر » — التى تكثر فى المستنقعات — حصائر للمائدة توضع عليها الأطباق . وصنع أوشحة الموائد من زكائب

العلف وصبغها بألوان زاهية
حرجة من الطفل .

وفى سبيل نشر دعوته إلى تعميم المراعى الخضر ، جاء بعربة قديمة فجعلها مدرسة زراعيـة متنقلة ، وملأها بالمعروضات الزراعية ، واستعار حصاناً ، وأخذ يطوف به الريف المجاور بانتظام . فهـذه هى المدرسة المتنقلة الأولى ، من المدارس الكثيرة المتنقلة اليوم فى ألاباما تحت رعاية وزارة زراعة الولايات المتحدة .

وكانت مقاطعة ماكون عندئذ ، كأكثر ولايات الجنوب ، تزرع القطن وقلما تزرع غيره . فأراد كارفر أن ينقذ الأرض من هذا الإجهاد ، وأن يزيد دخل الفلاح ، فنصح بزراعة البطاطس والفول السودانى أما البطاطس فصارت اليوم محصولا دائماً من محاصـيل الجنوب . وأما الفول السودانى فربما بلغت قيمته هـذه السنة ما يقرب من ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال . وبذل كارفر من الجهد ما لم يبذل مثله أحد سواه ، حتى حطم قبضة القطن الآخذة بخناق الزراعة فى الجنوب .

وفى أيام جهاده الأولى ، فى مقاطعة ماكون ، لم يكد يجد فيها بستاناً واحداً للبقول ، وإلا قليلا من الخنازير والدجاج والبقر . وشاع مرض البلاجرا بين أهلها لسوء حالة التغذية . فرغب الناس فى هذه البساتين ، وألف لهم الوصفات ورسم لهم الطرائق لتحضير الخضر وحفظها ، حتى قال وكيل الزراعة بهذه المقاطعة إنه لا توجد مزرعة يمتلكها أسود إلا بها بستان للخضر ودجاج وخنازير ، وبقرة على الأقل . أما مرض البلاجرا فاختفى تقريباً .

ويصر الدكتور كارفر على أن القاعدة التى وضعها : « ابدأ حيث أنت » تنفع الإنسان حيث كان من الأرض . وقد خطب — منـذ أعوام — فى حفل من الزنوج ، ولكى يشرح لهم القاعدة شرحاً عملياً ، خرج فى بكرة يوم إلى تل قريب ، وعاد يحمل سبعة وعشرين صنفاً من النبات لها كلها خواص طبية .

قال كارفر : « وذهبت بعـدئذ إلى صيدلية قريبة ، واشتريت منها سبعة أنواع من أدوية مسجلة تحتوى على عناصر موجودة فى هذه النباتات . وهذه الأدوية نقلت إلى هنا ، من نيويورك ، وكان حقها أن تصنع هنا » . ثم قال : « إذا انطمست البصائر فقد هلك الناس ! » .

وسمعت الدكتور كارفر يحـدث جمعاً من السود ، قال : « إن السود عليهم أن يجيبوا سؤالا واحداً هو : « أعندنا هـذا الشىء الذى يتطلبه الناس ؟ » ثم قال لهم إنه

مع جماعة من البيض يبحثون عن رجل يعين لهم مواقع البترول من الأرض .
قال كارڤر : « فقد نسيت هذه الجماعة أن تذكر : أهي تريد رجلا أبيض أو أحمر أو أصفر أو أسود ؟ لم يقولوا إلا أنهم يريدون رجلا يعين مواقع الزرادل إلى

قال كارڤر : « لا تذهب عند الجماءة إلى ثمرات جارك ، فكلكم خليق أن يجد من هذه الثمرات ما يكفيه حيثما يكون » .

الطاعة العمياء

يستعمل أهل تشيكوسلوفاكيا مبدأ الطاعة العمياء أو « سوء الفهم المقصود » ليسخروا من الغزاة ويقاوموهم . مثال ذلك أن الطائرات البريطانية حلقت مرة فى جو بوهيميا ومورافيا وألقت على أهاليهما المنشورات . فأمر رجال السلطة الألمانية جميع الأهالى بأن يسلموا إليهم كل ما يعثرون عليه من تلك المنشورات . فما كان من بعضهم إلا أن ألصق نماذج منها فى أماكن بارزة من الطرق والساحات العامة وألصقوا بجانب كل منشور إعلاناً يقول : « كل من وجد منشوراً من المنشورات التى ترى نموذجاً منها هنا ، فعليه أن يبادر إلى تسليمه إلى السلطات الألمانية فى الحال وإلا عرض نفسه لعقاب شديد » . وبهذه الطريقة أتاحوا الفرصة لجميع الاهالى لقراءة تلك المنشورات .

(نقلا عن جريدة نيويورك پوست)

الأعداء المتوددون

اعتقل تاجران سويسريان فى اليابان فاحتجا إلى موظف يابانى فابتسم معتذراً وقال : « أنا أعلم أنكما محايدان . ولكنكما عدوان محايدان » .

فقال أحدهما : إذن ماذا تعد الأمريكيين والبريطانيين ؟ فقال : أعدهم أعداء محاربين . فقال أحد السويسريين : والإيطاليين والألمان ؟ فقال اليابانى : أعداء متوددين ؟

تستطيع أن تترك التدخين — وأن تكون راضياً

على التدخين السلام

كورتى رايلى كوبر

المشهد منقوش فى صفحة ذهنى فلن أنساه . كان الوقت فى الأصيل والجو يسوده شعور الاسترخاء ، كما يكون شأننا بعد الظهر . وكانت كلابى الأربعة تغط فى نومها . وفجأة طرحت سيجارة مشعلة وأنا أقول بصوت عال : «لا . إننى أبطلت التدخين». ها هى ذى نهاية تصميم تكرر خلال سنوات ، وكان فى كل مرة أضعف من أن يقوم بذاته فلا يلبث حتى ينهار ، ولكن الأثر تجمع حتى أصبح أساسا للوقفة الحاسمة . فعلى الآن أن أغلب هذا العدو ، أو أن أعترف بأنى ضعيف أحمق .

إلا أن الخوف تملكنى فجأة . . . أهذا القرار تضحية سخيفة على مذبح العزم ؟! كانت الأمسية من تلك الأمسيات التى يطيب فيها للفتى أن يقوم ظهره المنحنى فوق آلته الكاتبة ، ويلقيه إلى ظهر كرسيه ليستريح وينسى عمله هنيهة ما ، ويمد يده ليشعل سيج . . . .
ولكننى عزمت على أن أبطل التدخين .

كان تدخينى قد بلغ حدود الإغراق . وقد مضت على أربعون سنة مصصت فيها النيكوتين كما يمص الاسفنج الماء . حتى فى الليل ، كنت أستيقظ مراراً ، وأمد يدى إلى سيجارة . وهأنذا الآن أرتعش إذ أفكر فيما أنا مقدم عليه . وكنت فى تلك الساعة محروماً كل سند وتأييد ، فزوجتى غائبة ، وأنا وحدى . ولكنى ضحكت عندما تذكرت أننى وحدى . وحدى ! إذن لست فى حاجة إلى أن أخبر أحداً بما فعلت . ولست فى حاجة إلى التفاخر به إن نجحت ، أو إلى التماس الأعذار إذا خبت فيما عزمت عليه . وإذا خبت فلا مجال للشعور بالخجل . وما دام أحد لا يعرف عزمى ، فلن يحاول أحد أن يثبطه .

وفجأة شعرت بالغبطة ، وأن كل شىء على ما يرام . فتناولت عمداً بضع سجائر ووضعتها فى جيبى ، وداعبتها بأصابعى مئات المرات خلال المساء ، ثم أخرجتها ووضعتها جانباً . ها أنذا عشت ثمانى ساعات بغير تدخين ، فلم لا أقوى على أن أعيش ثمانى ساعات أخرى ؟ وأبيت أن أمس علبة سجائرى قبل أن أنكفىء إلى سريرى .

وتمكنت من أن أنام ، ثم استيقظت وأنا يغمرني شعور بالرعب كأنني أتيت عملا مخيفاً.

ثم سمعت الساعة تدق الرابعة ، أي أني نمت ست ساعات ، وهو ما لم يتح لي منذ سنين . فزال رعبي ، وضحكت مستبشراً . فأنرت المصباح ، وفتحت علبة السجائر ودفعت أصابعي بينها وأنا أقول متهللا : « إني غلبتكن » ، ثم قلت : « إذا كنت قد امتنعت عنكن هذه المدة ففي وسعي أن أمتنع عنكن إلى الأبد » .

في مساء ذلك اليوم من أيام نوفمبر ، عندما حدث هذا الحادث العظيم ، كان وزني يقل عشرين رطلا عن المتوسط ، وكنت لا أستطيب الطعام ، وكان حلقي جافاً كحلق المدخنين ، وكان ينتابني السعال ، وكنت أشكو تهيج الأعصاب والتهاب التجاويف الأنفية ، وكانت سلسلتي الفقرية متصلبة ، وكانت أصابع اليدين مدبوغة بلون الجوز الغامق . وكنت أخجل أن أفتح فمي ، لئلا تبدو أسناني تعلوها طبقة كثيفة من بقايا النيكوتين أو أن يبدو لساني المطلي بطلاء بني . وحقيقة أمري أني كنت أتوناً مشتعلا.

ولكنني تغيرت في شهر واحد تغيراً كبيراً ، فإن نبضي — كنبض المدخنين — كان يدق بمعدل ١٢٠ دقة في الدقيقة ، فهبط إلى ٧٢ في الدقيقة . وصرت أستطيب الطعام وهو ما لم يتح لي خلال السنوات السابقة . وزالت البحة والسعال ، وخف التهاب التجاويف . والآن أشعر أنني لست على ما يرام ، إذا لم أنم ثماني ساعات كل يوم . والأسف الوحيد الذي يساورني هو أني لم أفعل ما فعلت قبل خمس وعشرين سنة .

وقد حاولت ذلك مراراً ، ولكنني لم أكن مسلحاً بالرأي السديد ، فكنت في أغلب الأحيان أخبر كل أحد بأنني سأجرب أن أبطل التدخين ، أو أبدأ على أساس إبطاله تدريجياً ، أو على أساس سخيف آخر من هذا القبيل .

وكانت الأيام تمضي وإذا أنا أدخن ثانية وأسرف . ويجب أن أعترف بأنني لم أفهم مطلقاً كيف يستطيع إنسان منكوب بحالة « النيكوتين » العصبية الحادة أن ينقطع عنها تدريجياً . بل على الضد من ذلك ، فكل من درس موضوع التدخين يعترف بأن هنالك طريقة واحدة للاقلاع عن هذه العادة وهي الترك التام . وقد بحث ج . س . فرناس ، من عهد قريب ، بحثاً مسهباً فسأل المدخنين وخلص إلى القول بأن ترك التدخين ، إما أن يكون تاماً ، وإما أن لا يكون على الإطلاق .

وقد بحثت الموضوع مع خمسة وأربعين من معارفي الذين طلقوا التدخين ، فاتضحت

لى غرائب فى أقوالهم . ومن هذه الغرائب أن الذين عانوا أقل المصاعب فى الإقلاع عن التدخين ، هم الذين كانوا أقل من غيرهم ، حديثاً عنه . وقد صاغ أحد أصدقائى هـذا المعنى فى قوله :

« إذا كنت تنوى أن تبنى قناطر تعود عليها إلى التدخين — حتى قبل أن تبطله — فإبطاله دعوى زائفـة . وقد تقول إنك ستقلع عن التدخين مرة ما ، ثم تبدأ تدخن قليـلا فى الخفاء ، ثم تعود مدخنـاً مبالغاً فى التدخين كما كنت . وفى خلال ذلك توهم نفسك أنك وجدت بالتجربة أنه خـير لك أن تتركه تدريجاً » . إن فى سيجارة واحدة خطراً كبيرا على من كان يدخن كالخطر الكامن فى كأس واحدة على من كان سكيراً فأقلع . وحقيقة الأمر أن المغالاة فى التدخين هى نوع من السكر .

وليس هناك شك فى فائدة الإقلاع عن التدخين . فجميع أصدقائى الذين أقلعوا عن هـذه العادة يعترفون بأن صحتهم تحسنت ، ويستثنى من ذلك صديق أو صديقان . فالصداع قد زال ، ومتاعب التجاويف الأنفية قد قلت ، وفى بعض الحالات تحسن البصر ، وهناك من يشير إلى إرهاف حاسة الشم بل حاسة السمع أيضاً . ونال الكثيرون تحسناً فى الهضم ، وقلة فى الغثيان ، وزيادة فى القدرة على مقاومة الزكام والأنفلونزا ، أما البحة المألوفة فى حلق المدخنين فقد زالت تماماً ، وبعضهم زاد وزنه ولكنه لم يسمن . وقد زاد وزنى منـذ أقلعت عن التدخين عشرين رطلا ، وأنا أشتهى المآكل الشهية وأقبل على أكلها ، ولكن ملابسى لم تضق على ، ونطاق خصرى لا يزال ٣٢ بوصة . ولعل هـذه الحقيقة — أعنى زيادة وزن الجسم بغـير أن تصحبها السمنة — ترجع إلى اشـتداد الرغبة فى النشاط البـدنى ، فالشعور بتحسن الصحة يدفع إلى الرياضة . ويلوح أن ما يكتـنزه الجسم على أثر ترك التدخين يختلف عن « الكرش » الناشىء عن الاسترخاء .

وهناك اعتقاد عام بأن استطابة كأس من الخمر لا تتم بغير أن يصحبها التدخين . فالعقبة الأولى التى يتعرض لها تارك التدخين ، هى عقبة اجتماعية ، إذ يرى فى حفلة ما جميع المدعـوين يشربون ويدخنون فيغرى بالتدخين ويحس أن الامتناع صعب عليه . ولـكن الامتناع مستطاع ، وما عليك إلا أن تقول ما تقوله عادة عندما لا يعن لك أن تدخن ، « شكراً » . فتقـديم السيجارة عادة ميكانيكية اجتماعية . ولعلك تدهش إذا علمت أن قليلا جداً من الناس من يلاحظ أنك لست فى عداد المدخنين . وثمة قاعدة

يجدر بك أن تجرى عليها ، احفظ فى جيبك عيدان الكبريت : فكلما زاد عدد السجائر التى تشعلها لغيرك بهذه العيدان يقل عـدد السجائر التى تعرض عليك لتدخينها .

ويتعـود مدمنو التدخين — على الزمن — إلتهاباً فى الحلق وطعما خاصاً فى الفم . وأصدقائى متفقون على أن غلبة هذا التعود هى أكبر حائل يجب تخطيه فى سبيل الامتناع عن التدخين . أما أنا فقد حاولت مص حبوب النتول المانعة للسعال أو حبوب النعناع ، وغيرى جرب الحلوى . ولـكننى أشـير عليك بأن تبتعد جهدك عن الحلوى التى من قبيل الشكولاتة فإنك ستلتهم علبة كاملة منها قبل أن تدرى ما أنت فاعل .

وعلى كل من يترك التدخين أن يعود نفسه العلم بأن كل ذكرى قديمة مرتبطة بالتدخين تجدد اشتهاءه . فإذا أدركت ذلك كان فوزاً لك . ففى قدرتك أن تتغلب على هذا الاشتهاء بمناقشة نفسك مناقشة تبين لك سخفه . ويأخذ هذا التطور فى الضعف كلما هزأت بالتدخين ، وعددت ما كان يصيبك منـه من مضايقة ، فلا تلبث أن تجد من النادر أن يخطر لك التدخين ببال .

ومهما يكن من أمر فإن رائحة السيجارة لن تزعجك ، بل على الضد من ذلك ، كلما طال عهد تركك التدخين ، ازداد شعورك بأن دخان السجاير كريه الرائحة ، وتبدو لك أنفاس مدخن آخر كأن فيها نتن قطـة ميتة ، ثم لا تحرك فى نفسك إلا ذكريات الصـداع ، والسعال القوى ، وإحساس الخمود ، وساعات كنت تقضيها عاجزاً عن كل عمل إلا مص أنبوب من النيكوتين .

وعليك أن تذكر دائماً ، أن أحداً لم يمت أو يجن لأنه لم يجـد دخاناً . وأقصى ما يحتمل أن يصيبك هو انزعاج ، تعتاض منه بنبض منتظم ، ونفس سهل ، وفم زال منه طعم الغراء . إن ترك التدخين عمل كبير، ولـكنه ليس تضحية بالقدر الذى يزعمون . ويا ليتنى أستطيع أن أقف ويدى فى صدرى موقف جبـار كنابليون ، أروى ما قاسيت من تجاريب ومحن . وكل ما أستطيع قوله هو أن ترك التدخين ، كـكل تحول مفاجئ فى الحياة ، عمل عظيم الشأن ، ولـكنه ليس مستحيلا . فعـلى المرء أن يستعين بجميع عناصر التفـكه ، والاستنجاد بالـكرامة ، والاعتماد على الفطنة . إذ كيف يسوغ لأحد أن يغتم ويأسف على ترك عادة وجد فى تركها راحة بعد النوم وصـفاء الذهن وترجيح طول العمر بزوال الضعف الجسمانى .

ولعلك تحس الآن بشهوة شديدة إلى سيجارة ، ولـكن لماذا تسمح لقصاصة من الورق ملفوفة حول قليل من التبغ أن تلعب بك ؟

تؤثر الألوان تأثيراً غريبا
فى فكر الانسان وشعوره .

سحر الألوان

هوارد كتشام

قالت لى سيدة ذات يوم : « سأقيم مأدبة عشاء ، وأريد أن تكون رائعة ، فهل أجد عندك بعض الرأى ؟ » .

قلت : « جربى النور الأرجوانى القانى ، فاشترى ثلاثة مصابيح أو أربعة — من قوة ألف واط وبعض الحوامل ، وغطى المصابيح بقطع من ستار قان ، وأثبتيها فى جوانب أرض الغرفة تحت الأثاث ، ثم اطفئى سائر المصابيح ، ثم انظرى بعدئذ ماذا يكون ؟ » .

فحدجتنى السيدة بنظرة غريبة ، ولكن لا ريب فى أنها كانت ترى أنى أحسن هذا الذى أتحدث عنه . وفى صباح ليلة المأدبة وصفت تأثير النور بأنه « لا يقل شيئاً عن المعجزة » ، فإن هذا الضوء المتوهج الرقيق زهت به ألوان النساء حتى صرن فى رأى العين أصغر مما هن بعشر سنوات ، وكان هذا وحده كافياً لتفجير ينابيع الغزل الحلو فى صدور الرجال ، وألهمهم ، فاستفاض حديثهم ناعماً مرحاً . لم تأخذنى الدهشة ، فإنى قد استعملت الأنوار الأرجوانية فى الحفلات زمناً طويلا ، وتقديرى أنها على الأقل تقوم مقام كأسين من الشراب .

إن تأثير اللون فى نفس الإنسان بعيد الغور ، فالنور الأرجوانى القانى يلين الأعصاب ويميل بها إلى الاستقرار ، واللون البنفسجى يجلب الكآبة والانقباض ، واللون الأصفر يبعث النشاط فى الجهاز العصبى .

وقد ذاع فى أوائل المائة الثامنة عشرة اتخاذ زجاج النوافذ من الزجاج الأزرق والأرجوانى ، إذ كان يظن أنها أوفق لصحة الانسان . وهذه النظرية أقل إغراقاً فى الخيال مما يبدو لك ، فإن الضوء الأرجوانى إذا أحسن استعماله كان من خير المنومات (جربه مرة بنفسك) . وأما الأزرق فيهدىء الأعصاب ويجدد النشاط . ومن الحقائق الثابتة أن أنواعاً معينة من البزور التى تبقى ثمانية أيام حتى يبدو نباتها فيستقبل الشمس ، يبدو نباتها بعد يومين إذا ما استنبتت فى بيوت من زجاج أزرق . وقد اتخذ الإنسان ، منذ أقدم العصور ، هذه الألوان رموزاً وأضافها إلى بعض العواطف والأفكار . فالأحمر رمز الشجاعة والإقدام

ولكنه أيضاً رمز الفوضى والمذابح . والأصفر رمز المجد والبهجة والرخاء ، إلا أن بعض ظلال هذا اللون يرمز بها إلى الجبن والمرض والتبذل . واللون الأرجوانى رمز البطولة والعظمة أو رمز الوجد فى الحب والآلام والأسرار . وقد بلغت هذه القرائن المشتركة من التأصل فى أعماق شعورنا ، حتى تعد سبباً من أسباب تأثير الألوان فى النفس . وأبلغ مثل يدل على تأثير الألوان تلك التجربة التى جربتها مدينة لندن رغبة فى تقليل عدد حوادث الانتحار فوق جسر « بلاك فرايار » ، فدهن الجسر القديم القاتم اللون بطلاء أخضر ناضر . فنقصت حوادث الانتحار ما يزيد على الثلث فإن يكن اللون الأخضر قد أعاد شيئاً من السرور إلى النفوس اليائسة فقد يعزى التحسن أيضاً إلى إزالة اللون الأسود ، الذى توارثنا عنه أنه رمز الموت والأحزان .

وإذا تأملنا ما للألوان من التأثير فى حياتنا أدهشنا قلة ما نعلمه عنها . ولم يتمكن أحد أبداً من أن يصف تماماً بكلمات اللغة لوناً من الألوان . وقد أراد « روبرت لويس ستيفنسون » يوماً ما أن يطلب من انجلترا ورقاً من لون وردى معين ليلصقه على الجدران فى داره بجزيرة تاهيتى (فى المحيط الهادى) ، فبعد محاولات كثيرة لم يجد بداً فى النهاية من أن يقر بعجزه عن أن يصفه .

ولا شك أن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تبقى فى عصر كعصرنا اتسع فيه نطاق الصناعة واستبدت الألوان بالعقول . وقد ابتكرت حديثاً طريقة محكمة لقياس الألوان وتحديدها وتعريفها ، وبهذه الطريقة أصبح من اليسير أن تنقل بالتلغراف « صفة » ٣٠٠,٠٠٠ لون . ولكى يستطيع « الملون » أن يوجد اللون الدقيق كما تدل عليه « الصفة » ، يضع اسطوانتين أو أكثر من الورق الملون بعضها فوق بعض ، فى آلة تدور شبيهة بآلة الجرامفون . وقد شق فى كل من هذه « الاسطوانات » شق من مركز دائرتها إلى محيطها ، وذلك ليمكن تغيير وضع الأجزاء الظاهرة منها ، وحين تدار اسطوانة الجرامفون تندمج الألوان حتى تصير إلى اللون الدقيق كما هو مطلوب فى الصفة . وقد يسرت هذه الطريقة لأعظم محل تجارى فى أمريكا أن يتلقى من باريس رسالة تلغرافية ، لم تستغرق إلا ٢٠ ثانية ، وفيها أحدث معروضات الألوان فى محلات الخياطة الباريسية العظيمة ، وبذلك استطاعت الشركة أن تسبق منافسها بأسبوع كامل فى بيع أقمشة ملونة بأحدث الألوان .

فمن الخطأ العظيم مثلا أن تحاول بيع

سيارة حمراء في اليابان فإن هذا اللون خاص هنالك بآلات المطافىء ومركبات البريد . وفي انجلترا قلما ترى سيارة خضراء ، فهم يتوهمون أن السيارة الخضراء شؤم على صاحبها . واللون الأبيض في الصين ، وفي كثير من الأقطار الشرقية ، هو لون ثياب الحداد . ولقد خسرت إحدى شركات الزيت خسارة مالية كبيرة لأنها تجاهلت كراهة الصينيين لهذا اللون حين طلت جميع محطات بيع البنزين التي كانت تملكها باللون الأبيض ، فكانت النتيجة أن تجنبها الجمهور .

ومن أهم المبتكرات الحديثة في استخدام الألوان هو تلوين الطرق المرصوفة التي تمر فيها السيارات . فقد أثبتت التجارب الكثيرة التي أجريت في جزائر المانش الإنجليزية أن الطرق المرصوفة حين طليت باللون الأفحواني الأصفر أو البرتقالي القاتم ، صار تألق أشعة الشمس ومصابيح السيارات عليها أقل بمقدار ٤٠ ٪ من تألقه على الطريق المرصوفة بالحجر الأبيض . وأثبتت التجارب في بريطانيا أن نسبة حوادث السيارات في ميل من الطرق الملونة أقل مما في غيرها ، وأن المشاة فيها ليلا أشد وضوحاً . أضف إلى هذا أن الذي يسير ، أو يسوق سيارة ، في طريق ملونة لا يحتاج إلى إشارات أو علامات ترشده . ونفقات تلوين الطريق المرصوفة زهيدة جداً . وقد اكتشفت أخيراً وسيلة لوقاية اللون من الزوال . ولو استبدل الناشرون بالحبر الأسود والورق الأبيض ، الحبر الرمادي والورق الأصفر لأعانوا على صون بصر القارىء . فالحبر الأسود على الورق الأصفر هو أشد لونين مجتمعين وضوحاً ، ولكن التباعد الذي بين اللونين شديد بعض الشدة ، حتى أن العين لا تستطيع أن تصبر على ملازمته زمنا طويلا . أما الحبر الرمادي على الورق الأصفر فهو يقلل من إجهاد البصر ، ويجعل الحروف الصغيرة أشد وضوحا . ويجدر بالمدارس أيضاً أن تجرب الطباشير الأسود اللون على سبورة صفراء .

وتغطى أحدث موائد البلياردو بغطاء أحمر قان ، إذ ظهر أن شبح الظل الذي تتركه الكرة في حركتها أقل ظهوراً على الغطاء الأحمر منه على الأخضر .

وقد بذلت جهود كثيرة من التفكير في تلوين داخل طائرات النقل . فبعض الألوان التي وقع الاختيار عليها توهم الناظر أن المكان أوسع مما هو في حقيقته ، ووقع الاختيار على ضروب من اللونين الأزرق والأخضر تحدث تأثيراً ملطفاً ، لتقاوم دوار الطيران . أما اللون الأصفر — وهو

لون يثـير الغثيان — فقـد أعرضوا عنه إلى النهاية .

وينبغى لمهنـدس اللون أن يعـلم أن المقـابض الحمر تجعل « فرش » الأسـنان — التى ثمن الواحدة منها قرشان — أكثر رواجاً من غـيرها ، أما اللون الكهرمانى فهو أروج للفرش التى ثمنهـا ٥ قروش . وينبغى أن يعـلم أيضاً أن النـاس أكثر استجابة للاعلان الذى يوزع على ورق أحمر فاتح أو أصفر أو أخضر ، أما الأبيض الخالص فتأثيره أقل . وينبغى له أن يعـلم أن كل لون يحتوى على الأصفر والأحمر يشعر المرء بالدفء ، وأن كل لون يحتـوى على الأزرق يشعر بالبرد ، وأن يعلم كيف يحسن استخدام هذه الألوان لفائدته . وقد حدث أخيراً أن صاحب مصنع فى أمريكا أعاد تلوين حجرة اسـتراحة النساء ، باللون الأزرق الخفيف الزرقة ، فبدأ النساء يشكون من أن الغرفة شديدة البرودة دائمـاً حتى اضطررن إلى لبس معاطفهن حين يذهبن لتناول الغذاء . ولكن المهندس كان يعـلم أن هذا مستحيل لأن حرارة المصنع كانت مضـبوطة ضبطاً « آلياً » دقيقاً . ولـكن الشكوى لم تزل مستمرة ، وأخيراً استدعى أحد مهنـدسى الألوان فأشار بأن تطلى الألواح التى تغطى أسفل الجـدران باللون البرتقالى ، وأن توضع على الكراسى أغطية برتقالية اللون ، فلمـا تم ذلك انقطعت الشكوى .

وسواء أأدركنا ذلك أم لم ندركه ، فإن اللون يؤثر فى إقدامنـا أو إحجامنـا عن الشراء ، ويشعرنا بالحر أو بالبرد ، وبالسرور أو الكآبة ، ويؤثر فى شخصية الرجل وفى نظرته إلى الحيـاة ، كما يؤثر أرق أو زكام أو وجبة طعام شهى . وقد قال « جرانت آلن » وهو من كبار علماء النفس المقارن : ليس فى طبيعة إحساسنا عامل ما يتيح لنـا لذة أعظم أو أكثر تنوعاً ممـــا يتيحه الإحساس بالألوان .



إن عصبة أمم بغير طائرات جمعية مناظرة .

(ستيوارت تشايس)

أفضل أن يقول الناس : لماذا لم ينصب له تمثال ، على أن يقولوا : لمـاذا نصب له .

(كاتو الرومانى)

أسطورة هولندية تصف شعور
الهولنديين حيال ما عانوه فى هذه الحرب

البغضاء

هنريك ولم ڤان لون

قبل ثلاثة أشهر كان صديق فى «الهاى» يواصل فى هدوء عمله كطبيب ، ويشترك فى الحركة الخفية ضد النازى . ثم علم ذات يوم أن أمراً قد صدر بالقبض عليه ، ففر بأعجوبة ، وجاء إلى أمريكا . وهو الآن جالس فى مكتبى .

وأوغلنا فى الليل ونحن نتحدث ، واستطردنا أخيراً إلى الكلام فى البغضاء ، وإنه لموضوع لا يوائم أبناء أمتنا ، فإننا نحن الهولنديين معروفون بأننا لا نحسن أن نبغض .

فبعد الحرب الماضية فتح الهولنديون دورهم وقلوبهم لأطفال ألمانيا المتضورين الجياع ، فعاش عشرات الآلاف منهم فى هولندا سنين عديدة . ولكن لما غزا النازى هذا البلد المسالم ، قاد الهجوم عليه هؤلاء الأطفال أنفسهم ، وقد بلغوا الآن مبالغ الرجال ، وارتدوا زياً هولنديا مسروقاً ، واختلطوا بالجنود الهولنديين ، ثم رموا ظهورهم غيلة بالرصاص .

وقد محا الطيارون التازيون جانباً كبيراً من روتردام بعد توقيع الهدنة ، وأحرقت « مدلبرج » أجمل مدن هولندا القديمة ، فلم يسعنى إلا أن أتساءل : أترى هذه الوحشية المتعمدة قد خلفت أخيراً أثرها فى الخلق الهولندى ؟

وملأ صاحبي لنفسه فنجاناً آخر من الشاى ثم قال : « إن معظم الذين يتحدثون عن العالم بعد الحرب يغفلون كل الإغفال أمراً واحداً له أعظم قيمة » .

فسألته : « ما هو ؟ » .

« البغضاء ، والضمير القومى الذى بلغ فى عمق الإساءة إليه أن لا تخمد ثائرته إلا انتقام يكون فيه من الهول كفاء العدل .

" " " " " " " " " "

هنريك ولم ڤان لون كاتب أمريكى من أصل هولندى . وهو مؤلف رفيع المقام يبسط العلم والحكمة فى مؤلفاته ويقرن التبسيط برسوم كما فعل فى كتابه « الجغرافية » وكتابه « قصة الانسانية » . ومن مؤلفاته المشهورة «التسامح» و « السفن » ، وترجمة حياته بقلمه .

وسنرى فى الأسابيع القليلة بعد انتهاء الحرب انفجاراً للبغضاء والنقمـة فى أوربا لم يشهد العالم مثيلا لها .

« ولكن دعنى أقص عليك قصة ، وهى ضرب من القصـص المأثور المتواتر الذى يرويه الهولنديون ، حين يلتقون ليلا فيما بقى لهم من بيوتهم . وستدرك حين تسمعها إلى أى حد نجح الألمان فى تعليم ضحاياهم الهولنديين البغضاء » .

وإليكم القصة كما رواها لى صديقى :

« انتهت الحرب فجأة ، وقبض على هتلر وجىء به إلى أمستردام ، وقضت عليه محكمة عسكرية بالموت . ولكن على أية صورة ينبغى أن تكون ميتته ؟ إن ضربه بالرصاص أو شنقه يكون أسرع مما ينبغى ، وأرحم أيضاً . وهنا نطق بعضهم بما كان يدور فى النفوس جميعاً : « إن الرجل الذى أنزل بالناس مثل هـذا العذاب الذى لا يصدق ، لينبغى أن يحرق حتى يموت » .

وقال أحد القضاة معترضاً : « ولكن أكبر ميادينا العامة فى أمستردام لا يتسع لأكثر من عشرة آلاف نفس ، وما من فرد من الملايين السبعة من أهل هولندا ، رجلا كان أو امرأة أو طفلا ، إلا وهو يريد أن يكون حاضراً ، ليلعنه وهو يجود بأنفاسه » .

وخطرت لقاض آخر فكرة ، فاقترح أن يحرق ، ولكن الحطب يشعل بانفجار حفنة من البارود يطلقه فتيل طويل يبـدأ من روتردام ويمد على الطريق إلى أمستردام ماراً بمـدن دلفت ، والهـاى ، وليدن ، وهارلم . وبذلك يتسنى للملايين المحتشـدة على جانبى الطرق الواسعة أن يشهدوا سريان النار فى الفتيل شمالا إلى تنـور هتلر .

واستفتى النـاس فى أمر هـذا العقاب فقـال : ٤ر٩٨١ر٠٧٦ إنه كاف مـلائم ، وخالفهم واحد ، وكان هذا المخالف رجلا يؤثر أن يشد هتـلر إلى أربعـة جيـاد فتمزقه إربا إرباً .

وأخيراً جاء اليوم العظيم ، وبدأت الحفلة فى الساعة الرابعة من صباح يوم من أيام يونية . وكانت هناك أمٌّ رَمَى النازى أبناءها الثلاثة بالرصاص من جراء عمل من أعمـال التخريب لم يرتكبوه ، فتولت هى إيقاد الفتيل ، ورتلت فرقة أنشودة شكر لله ، ثم ضج الخلق بصيحات النصر .

ومضى اللهب بطيئاً فى الفتيل من روتردام إلى دلفت ، ومن ثم إلى الميـدان الكبير فى أمستردام ، وكان الناس قد أقبلوا من كل فج وناحية من البـلاد ، وأعدت مقـاعد خاصة للشيوخ والعرج ، ولأهل المقتولين من الرهائن .

وكان هتلر قد شدّ وثاقه على عوارض الخشب ، وهو فى قميص أصفر طويل ، وظل صامتاً متجلداً حتى ارتقى غلام صغير فى كوم الحطب المحيط « بالفوهرر » السابق ، وأقام لوحاً كتب عليه : « هذا أكبر سفاحى العالم » . فهاجه هذا لما به من الكمد المكظوم ، وراح يدهور فى شدقيه إحدى خطبه القديمة .

فبهت الحشد ، فقد كان من المناظر الباعثة على السخرية أن يرى الناس هذا الرجل الضئيل يتشدق بالكلام كأنما يخاطب أتباعه . ولكنه ما عتم أن أخرسته صيحات الاستهزاء . ووافت اللحظة المترعة فى ذلك اليوم . ذلك أنه حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وصل اللهب إلى مشارف أمستردام . فسمعت فجأة قرعات طبول ، فانطلق الناس وبهم من الشعور ما لم يعهدوه فى أنفسهم من قبل ، ينشدون النشيد القومى . فاربد وجه هتلر ، وراح عبثاً يعالج الفكاك من وثاقه .

ولما انتهى النشيد القومى كانت النار قد صارت على خطوات قليلة من البارود ، ولم تبق إلا دقائق خمس ثم يموت هتلر ميتة شنيعة . ومرت دقيقة ، ثم ثانية ، وساد الصمت ، وصار الفتيل المتقد على قيد أشبار . وفى هذه اللحظة وقعت الأعجوبة . ذلك أن شيخاً ضاوياً نحيلا شق طريقه بين الجنود المصطفين للحراسة ، وكان كل امرئ يعرفه . فقد كان له ولدان أرداهما جنود المظلات بمدافعهم الرشاشة ، ولقيت زوجته وبناته الثلاث حتفهن فى حرائق روتردام . فصار المسكين بعد ذلك وكأنما طار عقله ، وراح يضرب فى الأرض على غير هدى ، والناس يتصدقون عليه ويحسنون إليه ، ومامن أحد إلا وهو يرثى له

ولكن الذى صنعه الآن ، جعل الجمهور يحتدم غيظاً ، فقد داس الفتيل عامداً ، وأطفأه . فصاح الخلق: « اقتلوه ! اقتلوه ! » غير أن الشيخ واجه الجمهور الناقم المرعد ، فى هدوء وسكينة . ثم رفع يديه على مهل إلى السماء ، ثم قال بصوت يتهدج من النقمة: « والآن دعونا نصنع هذا من جديد ، مرة أخرى » .

وسكت صاحبى ، فعرتنى رعدة .

ثم قال : « نعم ! أنا أيضاً أرتعد كلما قصصت هذه الحكاية . فإن بغضاء تتولد منها قصة كهذه ، لا جرم تكون أفظع شىء فى العالم . والآن أحسبك عرفت ماذا تصنع أربع سنوات فى هذه المذابح بروح أمة مسالمة . والله المسئول أن يرينا اليوم الذى يصبح فيه كل هذا ذكرى محزنة مظلمة للعنة البغضاء التى خلفها الطغاة وراءهم، يوم انحدروا إلى قبورهم التى جللها الخزى » .

مركبة الهواء قد أقبلت

إيجور سيكورسكى فى حديث
مع فردريك بايسنون

ملخصة عن
مجلة « أتلانتيك » الشهرية

نحن فى سنة ١٩٥٥ فى ضاحية على سطح تل يشرف على بحيرة جميلة فى منطقة جبلية تبعد ١٢٠ ميلا عن المدينة ، وأنت على وشك الانتقال إلى مكتب عملك فيها . ومع ذلك فإن أقرب طريق إليك يقع على مسافة خمسة عشر ميلا ، وبينه وبين محطة السكة الحديديه أميال عديدة .

" " " " " " " " " " "

قليل من الرجال من أسدى إلى الطيران ما أسداه إيجور سيكورسكى ، تخرج سنة ١٩٠٨ من مؤسسة كييف للفنون الصناعية ، ثم صنع سنة ١٩١٣ أول طائرة متعددة المحركات وحلق بها ، ثم قضى الفترة من ١٩١٤ الى ١٩١٨ فى تصميم قاذفات ضخمة وبنائها للجيش الروسى . وسافر إلى أمريكا بعد الحرب ثم تجنس بالجنسية الأمريكية سنة ١٩٢٨ . وفى نفس السنة أسس شركة سيكورسكى للطيران . ومن الطائرات التى تولى صنعها وتحسينها النوع البرى المائى المعروف باسمه ، وهو نوع من ناقلات الركاب الفاخرة .

وتبدو فى الأفق آلة طائرة ، فتضغط على زر فى صندوق قريب منك فتنطلق إليها إشارة لاسلكية . وعندما تصبح مركبة الهواء — وهى أشبه ما تكون بمروحة كهربائية أفقية — فوق الرأس مباشرة ، تشرع فى الهبوط عمودياً حتى يصبح مدخل « القمرة » على ارتفاع قدم من الأرض . وتقف المركبة ساكنة تحت مروحتها الدوارة كأنها طائر ضخم يرفرف بجناحيه . وتدخلها فيأخذ منك الطيار المساعد تذكرة السفر . وفى الحال يرقى « الهليكوبتر » عمودياً إلى ١٠٠٠ قدم ، ثم ينطلق إلى الأمام وقد بلغت سرعته فى التو ١٤٠ ميلا فى الساعة .

ويقول الطيار المساعد : « هذه بقعة محبوبة ، لقد كثر الإقبال على السكنى هنا حتى اضطررنا إلى تنظيم رحلة إضافية » . وبعد خمسين دقيقة يحوم الهليكوبتر فوق

المدينة . ثم يهبط فى بطء على سقف مسطح مساحته حوالى ٦٠ ياردة مربعة . وتنزل بالمصعد إلى الشارع ، وتسير قليلا إلى مكتب عملك ، ولما تمض ساعة منذ شربت قدح القهوة صباحاً فى منزلك فى الجبل .

إن رحلة كهذه ليست وليدة الخيال ، فبعد عشر سنوات من انتهاء الحرب ستنشأ مئات من خطوط النقل بالهليكوبتر لنقل الركاب مراحل قصيرة ، وستكون مئات الآلاف من «آلات الصعود المباشر» ملكا خاصاً لأفراد تحملهم فى أعمالهم أو فى لهوهم .

وعندنا اليوم نوع منها سهل الاستعمال يمكن أن يستخدم فى كل ماذكرت ، فهو يرقى ويهبط بالسرعة التى نختارها ، ويسهل أن يتراجع أو يدور أو يتحرك إلى الجنب . وفى أبريل ١٩٤١ ظلت إحداها ترفرف مدة ساعة و٣٢ دقيقة فوق بقعة لا تتجاوز مساحتها نصف فدان . وقد أدخلت عليها منذ ذلك الحين تحسينات كثيرة .

ولولا أن الهليكوبتر أصبح الآن سلاحاً عسكرياً — فصارت جميع التحسينات التى أدخلت عليه أسراراً حربية — لأمكننى أن أضيف إلى ما تقدم تفصيلات إضافية . ولولا أن الحرب قد حولت تفكيرنا إلى أدوات الدمار ، لما كان عليك أن تصبر عشر سنوات أخرى حتى ترى آلافاً من طائرات الهليكوبتر تستخدم فى أعمالنا اليومية .

وفى الطيران السريع يتطلب الهبوط والانطلاق بالطائرة بديهة حاضرة وبتاً سريعاً ، وبخاصة إذا كانت الأحوال الجوية غير ملائمة . ولكن «آلة الصعود المباشر» تنقل إلى الطيران ما نألف من سهولة استعمال السيارة ومرونتها . فلننظر كيف تدير زوجاك «هليكوبتر العائلة» — كسيارة العائلة — وهى تقطع بها ٥٠ ميلا لتقضى ساعات العصر مع صديقة لها .

تدفع زر المحرك وهى جالسة فى قمرة ذات مقعدين ، ثم تضغط على جهاز تعشيق العجلات بالمحرك فتدرج الآلة خارج الحظيرة التى لا تزيد كثيراً على حظيرة تتسع لسيارتين ثم تفصل جهاز «التعشيق» فتصبح الآلة متأهبة للصعود .

وتجد أمامها مباشرة وهى جالسة ، عصا القيادة ، وهى تذكرنا بذراع تغيير السرعة فى السيارة . وعن يسارها ذراع أخرى مماثلة لفرملة اليد المألوفة . وتحت قدميها دواستان مريحتان أشبه ما تكونان بما يقابلهما فى السيارة . وبالقرب من يدها صمام الوقود . وفى لوحة الأجهزة عداد لسرعة دوران المروحة فى الدقيقة .

وتفتح صمام الوقود فتتزايد سرعة المحرك حتى تصل دورات المروحة إلى ٢٤٠ دورة

فى الدقيقــة ، ثم تمد يسراها فتجذب برفق الذراع الرافعــة فتتغير زاوية الميل فى ريش المروحة الدائرة ، فيزداد اغترافها للهواء . ويرقى الهليكوبتر رفيقاً هادئاً فى الاتجـاه الرأسى . وعندما تصل إلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم تدفع عصا القيادة إلى الأمام فتنحرف زوايا الميل فى الريش ، فتتحرك الطائرة إلى الأمام . وإذا بدا لها أن تثبت فى الهواء فهى تترك العصا فى الوســط ، وإذا أرادت أن تنكص فهى تجذبها نحوها ، وهى تدفعها يميناً أو شمالا إن شاءت أن تدور .

وتنعم بالسير بها فى راحة ويسر بسرعة ١٢٠ ميلا فى الساعة ، ثم تخفف من سرعتها بعد ٣٠ دقيقة لترفرف فوق حديقة صديقتها الخضراء . فتطلق الذراع الرافعة فيهبط الهليكوبتر رفيقاً إلى الأرض . ويمكنها أن تتحكم فى سرعة الهبوط فلا تتعدى قدماً فى الدقيقة . وتمس العجلات الأرض وتستقر القمرة على الأرض دون أن ترتج .

وهى عمليــة أسهل فعــلا من قيادة السيارة لأن ضوابط الحركة هنا أقل عدداً . ولأن الأعصاب لا توترها السرعة التى تبتدرنا بها السيارة أو الطائرة المألوفة عند بدء تحركهما . ولكن التعود هو الذى يجعلنا لا نشكو من السـيارة السريعة ، التى تمرق مارة بنا على قيـد بوصات قليلة ، ولا من الطرق الزلقة وزحمة المرور فيهـا . ولـكنى أعتقــد ، لو أن الصدفة كانت قد أخرجت الهليكوبتر وأتاحتــه للاستخدام العـام قبل اختراع السيارة ، لتراجع الناس فزعاً من أخطار الانطلاق بالسيارات فى طريق من الطرق الحديثـــة ، ولعدّوها بدعة آلية خطرة .

وماذا يحدث لو توقف المحرك فجأة فى الفضاء ؟ يتخذ الهليكوبتر من نفسه وضع السـباحة فى الهواء ، وتنفصل المروحة عن المحرك ، ولـكنها تظل دائرة تحت تأثير ضغط الهواء ، وتبقى جميع الضوابط الأخرى فى أوضاعها كما هى . فتسمح الريش الدوارة للمركبة بالهبوط آمنــة من أى ارتفاع . ويبصر الطيار مرجاً صغيراً فينحرف إليه فى هبوطه ، ويمس الأرض وبه سرعة اندفاع أماميــة طفيفة ، وقد يدرج عليهـا عشر أقدام أو ١٢ قدماً .

وآلة الصعود المباشر كلهـا معدنية فهى تلائم الإنتاج الصناعى الضخم ، ولن تزيد تكاليف إنتاجهـا عن تكاليف السـيارة المتوسطة الثمن ، ولن تكون أيضاً تكاليف صيانتها مرتفعة . وسيمكنك الاحتفاظ بها فى حظيرة فى أرض دارك . والنوع الخفيف منها ذو المقعدين يستهلك جالوناً من البنزين لـكل عشرة أميـال . وقد يساعدنا الزمن

على خفض هذا الاستهلاك . ومحركها يعمل فى تلاحق منتظم ، فإن ريش المروحة يدور بسرعة تكاد تكون ثابتة ، سواء أثلاثة أميال كانت سرعة الطيران أم ١٤٠ فى الساعة ، إذ أن الحركة الأمامية تتوقف تماماً على زاوية انحراف الريش . والقطع المستهلكة فى السيارة أكثر من المستهلكة فى الهليكوبتر ، لما تتطلب السيارة من تبديلات متكررة فى تروس السرعة خلال السير ، ولأنها تتركب من أجزاء أكثر عدداً . ومن المحتمل أن يصبح المرء قادراً على قيادة هذه الآلة بعد فترة من التعليم تتفاوت بين ١٢ ساعة و ٢٠ ساعة .

وهل قدرنا ما ينجم عن طيران مئات الآلاف من هذا الطراز من الطائرات فى كل اتجاه من ازدحام الحركة فى السماء ؟ نعم . لقد تدبرنا الأمر بعض الشىء ، فلا بد من أن تكون هنالك مسالك فى الهواء لا تسلكها الطائرات إلا فى اتجاه واحد ، بالقرب من المراكز المأهولة الكبرى . وستحدد ارتفاعات معينة للحركة البطيئة ، وأخرى للسريعة . وستكون المسالك التى تتبعها الهليكوبترات بعيدة عن الارتفاعات المخصصة للطائرات بعداً مأمون العاقبة .

وماذا يكون من أمر الأحوال الجوية : المطر أو الثلج ، الضباب أو الريح ؟ إذا اكتنفك ضباب مرتفع فيمكنك أن تخفف من سرعتك حتى تصبح خمسة أميال فى الساعة ، وأن تهبط فى حذر ، وأن تنتظر حتى تتحسن الأحوال . وسقوط الثلج الكثيف الذى يشل حركة الطائرة والسيارة إلى أن تنظف مدارج الطائرات وطرق السيارات ، لا يمكنه أن يقيد من حركة الهليكوبتر ، إذ أن فى وسعه أن يشق طريق ارتفاعه فى الثلج مباشرة !

ويسهل على الهليكوبتر بلوغ مناطق كان من المتعذر الوصول إليها . ففى وسعه أن يحمل المؤونة إلى منجم فى قاع أخدود عميق ، ينحدر جانباه ، انحداراً عمودياً إلى ٢٠٠٠ قدم ، وأن يرتفع منه بالمعدن الخام . ويمكنه أن يرفرف ليلقى ، مثلا ، بالحبال إلى سباح منهك . وقدرة الهليكوبتر على الاختباء خلف الأشجار والتلال ، وعلى أن يدنو من أخطر العقبات القائمة على ظهر الأرض ، وأن يطير فوقها وهو يكاد يلامسها تدل على قيمته العظيمة فى المعارك الحربية .

وإنى لموقن بأن إنتاج هذه الآلات التى تصعد فى الجو صعوداً مباشراً ، والاتجار بها ، والقيام على صيانتها ، ستنشىء صناعة قيمتها بليوناً من الدولارات فى أقل من عشر سنوات بعد هذه الحرب ، كما نمت صناعة السيارات نمواً ضخماً بعد الحرب الماضية .

وسيدخل هذا الأمر على أسلوبنا فى الحيـاة تغييرات متعددة .

كان نمو المناطق الريفيـة خارج نطاق المدن محـدوداً بمدى الأتوبيس والسـيارة والقطار الفرعى فارتفع ثمن الأراضى فى جوار المحطـات وعلى جانبي الطرق العـامة ارتفاعاً فاحشاً . ولـكن استعمال الهليكوبتر يتيح إنشاء بيوت صغيرة لأصحـاب الدخل اليسير والمتوسط فى مناطق لم يكن الوصول إليها سهلاً حتى الآن .

وإنى لأتخيـــل ظهور طراز معمارى جديد ، فربما صارت المنـازل ذات سقوف مسطحة ، وفى جانب السقف حظيرة جميلة التصميم لطائرة من هذا الطراز ، فلا يكون عليـك إلا أن تدفع الآلة على عجـــلاتها من الحظيرة لتصبح قادراً على التحليق بها . وستعمل الفنادق على تهيئة المهابط والحظائر لنزلائها . وسيألف الناس القيام برحلات تمتد إلى ١٠٠٠ ميل دون أن يجدوا فى ذلك إجهاداً كإجهاد السيارة تكبدهم تعباً كبيراً إذا قطعت بهم ٤٠٠ ميل فى يوم واحد .

وعند ما يشرع العالم فى الانتفاع بمزايا الهليكوبتر الأخاذة نـكون بحق قد دخلنـا « عصر الطيران » .

أتصدق الأرقام ؟

يقولون إن الأرقام لا تكذب ، ولـكن الـكذوب يستطيع التلاعب بالأرقام ، ولذلك تستطيع أن تعتمد على الإحصاءات لتقيم الدليل على ما تريد . خذ طائفة مؤلفـة من عشر إناث تسع منهن عذارى وواحدة حامل . فكل واحدة منهن على المعدل حامل عشرة فى المـائة والحامل منهن تسعون فى المـائة عذراء !

[جيمز فينان]

● فى القنصلية الأمريكية بلشبونة عاصمة البرتغال كان موظف الجوازات منهمكا بعمله إذ دخل عليه رجل خجول المحيا وقال « هل لك أن تنبئنى إن كنت أستطيع الفوز بجواز لدخول بلادكم العجيبة » . وكان الموظف قد قضى أياماً بلياليها يعالج مئات أو ألوفاً من مثل هذا الطلب فقال : « مستحيل الآن . عد بعد عشر سنوات » . فمشى الرجل إلى الباب ثم توقف والتفت وقال وهو يبتسم ابتسامة صفراء « أأجىء حينئذ فى الصباح أو بعد الظهر ! »

[ولتر ونشل]

من أحرى بوصف الجنود الروس من الألمان :

الجندي الروسيّ في نظر النازيّ

الكولونيل پول طمسون

ملخصة من مجلة « إنفنتري جورنال »

إن أعظم عدة من عدد الحرب وأجلها خطراً في هذه الأيام هو الجندي الروسي — ومنهم عدد وفير بحمد الله . فماذا يقول الألمان أنفسهم في هذا الشخص الذي كان بمقاومته التي لا تلين أول من أصاب فاتح العالم المنتظر بالصدع الأول في درعه ؟

لقد وصفه الألمان بأبلغ بيان في كثير من كلام أرادوا به أن يذموه فمدحوه ، وفي البلاغات الحربية الموجزة الصادرة من ميدان القتال .

فمن ذلك ما أورده رئيس أركان الحرب في الجيش الألماني الثاني عشر، الذي أقام تسعة شهور قبل أن يتم له إخضاع قلعة سباستبول المعزولة . ويصف لنا هذا التقرير في كلمات تنم على نفاد الصبر ، ما لقيه الألمان من المقاومة مرة بعد أخرى في كل حصن من الحصون . وهذه نبذة ننصها : « كان في الحصن ثلاثون جندياً روسياً يحمونه ، وقد شققنا طريقنا إليه بعد أن ركبنا من الصعاب ما لا يخطر ببال . وأمكننا في آخر الأمر أن نحدث في سوره ثغرة ، وقذفنا منها بقنبلة يدوية . وقضت القنبلة في الحال على خمسة وعشرين رجلا من الثلاثين الذين كانوا بالحصن . فهل سلم الخمسة الباقون ؟ » وأجاب التقرير على هذا التساؤل مؤكداً في حدة الساخط : « كلا ! » وكان لا بد من إخضاع الخمسة الباقين بالقهر والغلبة .

وقد هاج هائج الألمان لهذه الأساليب الحربية ، وعجبوا كيف يطيق إنسان من البشر أن يمضي في تنفيذها ! وهم يتساءلون: أنى للطعام الروسي من الخبز الأسود ، وحساء الكرنب ، والشاي ، أن يبعث في الروسي هذه الحيوية وهذا العزم الذي لا يلين على مواصلة القتال ، وكل شيء حوله يقطع الرجاء ويغري باليأس ؟ وكيف صحّ للجندي الروسي أن يكون هذا الخصم المخوف ، وهو لا تعدل سترته المبطنة كاللحاف ونعله المصنوع من اللبد ، ما يلبسه النازي من كسوة رشيقة ؟

وجاء مسلك الجندي الروسيّ مناقضاً لمنطق العقل التيوتوني ، ولم يزل يثير حنق الجنس الألماني « سيد الأجناس » سنتين

كاملتين . ولقد حدث فى يونية سنة ١٩٤١ أن وقع فى الشرك جيش روسى ، فانقطعت به الأسباب ما بين مدينتى بياليستوك ومنسك وأبيد عن آخره ، فهل سرت من ذلك هزة سرور فى صفوف الألمان ؟ حسبك أن تقرأ ما كتبه فى ذلك الحين علم من أعلام المعقبين الحربيين هو الكولونيل سولدان ، قال :

« إن الفرق بين الروسى فى موقعة تاننبرج سنة ١٩١٤ ، وبين الروسى فى موقعة بياليستوك ومنسك عام سنة ١٩٤١ ، هو أن الأول سلم حين حوصر ، وأما الثانى فقاتل إلى النهاية الفاجعة . والأمر على غير ما عهدنا فى معارك بولندا وفرنسا . فالروسى فى أحرج المواقف التى لا ترى فيها بارقة من أمل ، تراه يزحف زحفاً لقتالنا . وليس بين الروس إلا عدد قليل لا يعتد به يطرح السلاح ويسلم تسليم المقاتل الكريم العاقل ، أما السواد الأعظم منهم فيؤثرون القتال حتى النهاية » .

كذلك عرض الكولونيل سولدان على قرائه ما رآه بفكره الثاقب من مزايا قيادة العدو فقال :

« والروسيون أول من لمسوا الحقيقة التالية وذكروها فى كتبهم ، وهى أن التطور الحديث جعل من الممكن أن تعود مرة أخرى معارك الإبادة والفناء التى دارت عامى ١٩١٤ ، ١٩١٥ . فبينما نرى الفرنسيين والإنجليز مستمسكين بنظرية الدفاع ، نرى الروس مؤمنين أشد الإيمان بقوة الهجوم . وهذا هو السبب فى أننا قد لاقينا هنا ، فى الميدان الشرقى ، عدواً له ما لنا من المبادىء والتدريب والعدة » .

وقد ورد تقدير ألمانى آخر للمقاتل السوفيتى موجز العبارة فى أحد كتب التدريب الرسمية : « ينتفع الروسى أتم انتفاع بما أوتيه ، من إدراك عجيب لاتجاه المواقع ، ومن إتقان لفن الإخفاء والتعمية ، ومن صدق الرغبة فى الالتحام بالعدو . وكثيراً ما يترك الروس وراءهم رقباء يتخذون مكانهم فى الأشجار فى حذق ومهارة ، ليرشدوا المدفعية بواسطة آلاتهم اللاسلكية إلى المواضع التى يصبون عليها نارهم وإن تعرضوا هم أنفسهم لهذه النار » .

ويفخر الألمان بأنهم « جند من حديد » . ولكن كثيراً ما يجد « الرجل الحديدى » نفسه ، ينظر نظر المعجب المغيظ إلى الحديد نفسه مصبوباً فى تجاليد الجندى الروسى . ومن ذلك ما يقوله الجاويش الألمانى الذى يوافى صحيفة « أنجاين تسيتونج » الألمانية بصورة موجزة عن الحياة فى الميدان الشتوى المتجمد :

« ترى الدبابات المحترقة المهجورة مبعثرة فى الأرض الحرام بين معسكرى الفريقين ، ولكنها لا تخلو من المتصيدين الروس بمناظيرهم المقربة ، وبنادقهم مسددة على أكتافهم ، متربصين يرقبون من يظهر منا ليل نهار . وثمة يقبعون وينتظرون ، فى عناد وفى جلد لم يظفر بمثلهما أحد غير الروسى وجيوبهم مملوءة بالحبوب يقتاتون بها . وقد تقع لهم بين الحين والحين زجاجة من الفودكا . وإلى جانب كل واحد منهم كيس من الذخيرة . وعلى هذه الحال يظلون فى أماكنهم منتظرين ، معزولين لا عون لهم — ولكنهم مع ذلك خطر محقق مبين — متحصنين فى الدبابات وراء بوصتين من الصلب ، فى تلك المنطقة الحرام » .

وقد أخذ كاتب عسكرى آخر على نفسه شرح الأمر فى المجلة الحربية الألمانية «ملتار وشنبلاط » فخرج من بحثه إلى أن الروسى ليس إنساناً كباقى الناس ، بل هو : « شىء طارىء على عالمنا من خارجه » ، وهو : « ذو غريزة حيوانية قوية متأصلة ، تجعله لا يحس الزمهرير ، ولا تلين قناته الشدائد ولا يعصف بصبره الألم » ، وإلا : « فكيف كان منه هذا الهجوم على الدوام ، مهما تكن كفته مرجوحة وظروفه غير مواتية ؟ » أما الألمانى العاقل فلا يعرف الهجوم إلا أن تكون معه قوات زاخرة تسنده .

وحب الجندى السوفيتى للكدح ، وانكبابه على العمل ، شوكة أخرى فى جنب الألمانى . فهو لا يكتفى بما فرض عليه بل ينطلق يبحث عن عمل يعمله . فقد يذهب ليشق طريقاً فى موضع من المواضع لا ينتظر أن يقع فيه عمل حربى فى القريب العاجل ، فى حين أن الجند النازيين « إذا تراخت المعركة وفترت حدتها ، كانوا أميل إلى الكسل » .

ولقد كتب جندى ألمانى من ميدان القتال يشبه الروسى « بحيوان لا يعرف له اسم ، فى أمريكا الجنوبية ، يستطيع أن يحفر فى طرفة عين نفقاً فى جوف الأرض الصلبة يحتمى به . والروسى مثله فهو يفوقنا فى حفر الخنادق التى يتحصن بها » .

ولقد أظهر الروسى تفنناً لا يسر الألمان. فقد ابتكر ما يسمونه « ككوكتيل مولوتوف» ، وهو جهاز يتألف من زجاجة فارغة من زجاجات الفودكا ، فيها البترول المكرر يستصفيه من الدبابات المعطلة ويصبه على ألياف القطن من بطانة كسوته ، فكان هذا الجهاز قذيفة شديدة الفعل تضرم النار فى دبابات العدو وسياراته . وقد كتب أحد المعقبين من النازيين يحث زملاءه : « أن يظلوا متنبهين متحفزين — وإلا فليوطنوا

أنفسهم على موت داهم ، فالروسى حرىّ بأن يظهر فى أى مكان ، وكأنما يتولد من الهباء ورقيق الهواء » .

وأبلغ شاهد على ما يختص به الروسى من الصبر الذى لا ينفد والإقدام العجيب النادر ، ما وقع عند الاستيلاء على بلدة فى أثناء الهجوم المضاد فى شتاء عام ١٩٤١ فقد ظل المشاة الروس عدة ليال متتاليات — وهم فى ثياب بيض وأسلحتهم ملففة بالبياض — يزحفون إلى الأمام فى سهل واسع أجرد لا شجر فيه ، تغطيه الثلوج ، وتتناثر فيه نقط سود هى مراكز الألمان الأمامية . وكانوا قبل بزوغ الفجر من كل يوم يمسحون آثارهم على الثلج ، ثم يقبعون فيه مختبئين ، ويستقرون بلا حراك سحابة النهار كله ، وهم تحت عيون الرقباء الألمان . فإذا خيم الليل استأنفوا دبيبهم الخفى البطىء إلى البلدة المقصودة . وفى آخر الأمر شارفوا المكان ، فهجموا هجمتهم عند انبثاق الفجر ، وكانت المفاجأة تامة وتلقى الألمان مرة أخرى درساً قاسياً .

ولقد لخص الكابتن شوت أحد ضباط الجيش الألمانى هذه المزايا التى يتصف بها المقاتل الروسى فى التعاليم التالية التى نشرها أخيراً فى « ملتار وشنبلاط » ، يخاطب بها « الجندى الذى يجب أن يخطئه الموت فى روسيا » . وهذا الخطاب ولا شك ثناء غير مقصود على الروسيين — قال الكابتن الألمانى :

« على الجندى فى الميدان الروسى أن يكون صياداً . فإن أعظم ما يمتاز به الروسى على الألمانى هو ما عنده من قوة السليقة وإلهام الغريزة ، ومن عدم تأثره بتقلبات الجو وأحوال الأرض . فينبغى لكل رجل أن يحسن كيف يخطو على حذر ، وكيف يدب دبيباً كما يفعل الصيادون .

« على الجندى فى الميدان الروسى أن يكون حاضر البديهة ، فالروسى أستاذ فى حضور بديهته ، فهو يقذف بالقنابل من الطائرات الشراعية ، ويحسن استخدام ما يغنمه من سلاح العدو فوراً من غير إبطاء . ولقد تلقينا عنه طريقة بناء المآوى المتنقلة لفصل الشتاء ، من رقائق ألواح الخشب ، وطريقة إنشاء الطرق فوق المستنقعات من جذوع الشجر .

« على الجندى فى الميدان الروسى أن يكون دائماً مستعداً للحركة ، فإنه لا يكاد يمضى يوم لا يحاول فيه الروس — ولو كانوا ضعافاً — أن يحملوا على صفوفنا . وهم يعملون يوماً بعد يوم على تحسين مواقفهم .

« على الجندى فى الميدان الروسى أن يكون يقظان ساهراً فالروسى يهجم فى أثناء

الليل وفى أثناء الضباب . وينبغى لمن كان فى جبهة القتال أن يقوم الليل ويستريح فى النهار ، ولكنه لا يكاد يكون ثمة فرق فى روسيا بين رجال المقدمة ورجال المؤخرة . وكل من بدا له أن يضع سلاحه ساعة فى هذا الميدان الشرقى، فما وراء حدود الريخ فقد لا تمضى عليه لحظة حتى يندم ولات ساعة مندم .

« على الجندى فى الميدان الروسى أن يكون جليداً صبوراً . فالرجال حق الرجال هم المطلوبون للقتال فى درجة ٤٠ تحت الصفر، أو أشد حرارة فى الصيف ، أو فى أوحال تبلغ الركب ، أو فى التراب السافى الكثيف. وكثيراً ما يكون لضحايا الهجمات الروسية منظر رهيب ، فيجب على الجندى الشاب أن يألفها رابط الجأش . إن أقران الروس فى الحرب هم الرجال الذين لا يفقدون رباطة جأشهم فى حومة الموت » .

هذه صورة الجندى الروسى قد صورها أحق الناس بمعرفته — ونعنى بهم أعداؤه . فهو صلب العود مقدام ، واسع الحيلة ، شجاع ثابت العزم . لقد وصف الروائى الإنجليزى والتر سكوت فى مارميون « ذلك الفرح الشديد الذى يشعر به المقاتل حين يجد خصمه أهلا لمقاتلته » . ولكن شعور الألمان بأدنى فرح من هذا القبيل أمر مشكوك فيه ، والأقرب إلى الواقع أن يكون شعورهم شعور القابض على ذيل النمر !

حياة الفنان

شوهد ثورفولدسون المثال الدانماركى وهو ينتحب أمام آخر تمثال له ، فسئل لم ينتحب ؟ ألم يرضه التمثال ؟ فأجاب إنه لم يجد عيباً فيه فأدرك أن الضعف أخذ يتطرق إلى مخيلته (جون أومان)

كلاهما واثق ولكن . . .

عند ما يقول الزوج : « إننى أثق بزوجتى » ، فهو يعنى أنه يثق بها .
وعند ما تقول الزوجة : « إننى أثق بزوجى » فهى تعنى أنها واثقة بنفسها .
(فرنسيس ده كرواسه)

إن بدت الأحلام سخيفة مسرفة في الخيال ، فإنها تؤدى لنا خدمة مفيدة

الأحلام: حماة النوم

لويس ماتوكس ميلر

ملخصة عن مجلة « يور لايف »

تعد الأحلام من أعجب ما يقع لنا في حياتنا . وقد نسجت أخبارها في آداب جميع اللغات ودخلت في تواريخ جميع الشعوب . و « كتب الأحلام » التي تروم أن تفسرها تباع كل سنة بالملايين .

فما هي تلك الرؤى التي تخلو في كثير من الأحيان من المنطق والمعنى ، والتي تتراكض في رءوسنا وقت النوم ؟ أهي مخلفات عقل نشيط خالية من المعنى أم هي تقوم على تحقيق غاية نافعة ؟

لقد وجهت هذه الأسئلة وغيرها إلى أطباء النفس المعروفين . وكل باحث كبير في مسائل العقل البشري قد أرصد جهداً عظيما لبحث مشكلة الأحلام . وفي وسع العلماء الآن أن يوضحوا من بعض غوامضها ما يبدد حيرتنا .

وهم يقولون إنه ليس للأحلام علاقة ما بالمستقبل ، لأنها ثمرة الماضي والحاضر . وهي على الرغم من مظهرها المضطرب تسير على نظام ، وتتبع نماذج معينة ، وبعضها نماذج يشترك فيها البشر جميعاً . لأن الحلم وظيفة أصلية من وظائف العقل ، وله غاية مفيدة . فالأحلام حماة النوم .

وقد يدهش هذا الرأي جمهور الناس الذين يميلون إلى اعتبار الأحلام مزعجة للنوم . وقد انقضت أربعون سنة منذ ذهب فرويد أولا إلى أن الأحلام تحمى النوم ، فلم يقبل العلماء على الأخذ به إلا رويداً رويداً . ومعظم الأطباء يسلمون الآن بأنه مذهب سليم من الناحية الطبية .

والنوم ضروري للجسم البشري السليم كالطعام والشراب . فخلايا جسمك تدخر — خلال نومك — طاقة من النشاط تهيئك لتحمل العناء في اليوم التالي . ولو لم يكن العقل الواعي العامل المتحفز الحافل بالآمال والهموم — ينام هو أيضاً ، لكان استجمام النشاط بالنوم عملا مستحيلا .

ولكن هذا العقل الواعي ما هو إلا جزء من العقل البشري . أما سائره فهو العقل الباطن ، مستودع التجارب « المنسية » . وهذه الذكريات الغامضة المختبئة قد تحدث رجعاً في النفس له من السيطرة ما لشواغل

النهار الذى لم يكد ينقضى . ولو أتيح لهذه الذكريات طريق تنفذ منه إلى العقل لأيقظتنا . ولذلك تزودنا الطبيعة بما يحمينا منها . وهو الحلم الذى يحرص على إخفاء معالم محتويات هذا العقل الباطن ، فيجعل عناصر الحلم أقل ما تكون إزعاجاً للنوم . وعند ما نستيقظ ونتذكر ما حلمنا نجد فى الأغلب أن هذه الأحلام سخيفة أو مسرفة فى الخيال .

إن علم النفس يقرر أن للأحلام ثلاثة دوافع . أما أولها : فهو « المنبهات » التى تصل إلى حواسك النائمة من خارج العقل ، من شئ يحدث فى الغرفة أو شىء يزعج الجسم . أما الدافع الثانى فهو « مخلفات النهار » ، أى ما قرب عهدك به من الأفكار والهموم التى تتلكأ فى مكانها من العقل ، بعد أن تأخذك سنة من النوم . أما الدافع الثالث : فهو تلك « الاختبارات المنسية » ، والرغبات التى تنبعث من العقل الباطن .

فالأحلام التى تحدثها المنبهات الخارجية توضح لنا وظيفة الحلم فى حماية النوم من الإزعاج . فهناك مثلا « حلم العطش » ، وهو حلم مألوف لروّاد الصحارى ، فهو خليق أن يطوف بأى إنسان تقريباً . امتنع عن الشرب مدة قبل أن تأوى إلى فراشك ، وكل طعاماً مالحاً . فسيبلغ منك العطش أثناء النوم مبلغاً يجعل نومك عرضة للقلق . وعندئذ قد تحلم بأنك تعبّ الماء عبًّا ، وكأن الحلم يقول لك : « أنت عطشان . لا . لا . كيف تعطش مع كل هذا الماء ؟ » وبعدئذ تنام هانئاً بنومك ، إلا أن يلح عليك العطش حتى يعجز الحلم بعد ذلك عن حمايتك من إزعاجه .

وفى حلم « الساعة المنبهة » تجد صلصلة الساعة قد نسجت ببراعة فى قصة تسكن النفس إليها . إن ما تسمعه ليس ساعة منبهة تقول لك : استيقظ . كلا . بل أنت فى فناء كنيسة ونواقيسها تقرع ، أو أنت تزور مكتباً فيه تليفون يدق . وذلك أن الحلم ، حين يوجد ما ينبهه ، يعمد إلى ما تراكم من الحوادث التى مرت بك فى حياتك ، فيستمد منها العناصر ليكتب القصة ، ويعد المسرح ، ويهيئ الممثلين . وأخيراً تستيقظ فى أكثر الأحوال بعد أن يعجز الحلم عن حماية نومك ، ولكنه مع ذلك قد بذل غاية جهده . وقد يغلبك النوم — بعد هذه اليقظة — فتعود وتحلم أنك فى مقر عملك وقد تعود إلى النوم .

وقد دوّن الدكتور ألفريد مورى العالم الفرنسى عدداً كبيراً من الأحلام التى أحدثتها منبهات مفتعلة . فكان أحد مساعديه يأتى ، ليلة بعد ليلة ، فيوجه إليه وهو نائم منبهات حسية مختلفة . فإذا استيقظ

دوّن صفة أحلامه ، قبل أن يعرف نوع المنبه الذى وجه إليه . فإذا قرب إلى أذنه طنين خفيف بات يحلم أنه يسمع قرع النواقيس . أما بخار الكبريت من عود الثقاب فيجعله يحلم باشتعال النار . وأما الضوء الملون ، إذا لوّح به أمام عينيه ، فهو يرمى به فى عاصفة تلمع فيها البروق . ولكنه فى جميع تلك الليالى كان يظلّ مستغرقاً فى نومه ، أى أن الأحلام قد أدت وظيفتها .

أما أحلام « مخلفات النهار » فهى تنزع غالباً إلى حوادث اليوم السابق التى لم تتحقق فيها رغباتنا . مثال ذلك : أن صبية ركبت قارباً للنزهة فى حديقة ، فلما جاء أوان العودة إلى المنزل ، أبت وأرادت أن تبقى فى القارب . ففى تلك الليلة كان لها ما أرادت ، ولكن فى الحلم . وذلك أن رغبتها فى استمرار لهوها ظلت قوية ، حتى أنها كانت خليقة أن توقظها من نومها ، لولا أن الحلم صانها وحماها .

وشبيه بذلك رجل نشيط حبسه المرض فى مستشفى ، فظل طول نهاره يتحرق غيظاً لهذه البلادة الإجبارية ، فصار يريد أن ينهض ويعمل ، وبات تلك الليلة يريد ذلك وهو فى نومه ، ولذلك هيأ له الحلم نزهة طويلة بهيجة . فسار أميالا يعلو وينحدر على ضفة النهر ، ويستكشف مسالك فاتنة على طول الطريق .

وهذا مراجع حساباتك الجديد الصلف المتبجح ، قد ملأ عليك مكتبك ضجيجاً من أجل بعض حساباتك ، ولم تزل طول ليلتك متبرماً به حتى اجتاح راحة نفسك . فلذلك يعود بك الحلم إلى مكتبك ، وإذا الكاتب هناك أيضاً ، وإذا على رأسه قبعة غريبة كأنها قبعة أبله ، وقد ارتدى ملابس صبى صغير بحار ، وركب عجلة طفل وهو يحرك (بدالها) برجليه . فيقول لك الحلم : « لماذا ! إن هو إلا مهرج سخيف قليل العقل ، فلم تكترث بما يقول ؟ امض فى نومك ولا تبال به » .

أما الأحلام التى تنشأ خواطرها المقلقة للنوم من العقل الباطن ، فهى تتغلغل إلى أعماق الزوايا الخفية فى العقل . فهل تذكر مثلا « حلم الطيران ؟ » فقد طرت فوق رءوس الجمهور ، ودنوت فى طيرانك من سطوح المنازل وقمم التلال ، وسرت فى الجو سعيداً لا يعوقك شىء . إنك فى حلمك هذا تعبر عن رغبتنا المشتركة فى أن نظفر بالقدرة على قهر المصاعب والعقبات .

بل لقد وجد الأطباء أن الأحلام التى لا تسر ، كثيراً ما تقوم بحماية النوم قيام الأحلام التى تسر وكل الناس — مثلا — يعرف « حلم الامتحان » . فقد رجعت ثانية إلى الكلية أو المدرسة ، ويجرى الامتحان فى مادة أتقنت دراستها ولكنك

لا تتذكر الإجابة الصحيحة عن أى سؤال فيها . وهذا الحلم قد أثاره القلق على مشكلة ما يجب عليك أن تواجهها . وهذه هى طريقة العقل فى تذكيرك بمشكلة أخرى قد حلت حلا موفقاً . وكان الحلم يقول لك : « تلك مشكلة قد صح لك حلها ، وستحل هذه كذلك ، فلا تقلق » .

وقد يكون الدافع إلى حلم السقوط دافعاً جسمياً أو عاطفياً . ويعتقد كثير من علماء النفس أن تذكر خوف السقوط من مكانتنا الاجتماعية له بعض الأثر فى هذه الأحلام ، أو أن أجهزة الدماغ المحكمة ربما كانت قد سجلت اختلالا فى مضجع الجسم على الفراش .

ألم تحلم مرة بأنك فى مكان عام وأنت عريان ، أو لم تتم ارتداء ملابسك بعد ، فيعصف بك الخجل مما تورطت فيه ، ولكن يلوح لك أنه ما من أحد يلاحظ ما أنت فيه غيرك ؟ ويظن بعض الباحثين أن طرح الغطاء عن الجسم فى النوم قد يؤدى إلى هذا الحلم ، ويعزوه آخرون إلى الرغبة العامة فى التحرر من العرف .

أما بعض « أحلام المستقبل » التى تصدق نبوءتها ، والتى يرويها قوم لا ريب فى صدقهم ، فيفسرها علماء النفس ، بأنها مصادفة واتفاق . وأما البعض الآخر فيفسر على أنه خدعة من خدع العقل الباطن .

وقد رأى طبيب فى نومه — وكان يهوى جمع بيض الطيور — أنه كان سائراً فى طريق مألوف له ، فاعترضته شجرة فعثر فيها على عش مملوء بيضاً ملوناً جميل الألوان . فذهب فى الصباح التالى ليبحث عنه ، فوجد البيض فى عشه على الشجرة . ولكن الطبيب لم يعد هذا الحلم نبوءة عن المستقبل ، بل فسره فقال : لم ألاحظ أنا هذا العش من قبل،لأن عقلى كان مشغولا بأفكار أخرى، وإنما لاحظه الجزء غير الواعى من عقلى ، وأبلغنى ذلك فى أول فرصة » .

ويذهب الدكتور مورى إلى أن الحلم الطويل المفصل قد لا يستغرق إلا بضع ثوان، ولكن من الباحثين من يعتقد أن ذلك يتوقف على الحالم نفسه . فالدكتور بلايفير الطبيب النفسى فى مستشفى سان بارتلوميو فى لندن يقول : « إذا كان خيالك خيالا حياً سريعاً فحلمك كذلك يستغرق زمناً نسبياً قصيراً . وإذا كنت مفكراً بطيئاً مرتباً كان زمنه أطول » .

يقول العالم النفسى: ليس لنا سلطان ذهنى على أحلامنا . وإذا شككت فى هذا فحاول أن تطبع ذهنك بالأشياء التى تريد أن تحلم بها ، واعزم على أن تستيقظ إذا لم يأت الحلم وفقاً لنيتك . ولو حاولت ذلك لأخفقت فى

الحالين ، ولذلك فنحن غير مسئولين عن أحلامنا على أى وجه . أما أصحاب النفوس المطهرة الذين تسوءهم الأمور الجنسية ، والخطيئات التى تتمثل فى أحلامهم ، فعليهم أن يذكروا أن القديس أوغسطين حمد الله على أن لم يجعله مسئولا عما يرتكب فى أحلامه . وكل إنسان قد ورث فى نفسه شهوات ودوافع يجب أن تكبح ، فلما حبست خارج العقل الواعى تسللت لتظهر فى الأحلام . ويحيلنا الأطباء على كلمة أفلاطون وهى: أن الرجل الفاضل يقنع بأن يحلم فى نومه بما يفعله الشرير فى اليقظة .

وعندما يكون عامل إزعاج النوم أقوى من الحلم ، فقد يبلغ الحلم مبلغاً عظيما من العنف والذعر ، فيستيقظ النائم وقد اعتراه العرق البارد ، وقلبه يدق . ويكره الأطباء أن يصدروا أحكاماً عامة فى سبب هذه الكوابيس . فقد تنشأ عن اختلال فى الهضم أو اضطراب فى العواطف ، أو عن عادات سيئة فى طريقة النوم . فالنوم على الظهر مثلا مع الغطاء الثقيل على الصدر ، قد يجلب الكابوس . والكتب الطبية لا تكاد تشبع تطلع الجماهير فى أمر الأحلام ولذلك يتساءل الناس : « لماذا يحيط الأطباء تحليل الأحلام بستر فى الخفاء ؟ » .

والجواب على هذا أن الدراسة العلمية للأحلام معقدة جداً ، وهى من شأن الخبير المتخصص . وما يعنى به الطبيب ليس تفسير الحلم بل ما وراء هذا الحلم من أفكار . وكثير من العلماء النفسيين المحدثين يتوسلون بأحلام ضعاف العقل ، فيتلمسون منها طريقهم إلى الذكريات الدفينة ، ليعرفوا السبب الأول للمرض .

والأحلام فى نظر الرجل العادى أعمال طبيعية مثل الأكل والتنفس والنوم . وقد قال أحد الأطباء : « مهما يكن الحلم الذى رأيت ، ومهما يكن الرجع الذى حدث لك فى اليقظة من أثر هذا الحلم ، فاسأل نفسك : هل نمت واسترحت ؟ فإذا كنت قد نمت فقد أدى الحلم وظيفته . وإذن فانس الحلم » .

والمألوف أن يقال عند الفراق قبل النوم : « لتكن أحلامك سعيدة » ، ولكن علم النفس الحديث يجعلها : « لتكن أحلامك موفقة » ، فالأحلام الموفقة هى التى تتيح لنا النوم الهادئ المريح ، وهذا هو كل ما نريد .

تراب المعادن يخوض الحرب

روبرت ماركس وهارلند منشستر

ملخصة من مجلة « فوربس »

هل هناك ما هو أعجبُ ، أو أمتعُ من كومة من تراب دقيق خفيف تكاد العطسة تطيره ، تراه بعينيك تراباً فإذا هو يتحول إلى قطع جامدة صلبة من آلة ؟

فى مصانع كريزلر الشهيرة ، قسم يدعى قسم تراب المعادن . وعلى رأسه مدير هو أندرو لنجهاس . زُرته ، فرفع لى قطعة من مدفع ، ثم قال : « انظر إلى هذه . إنها قطعة من مدفع كانت تؤرّق ليل الصانع لما يلقاه من العنت فى صنعها ، وكان يقضى فى تشكيلها على حذقه ساعتين ، أما اليوم فلا يستغرق غير ثوان . وقد أصبح ضغط أمثال هذه القطعة من تراب المعادن يوفر علينا — فى صنع حاملة المدفع — مجهود ٢٤٠ رجلا فى ساعة . ومع ذلك لا يقع هذا الاقتصاد على حساب الجودة ، فنحن نصل بهذه الطريقة إلى ضبط المقاييس إلى جزء من ألف من البوصة » .

ليست هذه الصناعة بالجديدة ، ولكن تقدمها — منذ بدأت هذه الحرب — يعد معجزة ميكانيكية . وليس فى أسسها شىء عويص ، فكل ما فيها أن معدنين أو أكثر يخلط تراباهما ، ثم يصب الخليط فى قالب ، ثم فى سرعة يهبط عليه مكبس يضغط ما فيه بقوة قد تبلغ عشرين طناً . فينتج عن هذا قالب من المعدن يوصف عندئذ « بالنيء » . وتظهر هذه القوالب المعدنية « النيئة » كأنها صلبة ، ولكنها فى الواقع هشة تتفتت ، لو أنت ضغطتها بين أصابعك . فإذا خبزت فى أفران ، درجة حرارتها دون متوسط درجة انصهار الخليط ، انقلبت صلبة . وهذه التقوية بالكبس والحرارة عملية تفسيرها لا يتفق عليه اثنان . فبعض الخبراء يقول إن الضغط والحرارة يجعلان سطوح ذرات التراب المعدنى يلتصق بعضها ببعض . ويقول آخرون : بما أن أحد هذه العناصر المعدنية يسرع إلى الانصهار قبل غيره ، فهو يهيىء للخليط مادة لزجة تشد ذراته بعضها إلى بعض . ومهما يختلف تفسيرهم فإنهم جميعاً يتفقون على أن المواد تدخل الفرن ضعيفة ، ثم تخرج متماسكة قوية .

وقبل موقعة ميناء پيرل ، كانت قطع الآلات التى تصنع من تراب المعادن ، أجزاء صغيرة الحجم بسيطة الشكل فى الغالب ، حتى سماها المهندسون « حبوباً » . فقد كان المعتقد أنه من غير الممكن صناعة قطع

تزيد وزنها على ثلاثة أرطال ، أو يخرج شكلها عن تلك البساطة المعهودة .

ثم كان أن تطلبت الحرب الميكانيكية الحاضرة ، السرعة فى إنتاج قطع معدنية للآلات ، على آلاف مؤلفة من الأشكال والأحجام ، فلبت هذه الصناعة بكفاية ، تلك المطالب . واليوم نجد الطائرات والسفن والدبابات والعربات وحوامل المدافع والراديو والقاطرات فى أمريكا تستخدم ألوفاً من قطع الآلات المصنوعة من تراب المعادن . وأصغر قطعة منها تزن جزءاً من عشرين من الأوقية ، وأكبر قطعة أخرجت إلى اليوم كرة لمحور دبابة ، وهى تزن ٦٥ رطلا . وفى العام الذى مضى ، وفرت هذه الصناعة من مجهود الرجال مايساوى مجهود ٢١٠٠٠٠٠٠ رجل فى ساعة ، فى إنتاج سلاح واحد . فلو حسبنا قيمة ما توفره من الوقت ، لأفضى بنا حسابها إلى أعداد لا نهاية لها .

وقطع الآلات التى لا سبيل إلى صنعها بغير هذه الطريقة هى التى تصنع من تراب المعادن . ومن الأمثلة الرائعة كرات محور العجلة التى تزيت نفسها بنفسها ، فهى تمتص الزيت كما يمتص الاسفنج الماء ثم تخرجه شيئاً فشيئاً طول بقائها ، وكثيراً ما يكون بقاؤها أطول من بقاء الآلة نفسها . أما كيف تصبح كرة المحور ذات مسام تمتص ، فذلك بأن تضاف إلى تراب المعادن مادة سهلة التطاير . فإذا خبزت ، تطايرت من الحرارة وتركت موضعها فارغاً ، فتتكوّن شبكة من أنابيب دقيقة تمتص من الزيت مايبلغ ٣٥ فى المائة من حجم القطعة نفسها .

وإذا أنت وضعت قطعة من هذا المعدن بعد امتصاصه الزيت ، بين فكى منجلة وضغطت عليها ، أفرزت قطرات دقيقة من الزيت من مسامها . فإذا أنت فككت المنجلة وارتفع الضغط ، امتص المعدن تلك القطرات . وهكذا تعمل كرات المحور التى تزيت نفسها بنفسها فى الدبابة . فكلما زاد جهد الدبابة زاد إفراز الزيت من كرات المحور ، فإذا توقفت الدبابة امتصت الكرات الزيت ثانية ، وهذا النوع يخفف عن جنود المدفعية كثيراً من متاعب التزييت .

وفى الأقطار التى تنزل درجة الحرارة تحت الصفر لا يتجمد زيت هذا النوع ، كما يتجمد زيت النوع الآخر الذى يتولى الجنود تزييته . وفى الصحراء المتوقدة لا يسيل زيتها فيضيع سدى . وهكذا لا يقتصر توفيرها للزمن على الزمن فى المصانع ، بل يتعداه إلى زمن المحاربين فى الميدان ، حيث التأخر معناه أرواح ضائعة .

وقد ظفرت صناعة تراب المعادن بأروع انتصار ، إذ وقفت — منذ سنوات — إلى

عمل آلة قاطعة من كربيد التنجستون ، تقطع الفولاذ كما تقطع الجبن السكاكين . وتفسير هذا أن: « التنجستون» معدن من أصلب المعادن ، وهو مع ذلك من أهشها وأسرعها إلى التهشم، فلا يمكن صبه أو خرطه كما تصب وتخرط معادن أكثر منه ليناً ، ولكن يمكن سحقه ، وخلطه بمواد أخرى ، ثم كبسه فى الشكل المطلوب ، ثم خبزه . والنتيجة سكين قاطعة قد تسخن عند العمل فتبلغ سخونتها درجة ٣٠٠٠ من درجات فهرنهيت ، ومع هذا لا يتأثر حدها القاطع من ذلك أبداً . وقد خرطت إحدى الآلات القاطعة المصنوعة من « التنجستون » ، رءوس ١٫٠٠٠٫٠٠٠ من القنابل الثقيلة وشكلتها دون أن ينثلم حدها . وقد جاء فى تقرير أحد المهندسين : أن بعض الآلات القاطعة التى تدور بسرعة عظيمة ، ينثلم حدها الفولاذى القاطع بعد عمل ست ساعات ، فلما استبدل حدها بحد من كربيد التنجستون ، اشتغلت تسعين ساعة ولم تنثلم .

والمعادن التى لا يمكن اتحادها بالطرق العادية ، تعالج بأن تسحق ، ثم يخلط ترابها ثم تكبس ثم توضع فى الأفران ، فتتحد وتتآخى . وبهذه الطريقة يجمع مثلا بين معدنين لهما صفات مختارة ، ويزاوج بينهما فى سبيكة واحدة مزاوجة مصطنعة، تؤدى إلى الغرض المطلوب، وهو الجمع بين هذه الصفات المختارة فى كلتيهما . مثال ذلك أن النحاس موصل جيد للكهرباء ، ولكن عيبه أنه ينصهر فى درجة حرارة واطئة، والتنجستون يقاوم الحرارة فلا ينصهر إلا فى درجة حرارة عالية جداً . فمن البديهى الجمع بينهما والانتفاع بمزاياهما . ولكنك إذا مزجتهما بالنار ، انصهر النحاس وتبخر كله قبل أن يبلغ التنجستون درجة الانصهار . ولكنك إذا صيرتهما كليهما إلى تراب ثم خبزتهما معاً اتحدا اتحاداً سهلا . وقد نتج من اتحادهما اليوم معدن جديد يمتاز بأنه موصل جيد للحرارة، وأنه يحتمل الحرارة العالية للقوس الكهربائية التى تستخدم فى لحام المعادن .

ولا يزال المخترعون يخترعون كل يوم شيئاً جديداً يستخدم له تراب المعادن . من ذلك أن إرل پاتش ، بشركة جنرال موتورز دخل مصنعه يوماً وبيده كنكة قهوته ، واقترح على رجال الأبحاث فى المصنع أن يصنعوا لها مصفاة من معدن ذى مسام . فصنعوها على هذه الطريقة ، إلا أن ثفل البن دخل مسام المصفاة ، فانحبس فيها ، ثم تحلل ففسد . ولكن ما أسرع ما انتفع هؤلاء الرجال بالفكرة ، فقلبوا مصفاة القهوة إلى مصفاة زيت ، تصفى الزيت من وسخه فى محركات ديزل . وهو اختراع

يحمده رجال الدبابات حمـــداً كبيراً .

وخطر لشركة كبيرة تصنع الآلات الكاتبة ، أن المعدن ذا المسام إذا تشرّب الزيت ، فهو يتشرّب الحبر أيضاً ، فصنعوا آلة بغير شريط ، وجعلوا حروفها من برنز كثير المسام يمتص الحبر ، ويقال إن إشراب الحروف بالحبر مرة واحدة يكفيها لكتابة بضع مئات من ألوف الكلمات .

وصنع كريزلر غرابيل رفيعة الأسلاك من تراب النحاس . فجاء به فضغطه فى مكابس على الأشكال التى أرادها ثم خبزها ، فلم تعد له حاجة إلى نسج الأسلاك وأسلاكها لا ترتخى ولا تتفكك ، لأن نقط تقاطعها جميعاً ملتحمة ، وهى من أجل هذا تنفع كل النفع لأعمال المعامل الدقيقة .

ويتنبأ المهندسون بأن الأشياء المعدنية البسيطة على اختلافها ستصنع من تراب المعادن ، فتخبز كما تخبز الفطائر . فالذهب والبلاتين ، والفضة ، يمكن خلطها بمعادن أصلب منها ، فتصاغ منها دفعة واحدة مقادير كبيرة من الحلى تكون أبقى على الزمن ، وقد تحتاج إلى صقل قليل بعد خروجها من الفرن ، وقد لا تحتاج إليه البتة .

وتراب المعادن أغلى ثمناً من المعادن نفسها ، لما يتكلفه سحقها وتحويلها إلى تراب . والطريقة التى تحول بها المعادن السريعة الانصهار إلى تراب ، هى أن يسلط تيار قوى من منفاخ هوائى على سائلها النصهر ، فيتناثر ويصير ذرات معدنية . وأما المعادن الأخرى فتسحق تراباً بالتحليل الكهربائى .

على أن ما يتكلفه تحويل المعادن إلى تراب يقابله وفر يذهب بأكثر هذه الكلفة فإن الطريقة القائمة القديمة فى صناعة المعادن لا تزال تضيع ٥٠ إلى ٧٥ فى المائة من المعدن بين خراطة وبرادة . أما صناعة الأشياء من تراب المعادن فلا يضيع معها شىء . وعدا هذا فهى صناعة أكثر عملها بالآلات ، فحاجتها قليلة إلى الرجال ، ويكفى فيها الرجل ذو الحذق المتوسط .

وتتناول هذه الصناعة ثمانية وعشرين معدناً ، كلها تحول إلى تراب ، ثم تمزج على مقادير مختلفة كثيرة ، ويصنع من أخلاطها عشرات الألوف من الأشياء . ويقول الخبراء إن ما تم منها ليس إلا بداية . وتدل البشائر على أنه سيكون فى قدرتها أن تخرج كل شىء من هذه الأتربة : من قطع الساعات الصغيرة إلى عجلات القاطرات الكبيرة ، مع سرعة واقتصاد لم يعهدا من قبل .

معقل للانسانية فى قلب أفريقية

بن لوسيان برمان

أما اسمه الحقيقى فلا أستطيع ذكره ، ولنكتف بأن ندعوه « مسيو روك » إلى أن تضع الحرب أوزارها

التقيت به لأول مرة فى أعالى نهر بالغابة الكبرى التى تكون الجزء الجنوبى من أفريقية الفرنسية الحرة ، وهى من أخوف بقاع أفريقية وأشدها وحشة : مستنقع مترامى الأطراف ملىء بذباب « تسى تسى » الذى يحمل معه مرض النوم ، وهو يزخر أيضاً بالبعوض والملاريا الخبيثة ، إنها بقعة عرفت لعدة سنوات خلت ، بمقبرة الرجل الأبيض .

في هذه المستنقعات الخبيثة انساب نحونا ذات يوم قارب طويل يحمل مسيو روك ، ويتولى تسييره عشرة من الأهالى السود طوال القامة ، يحركون بمهارة مجاديفهم الطويلة ، ويترنمون بألحان حزينة . ولما دنا القارب تبين الرجل الأبيض جماعة من السود كانوا واقفين على الشاطىء أمام أكواخهم ، فهرعوا لاستقباله مهللين لمقدمه ، وأخذوا فى نقل الحقائب والصناديق التى كان القارب محملا بها إلى الشاطىء .



« أحد أولئك الأبطال الذين يقبلون على الأخطار المخوفة ، فيقتحمونها وهم متوحدون منصورون ، ليستطيع العالم أن يخطو بضع خطوات متعثرة إلى الأمام فى طريقه الوعر الطويل »

ولقد شعرت فى الحال بما يجذبنى إلى ذلك الرجل الذى أثار مقدمه تلك المظاهرة . كان يبدو فى قسمات وجهه نبل وحصافة وقوة فريدة فى بابها . كان له وجه شاعر ، وعيون متصوف ، وبنية رجل من رجال الحدود الأشداء . وكان يسير فى إثره شخص ضئيل الجسم ، يثير الضحك بهذه

البزة الحمراء الزرقاء التى يرتديهـا جنود المستعمرات الفرنسية ، وكان هذا أول قزم أفريقى وقعت عليه عيناى .

وبينما كان قائد السفينة يقـدمنى إلى المسيو روك ، انحدر إلينا من القرية جماعة من الأولاد والبنات السود ، وأحاطوا به وتطلعوا إليـه بعيون تفيض حباً وإعجاباً ، وأخذوا يتكلمون جميعا بأصوات مرتفعة يهزها الانفعال .

وقال لى مسـيو روك : « هؤلاء أولادى » . ولما رأى أنى أخـذت بعض الشىء أضاف : إنهم أولادى قانوناً ، فلقد كنت أتـكفل بالصـداق للزوج الذى لا يستطيع إليه سبيلا ، وفى عرف هؤلاء أن مقـدم الصداق يعدّ والد أول طفل ، ويصبح الطفل ملك يمينه . فها أنت ترى أن لى منهم أسرة كبيرة » .

فلما انتهى قائد السفينة من تقديمى قال : « إن مسيو روك سيد هذه الأدغال التى يعيش فيها أقزام « البابنجا » . وكانوا قبل مقدمه يولون الأدبار إذا ما لمحوا رجلا من البيض ، كما كانت تفعـل الأمهـات وأطفالهن أيام النخاسة والنخاسين، أما اليوم فقد انقضى كل ذلك ، وأصبح مسيو روك ملـكهم » .

وقد سرد لى مسيو روك ، عصر ذلك اليوم ، الكثير عن نفسه . فقد وصلت إليه أخبار انهيـار فرنسا ، وهو فى معقله بين المستنقعات ، فاتخذ طريقه بين الأدغال وقطع مئات من الأميال إلى القيادة العـامة للفرنسيين المحاربين ، كى يستطيع أن يحمل السلاح ضد أعـداء بلاده . وقد اتفق أن التقينا أثناء رحلته هذه .

قال لى مسـيو روك فى بساطة : إنى أريد أن أشترك فى طرد الألمان من باريس . فقد كان يحب فرنسا حباً عميقاً ، ولما كان ماهراً فى الرماية ، كان قوى الأمل فى أن يحين الوقت الذى يستطيع فيه أن يسـدد سهامه إلى صدور من عاثوا فساداً فى بلاده المنـكوبة .

وسرنا بضعة أيام معاً فى الأدغال ، وحيثما ذهبنا سمعت العجب العجاب عن أعمـاله الفريدة بين الأقزام . وإنه لمن الغريب أن ترى القدر يخلق البأس الشديد ثم يوجد له فى اللحظة المواتيـة من يستطيع التغلب عليـه .

وليست الغابة عـدواً للرجل الأبيض فحسب ، بل هى عـدو للسود من سكانهـا أيضاً . فقد كانت الأوبئة تجتاح هذه المنطقة، وأشرف الأقزام على خطر الانقراض ، حين قدم مسـيو روك مبعوثاً من فرنسا بعيد الحرب الماضية ، للاشراف على صحة الأهالى

وقد حاول الأطباء الفرنسيون المرة تلو المرة أن يتصلوا بأولئك الأقزام ليوقفوا سير الوباء بينهم ، ولكنهم لم يتمكنوا حتى من رؤيتهم . ثم ظهر مسيو روك واتخذ له بادئ ذى بدء صحاباً من بين ذوى الأجسام الطبيعية من الأهالى ممن كان الأقزام يتجرون معهم ، واستقر رأيه على أن يكسب صداقة الأقزام بأن يكسب صداقة أطفالهم أولا . فشرع فيما عزم عليه ، واتخذ النقود الفرنسية البراقة ليعطف بها قاوبهم . وسار فى مسالك الغابات التى يرتادها الأقزام ، فإذا بصر بهم ، أخذ يقذف النقود البراقة فى الهواء أو يدحرجها على الأرض ، ثم يختفى فى جوف الغابة .

وبتلك الطريقة نصب شباك صداقته للأقزام . فقد ظهر بعدئذ قزم من أطفالهم ثم تلاه آخرون ، فالتقطوا النقود وأنعموا إليها النظر فى تشوف واستطلاع . فلما انهمكوا فى مناقشاتهم الصبيانية ، اقترب مسيو روك منهم فى هدوء ، فولى معظمهم الأدبار ، ولم يبق إلا قليل منهم كانوا أربط من رفقائهم جأشاً وأثبت جناناً . وأخذ مسيو روك يتحدث إليهم ، وكان قد ألم من قبل بشئ من لغتهم ، وجاءت أمهاتهم ، وكن يرقبنهم فى قلق من وراء الأشجار ، للاشتراك معهم . وفى خلال أيام معدودات كان مسيو روك قد تحدث إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، من أصغر طفل إلى أكبر رجل حكيم فيها .

ورغبة منه فى كسب ثقتهم اتخذ مقامه بينهم فى محلتهم ، وخرج إلى صيد الفيلة وهى غذاؤهم الرئيسى . وكان يتحدث بالليل إلى زعمائهم وإلى أطبائهم من السحرة ، ويستمع إلى أساطيرهم الخرافية . فلما مرّت أسابيع ، شرع يحدثهم عن الطب ، وينبئهم بخبر تلك الأفاعى الصغيرة (يعنى الديدان) التى تسرى فى دماء الناس ، وعما لديه من تعاويذ للقضاء عليها .

وبينما كان سحرتهم ينصتون إليه ، أخرج مسيو روك حقنة من جعبته ، وأنبأهم أنها تحتوى على تعويذة سحرية تقضى على هذه الأفاعى التى تسبب مرض النوم الطويل . ثم غرز إبرتها فى جسمه عدة مرات ليريهم أنها لا تضر شيئاً . فحملق زعماؤهم وسحرتهم مأخوذين مشدوهين . وسرعان ما اجتمع إليه كل مصاب بينهم بمرض النوم ، فحقنهم وبدأ التحسن على من لم يصل بهم المرض إلى دوره الأخير .

وسرى الخبر مسرى النار فى الغابة ، ولم يعد مسيو روك فى حاجة إلى البحث عن الأقزام بل كان الأقزام أنفسهم يلتمسونه أين كان . وأخذ مرض النوم يتقلص ظله عن تلك الناحية

وتتابعت الشهور ، فلم يكن مسيو روك صـديق الأقزام فحسب ، بل كاد يكون فى نظرهم إلهـاً . كان يقضى كثيراً من وقته متنقلا فى أنحاء الغابة ومعه مستحضراته الطبية وكان يقصد مع مجدّفيــه إلى قرية الأهالى أو إلى محلة الأقزام ويتخذ مقامه بينهم .

فإذا لم يصب بها كوخاً نظيفاً ، أقام له تابعوه سريره فى فضـاء القرية ، وغرسوا رماحهم كالعمد عند كل ركن منه ، ونشروا عليها الناموسية الواقية من البعوض ، وبغير هـــذه الناموسية تكون الحيـاة فى الغابة مستحيلة . وكان الزعمـاء يحملون إليــه الطعام ، فيسمر معهم حول النـار الموقدة إلى ساعة متأخرة من الليل ، يستمع إلى أقاصيصهم . ويروى لهم بدوره قصصاً عن فرنسا بلده النازح . وإذا دقت الطبول معلنة مقدمه هرع إليه الأقزام — ومن هم أطول منهم قامة — يلتمسون عنده البرء والشفاء فإذا فرغ من حقنهم استقل قاربه وانساب فى النهر إلى قرية أخرى .

وقد كانت له قوة عجيبــة حتى إنه ليبز أقوى رجل من الأهالى فى رفع القــارب وتسييره ، أو فى قطع الأشجار . ولا شك فى أن بنيته كانت من القوة بحيث استطاع أن يقاوم كل أوبئة المناطق الحارة ، ماعرف الطب منهـا وما لم يعرف . على حين كان غيره من البيض يؤوب إلى أوربا بعد سنة أو سنتين تنهشهم الحمى وتلهب أجسامهم ، أما مسيو روك فلم يكن مثلهم .

وعلى الرغم من قوته ، كان أودع الناس خلقاً . فلم يكن يرى القتـل مذهباً ، حتى فى هذه الغـابات المخوفة ، إلا إذا سدت فى وجهــه جميع السبل الأخرى . كنت معه عصر يوم فى الغـابة فحلقت فوق رءوسـنا جماعة من الوطاويط الأفريقيــة الـكبيرة الحجم التى يبلغ طول انتشار جناحيها خمسَ أقدام أو ستًّـا ، وكانت تنعب نعياً مزعجاً مروعاً . رأيتها بشعة الشكل مخيفة إلى حد كبير ، فتجهم وجه مسيو روك وبدا عليـه القلق والتفكير ثم قال : « كلما شاهدت أحد هذه الوطاويط وخزنى ضميرى . فقد خرجت للصيد يوماً مع الأقزام ، وأطلقت النار على فهـد كان يتعقب آثارنا ، فأصابت إحدى طلقاتى وطواطاً فوقع على الأرض . وكان حين أدركته لا يزال حياً يلفظ النفس الأخير . ولعلك تعلم أن هذه الوطاويط من الحيوانات الثديية ، فكان الوطواط المصاب أماً ترضع صغيراً لم يتجاوز من العمر أياماً . كان وجهها وهى تنظر إليه وجه آدمى يثير الرحمـة والرثاء . وكانت نظرتها هى تلك النظرة التى طالما رأيتها فى عيون الأمهات ، وهى فى النزع الأخير ، يودعن بها صغارهن .

ولقد جهدت أن أحفظ على الوطواط الصغير حياته بتغذيته بقطارة ، إلا أنه مات !

ومن ذلك اليوم لم يفارقنى شبح تلك النظرة التى ودعت بها تلك الأم صغيرها .

ورأيت مسيو روك لآخر مرة بعد أن بلغه أن السلطات التى طلب منها الإذن له فى الخدمة فى جبهة القتال ، قررت بالإجماع — على غير رغبة منها — أنها لا تستطيع الإذن له فى ذلك ، لأن رفاهية القبائل وأمنها من ألزم اللوازم فى زمن الحرب ، ولم يكن ثمة رجل آخر فى أفريقيا يقوم مقامه .

وكاد هذا القرار ينقض كل فلسفته فى الحياة ، وارتسمت سمات الحزن العميق على محياه ، وجعل يردد : « إنى أريد أن أذهب إلى لوبية لأقاتل الألمان . ماذا أستطيع أن أفعل هنا لإنقاذ فرنسا ؟ »

وقد تملكته الكآبة والحزن طيلة ذلك اليوم وأخيراً قال : « ليس ثمة فيما أعتقد شيء يمكننى أن أعمله إلا أن أعود إلى أعالى النهر » .

وأمر ، فشرع تابعوه فى تكديس الحقائب فى القارب ، وكانت تبدو على وجوههم — كما بدت على وجه سيدهم — سمات الهم والتفكير ، لما كان قد ذاع بينهم من أن ملكهم العظيم كان على وشك الرحيل إلى ساحة الحرب . أما وهو باق معهم ، فقد انطلقت حناجرهم بمرح الغناء وهم ينقلون أحمالهم الثقيلة من الشاطئ . وتهلل وجه الرجل الأبيض وهو يستمع إلى غنائهم .

وكان كل شيء معداً للرحيل ، حين جاءه يسعى على وجل واستحياء ، جمع من الأهالى ، بين رجال ونساء ، ممن أزمنت معهم الأمراض ، وكانوا قد سمعوا بوجوده فى الناحية .

وتقشعت عن وجهه آخر سحب الكآبة وتحدث إلى كل منهم كما يجب أن يفعل كل طبيب جدير بصناعته ، فتراه تارة يفيض شعوراً نحوهم ، وتارة يسألهم فى اهتمام عن مرضهم ، ولكنه فى الحالين مقبل عليهم مهتم بأمرهم يعطيهم مما فى جعبته من دواء وعلاج .

وانبسطت أساريره ، وتبلج وجهه ثم قال : « هؤلاء هم أولادى ! » ثم صعد فى النهر ، وظللت أرقبه حتى توارى .

لقد كان مسيو روك يمثل معقلا أمامياً من معاقل الإنسانية . وكان على تواضعه من أولئك الأبطال المغاوير الذين يقبلون على الأخطار المخوفة ، فيقتحمونها وهم متوحدون مغمورون ، ليستطيع العالم أن يخطو بضع خطوات متعثرة إلى الأمام فى طريقه الوعر الطويل .

هدية إلى حبيبين مفترقين

الكسندر ولكوت

هـذه قصة بحث عن هـدية عرس ، والباحث عنها رجل لم يزل يغار على الآداب القديمة التى تؤلف بين قلوب الأصـدقاء والجيران فيجتمعون ليعينوا زوجين شابين على تأثيث بيتهما الأول . وقد كنت منـذ سنين — فى مثل هذه المناسبة — أميِّل الرأى فى الاختيار بين إحدى هديتين : إما مجموعة من مؤلفات « جين أوستن » ، وإما مجموعة كاملة من مناشف الحمام النفيسة ، مطرزة بالحروف الأولى ، فإن لم يكن أصدقائى جميعاً يشاركوننى فى إيثارى لجين أوستن ، فجميعهم يستحم إلا قليلا لا يعبأ به !

ولكن هـذان زوجان ينطلقان فى طريق الحياة مفترقين لا مجتمعين . ولا محيص لى من أن أجد شـيئاً يصلح أن يكون أثاثاً لبيت زوجين صغيرين لن يكون لهما بيت ؛ زوجان صغيران متحابان قد فصـل البحر ما بينهما ، ولا أمل لأحـدهما فى أن يرى الآخر حتى تضع الحرب أوزارها .

كان بدء تعارفنا فى نوفمبر من السـنة الماضية ، وكنت أتأهب للسفر من انجلترا إلى بلادى (امريكا) . فقد كتب إلىّ أحد رجال الحرس الإرلندى رسالة ، وهو يطمع فى أن أتصل بالتليفون بفندق (كذا) — إذا ما وصلت إلى نيويورك — لأبلغ زوجته أنه بخير وعافيـة ، ثم يأذن لى فى أن أقدم لها كأساً من الشراب ، وهو على ثقة من أن ذلك سيسرها بل يظن أن لقاءها سيسرنى أنا أيضاً . ثم قال : إنها تستطيع أيضاً أن تسمعك جملا مختارة من مؤلفات « دوروثى باركر » — ما طبع منها وما لم يطبع — ثم لا تسقط منها حرفاً واحداً .

ولم تمض إلا بضعة أسابيع حتى كنت جالساً معهـا ، وبيننا كأسان من نبيذ ، ويومئـذ التقطت منهـا أخبارهما : أما هى فكانت إحدى الفتيات الأمريكيات ، وقد رحلت لتستمتع بإجازتها ، وأما هو فكاتب انجليزى قد انطلق ليتمتع بأيام راحتـه فالتقيا بباريس فى الصيف المكفهر من سنة ١٩٣٩ . فلما شبت نيران الحرب ودعى إلى الجيش ، التمس تأجيل انضمامه إليه ، فهو غير مطلوب فى إحدى صناعات الحرب الحيوية ، بل هو يطمع فى أن يظفر بفترة من الزمن تكفيه أن يذهب إلى أمريكا ، فيتزوج فتاته ، ويقضى معها شهر العسل ثم يعود . وكان له بعض المال ، وفى حوزته بعض العقار ، فهو يترك كل هذا ، ويجعله جميعاً رهناً ضامناً لعودته . فلم يزد مجلس

التجنيد على أن ربت على ظهره بعطف وحنان ثم باركه ، ولم يسأله ضماناً ولا كفيلا إلا كلمة العهد : أن يعد بأن يعود فى مدى ستة أشهر . فوعد ، ووفى بما وعد .

هذه هى القصة التى روتها لى زوجته فى مجلسنا بنيويورك . وألحّ عليها الفكر فى أنى لم ألق نظرة واحدة على « رجلها » ، فصار يضجرها أنها لا تجد عندها أىّ صورة له لتريني كيف هو . ولكنها أرسلت إلىّ صورة أخرى رسمتها بنفسها ، بأن اقتطفت بضع فقرات من بعض رسائله إليها ، وكتبتها على الآلة الكاتبة . وأنا أشك فى أن هذه الصورة تشبه الرجل شبهاً قريباً ، أما الزوجة فكانت غير راضية عنها ، فإن فى بعض رسائله — التى لم تستطع أن تضع يدها عليها فى هذه اللحظة — فقرات مميزة بارزة هى أدل على صورته . ثم عقبت على ذلك بقولها : « إنها رسائل كثيرة جداً ، ونحن الآن لا نستطيع إلا أن نبنى حياتنا الزوجية على الورق ، ولذلك تغمر الرسائل درج مكتبى ، حتى لا أجد بداً من حفظها فى حقائبى فى المخزن » .

فهـذه الكلمة العارضة فى وصف زواجها — أنه يبنى على الورق — صارت شبحاً يطوف بى ويلح على طول اليوم ، كما يطوف الوجه الذى يعذّبنا تذكره بعد أن نلمحه لمحة سريعة فى زحام . وأخيراً تحققت من وجه الشبه ، فما هو إلا أن كنت مكباً على الرسائل التى تبادلها « برنارد شو » و « إلن ترى » فى أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر . « إلن ترى » التى قال عنها « بارى » يوماً ما : « هى من بين جميع الممثلات أحبهن شابة ، وأعزهن عجوزاً » ! وكأنه الأمس القريب يوم كان جميع أصحاب النفوس الخيالية يتقدمون إلى خطبة حبائبهن بمثل هذه الكلمات اليائسة المختبلة : « مادمت لم أستطع أن أحظى بالآنسة ترى ، فهل لى أن أحظى بك أنت ؟ » . إن نجوى برنارد شو إلى إلن ترى ، وهى كأناشيد دانتى التى ناجى بها بياتريس ، كانت رسائل حب إلى امرأة رآها ، ولكنه لم يلقها أبداً . لم يعرفها إلا بقلبه وحده . وفى المقدمة التى كتبها نفسه ، حين طبعت الرسائل بعد وفاة إلن ترى ، وجدت هذه الجملة فنقلتها :

« ليذكر الذين قد يؤلمهم أن هذا كله »
« كان على الورق ، أنه على الورق وحده ، »
« أتقنت الإنسانية حتى الآن صنع الجمال ، »
« والحق والمعرفة والفضيلة والحب الخالد » .

ولا ريب فى أنى جعلت هذه الجملة هدية العرس : وستكون جدواها عليهما — فيما أظن — كجدوى إبريق شاى من الفضة ، مثلا ، بل أبقى على الزمن وأطول عمراً .



فى صيف ١٩٤٢ القائظ كان فى القاهرة اضطراب مكظوم ، فقد كانت جيوش الفيلد مارشال أروين روميل على مسافة ساعات من عاصمة مصر ، وكان الهجوم الذى قام به الجيش الثامن فى لوبية والذى بدأ مبشراً بالنجاح فى الشـتاء السابق قـد أخفق ، فتراجعت الجيوش البريطانية نحو النيل وقد تحطم عتادها المدرع أو ذهب غنيمة .

وكان الجنرال السير كلود أوكلنك قد تولى بنفسه قيادة الجيش الثامن ، فلم شعث الجيوش الحائرة الخائرة فى العلمين ، عند خط دفاع أنشئ على عجل ، وهو يمتد من البحر المتوسـط مسافة أربعين ميلا إلى الرمال اللينة الخداعة فى منخفض القطارة . وكان المحور قد أوقف ولـكن لم يكن أحد يدرى إلى أى مدى يطول وقوفه .

وعلى مسافة تقرب من سبعين ميلا أمام روميل تقع الإسكندرية ومن ورائها الجائزة السـنية التى سلخت جيوش المحور ثلاث سنوات فى الجهاد من أجل الظفر بها ، وهى قناة السـويس ، ذلك الطريق المفضى إلى الهند وإلى الاتصال باليـابان . ومن الواضح أن روميل كان يود أن يخاطر بكل شىء حتى يبلغ هذا الهدف . وفى أقل من سـتة أشهر بعـد ذلك سيم الذل جيش روميل ، الذى كان يوماً ما مختالا فخوراً . فقد طورد أبعد مما طورد أى جيش فى التاريخ — أى ١٦٠٠ ميل فلما ألجئ إلى جحر ضيق بين بنزرت وتونس، قضى عليه .

وقد أعانت أشـياء كثيرة على هزيمـة روميل ، فمنها جودة المعـدات الحربيـة ووفرتها ، وتفوق الحلفاء الجوى ، والتعاون التام بين وحدات الجيش البرية والجوية . ولـكن قصة هذه الأشهر الستة ، التى غيرت مجرى الحـرب ومصير العالم ، إنما هى بعد كل شىء قصة رجلين وجيش .

وقليــل من اهتم ، من الذين كانوا يحتسون الكوكتيل فى شبرد ، بأن يرفع بصره فى ذلك اليوم الحار من صيف ١٩٤٢ ، ساعة وصل قائد بريطانى نحيف طويل الأنف ، ونظر إليهم نظرة الساخط ، ثم مر مسرعاً يجتاز الشرفة إلى داخل الفندق . ولو كانوا رفعوا إليه أبصارهم لما عرفه إلا قليل ، فإن القائد السير برنارد مونتجومرى ، الذى عين قبل ذلك قائداً للجيش الثامن ، لم يكن معروفاً إلا فى الأوساط الحربية .

وكان رجال الجيش يعدونه ضابطاً شاذ الطباع غير أنه كفء نزاع إلى الكد فى عمله ، وأنه رجل ورع صارم لا يشرب الخمر ولا يدخن ولا يمزح . وأنه قد امتاز وهو ضابط ناشئ فى الحرب العالمية الأولى ، فنال الشهرة — من يومئــذ — بأنه قائد فرقة بارع .

وتذكره الجيوش التى قادها فى انجلترا بأنه صاحب النظام الصارم ، وأنه كان يرمى بهم فى تمرينــات رياضية شــديدة يؤودهم احتمالها . وكان لشــدة إيمانه بما يجب أن يكونوا عليه من سلامة البدن والاستعداد الدائم لكل عمل ، يأمر جميع رجاله وضباطه إلى مرتبة لواء ، أن يجروا شوطاً يبلغ سبعة أميال مرة كل أسبوع . وكان فى الأغلب يجرى معهم . ولما شكا إليــه الضباط المتقدمون فى السن جعل الشوط ستة أميال !

وسمع المحاربون القدماء فى الجيش الثامن عن هــذا القائد الأسبرطى ، وساورهم الشك فى أنه سينال حبهم ، ولكنهم لم يلبثوا حتى صاروا يدعونه « مونتى » ، ويزدحمون حوله ليظفروا بنظرة منه كلما طلع بينهم .

وقد كان مونتجومرى فى الواقع المختار الثانى لقيادة الجيش الثامن ، ولم يستدع إلا بعد وفاة الجنرال وليم جوت فى حادث سقوط طائرته . غير أنه كان مرشحاً لإحدى القيادات العليا . ففى ربيع سنة ١٩٤٢ عهد إلى السفير الأمريكى وينــانت فى أن يخالط رجال الجيش البريطانى ويبلو قدرتهم ويتخير منهم قائداً يستطيع أن يضطلع بقيادة القوتين البريطانية والأمريكية . وفى أثنـاء زيارته لمونتى سأله : « أيهـا القائد ، افرض أنك أمرت بمهاجمة كاليه فكم من الزمن يقتضيك وضع خطة الهجوم والشروع فى التنفيــذ ؟ وكان وينانت يتوقع جواباً يستغرق أسابيع ، ولكن مونتى تحدث بالتليفون مع أركان حربه ، وفى فجر اليــوم التالى كانت فرقة تقوم بمناورة تمثل هجوما على الألمـان . فبلغ هذا من وينانت مبلغاً حمله على أن ينصح باختيار مونتجومرى لقيادة الهجوم الأمريكى البريطانى فى شمـال أفريقية ، وكان إعداده حينئذ لا يزال فى مراحله الأولى .

وكان الجنرال السير هارولد الكسندر ،

الذى عين فى مكان أوكنلك ، صديق مونتجومرى الحميم . وكلا الرجلين قد شهد المشـاهد الحرجة . فالكسندر بطل مغامر شعاره: «هاجم وهاجم ثم أعد الكرة حتى حين تكون فى موقف المدافع » . ومع ذلك شاءت سخرية القدر أن يتولى قيادة انسحابين من أعظم الانسحابات البريطانية ، وهما الجلاء عن دنكرك ، والارتداد عن بورما .

ففى دنكرك نظم الكسندر الجلاء النهائى . ولما تأوه أحد رجاله قائلا «إننا فى كارثة» أجابه الكسندر فى جفوة : « إنى آسف لأنى لا أفهم الكلمات الضخمـة من أمثال هذه الكلمة » . وسرت رباطة جأشه إلى الجنود الصـابرين ينتظرون الزوارق ، والقاذفات النازية تزمجر فوق رءوسهم . ولما لم يجد ما يعمله إلا أن ينتظر ويصـبر على البلاء ، جلس على رمال الشاطئ وبنى لنفسه حصناً من الرمل . وفى أصيل اليوم الأخير طاف برمال الشـاطئ ليتثبت بنفسه على أنهم لم يخلفوا وراءهم أحداً من الجنود الأحياء . وكان هو وضابط بحرى، آخر من برح الشاطئ .

أما الموقف فى بورما فكان لا أمل فيه عند ما أرسـل على عجل ليتولى القيادة . وقد أمر بأن يدافع اليـابان حتى يتمكن ويقل من تنظيم الدفاع عن الهند . فحارب بجيشـه الصغير السيئ العتـاد ، المؤلف من ٢٥،٠٠٠ ، مائة ألف يابانى مدة أربعة أشهر . وأفلت من الطريق الجبلى الوحيد المفضى إلى الهند قبل أن تهب الرياح الموسمية بأيام ثم يتعذر المرور فيـه . وتعد الدوائر الحربية البريطانية هذا العمل من الأعمال الباهرة التى لا يفوقها إلا الانسحاب البارع من دنكرك .

ومونتجومرى أيضاً كان فى دنكرك وقد قال لرجاله « إذا نفدت ذخيرتكم فمزقوا العدو إرباً بأيديكم » . وبعد دنكرك أسندت إليه وإلى الكسندر قيادتان متجاورتان فى جنـوب انجلترا وجنوبهـا الشرقى ، وهى المنطقة التى كانت — ولا ريب — ستتحمل عنف الصـدمة إذا غزا الألمـان بريطانيا .

هذان هما الرجلان اللذان جمع تشرشل بينهما لإنقـاذ الموقف الخطـر فى الشرق الأوسط . وكانت أوامر تشرشل بسيطة : « لا بد من القضاء على روميل » . وكانت الخطة الحربية واضحة ، فخط العلمين يجب أن يصان حتى تصل الأمداد من الرجال والعتاد إلى الصحراء، ثم يجب أن يرد الفيلق الأفريقى الألمـانى بعد ذلك إلى الوراء . كانت مهمة الـكسندر هى وضع الخطة اللازمة لتنسيق تقـدم الجيش البريطانى الثـامن مع الغزو البريطانى الأمريكى لشمال أفريقيـة ، وكان

حينئذ فى دور الإعداد ، أما أساليب هزيمة روميل فقد تركت لمونتجومرى .

لم يضيع مونتجومرى وقته فى القاهرة ، بل ذهب من فوره إلى الصحراء فى صباح اليوم التالى لوصوله ، واعتلى تل عيسى ، وفحص خطوط الأعداء بمنظاره ، وهى كانت على نحو ألفى ياردة فى الصحراء المتوقدة .

وكانت تقف وراء خطوط روميل عشرات من المدافع من عيار ٨٨ مليمتراً ، التى أرهقت الدبابات البريطانية الأمريكية ، ومن ورائها عدد من الدبابات لا يقل عن ٣٠٠ دبابة ، وفى المؤخرة حوالى ٨٥٠ دبابة أخرى . وكان مع روميل ١٦٠٫٠٠٠ جندى ، وكانت تصل إليه الأمداد يومياً تبعاً لاطراد التحسن فى طرق مواصلاته .

وكان خط العلمين يشبه عنق الزجاجة من أى جانب تقف فيه ، وقد منعت الجيوش البريطانية روميل من التطرق إلى وادى النيل والانتشار فيه ، ولكن جيوش روميل كانت سدادا لا بد أن يزيله البريطانيون قبل أن يتوجهوا إلى أى وجه .

والذين شاهدوا مونتى ذلك اليوم فوق تل عيسى ، يعتقدون أنه قرر فى نفس المكان : كيف ومتى يمكن أن يهزم روميل . وشرع فى تلك الليلة نفسها يضع أسس الخطة الحربية التى مكنته بعد ذلك من تعقب آثار روميل حتى تونس .

وقد أدرك مونتجومرى لساعته أن طبيعة حرب الصحراء قد تغيرت ، فحرب الدبابة ضد الدبابة والمعارك التى تجرى على نمط المعارك البحرية فى الرمال المترامية ، قد تحولت فى تلك الفترة إلى حرب الخنادق الثابتة كما كانت فى الحرب العالمية الأولى . فسلاح الهجوم فى معركة العلمين ينبغى أن يكون هو الجنود المشاة الذين وصفوا فى الحرب العالمية الأولى بأنهم « تلك الفئة المضرجة بالدماء الخليقة بالرثاء » . وأن يكون على المدفعية وسلاح الطيران تمهيد السبيل . أما الدبابات فعليها أن تنتظر حتى يستبعد السداد من عنق الزجاجة .

وشعر مونتى أن حسابه يدل على احتمال نجاحه . فإذا نفذ خطته ، وإذا استطاع أن يحطم الدبابات الألمانية . فليس أمام روميل إلا أن يقطع مواصلة القتال ثم يفر . ففى الصحراء لا تستطيع أن تثبت وتمضى فى الحرب بغير أسلحة مدرعة .

وكان فى الجيش الثامن ست فرق من خيرة فرق المشاة ، بينها الجنود النيوزيلنديون والأستراليون الأشداء ، الذين بلوا معارك اليونان وكريت ، وهم جنود لا نظير لهم فى ملاحم السلاح الأبيض ، والفرقة الهندية الرابعة التى استولت عنوة على هضاب كيرن

فى إريترية ، وهى التى انتزعت من الألمان فى مصر ذلك المجاز الصخرى المعروف بمضيق حلفايا . ووعد تشرشل بإرسال فرقتين إضافيتين ، وعدد كبير من المدافع البريطانية الجديدة المضادة للدبابات التى وزن قنبلتها ستة أرطال ، وعدد وافر من الطائرات والدبابات الجديدة الثقيلة ، وخير من ذلك كله كانت مئات عديدة من دبابات شرمان الأمريكية الجـديدة بمدافع من عيار ٧٥ مليمتراً تنزل حينئذ من السفن فى السويس .

وطلب مونتى شهرين ليتم استعداده للهجوم ، وكانت مهمتـه فى خلال تلك الفترة صد هجوم روميل . وقد هجم روميل بعد وصول مونتى بثلاثة أسابيع ، فقذف بثلثمائة دبابة إلى وسط الخط وجنبيه يتحسس نقطـة ضعيفة تستطيع قوته المدرعة أن تتـدفق منها وتلتف حول جناح المواقع البريطانية ، وهى أساليب روميل المأثورة عنـه . وكان مونتى يدخر قوته المدرعة ، فأبى أن ينزل إلى القتال فى معركة الحديد ، ولكنه سمح بدهائه لدبابات روميـل أن تتـدفق فى شقوق فى خطوط الدفاع ، ثم واجهها بعـد ذلك بالمدافع المضادة للدبابات والمدافع من عيار ٧٥ مليمتراً ، وهى مدافع دبابات جنرال جرانت الأمريكية ، وكانت رابضة بين كثبان الرمل . وحين انسحب القـائد النازى كان قد فقد ١٤٠ دبابة وهى ما يقرب من نصف قوته المدرعة ، وفقـد البريطانيون سبعاً وثلاثين دبابة .

وأعلن مونتجومرى حينـئـذ فى ثقة : « إن مصر قد أنقذت » . وقال لوندل ويلـكى — وكان يزور مقر قيادته بالصحراء فى ذلك الحين — : « بالتفوق فى الطائرات والدبابات الذى أحرزته نتيجة لهذه المعركة ، أصبح من المؤكد تأكيداً حسابياً أننى سأهزم روميل فى النهاية » .

ومونتى يشـعرك بأنه فخور مختـال وكذلك هو . ولكنه قد أدرك كل مايسوغ فخره واختياله . وهو يؤمن بوجوب الدقة فى وضع الخطط ، ويصر على الإحاطة بكل جليل ودقيق من موارده الحربية حتى آخر رصاصة . وفى زياراته اليومية للجبهة يدهش قواد الميدان بمعرفته أشياء أكثر مما يعرفون عن تنظيم جيوشهم وتوزيعها . وكل فرقة ، وكل لواء ، وكل كتيبة ، وكل فرقة مدفعية ، وكل سرية ، قد أنيط بها عملها الخاص الدقيق ، ومونتى يراقب تنفيـذه تنفيذاً حرفياً ، وهذا هو قاعدة النجاح فى رأيه .

وقد كان هجومه على روميـل محسوباً إلى آخر علبة من اللحم المحفوظ . ففى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، وهى ليلة كان ضوء القمر فيها يتيح استمرار القتال طول

الليل ، كان مونتى على أتم استعداد للهجوم .

كانت طائرات الحلفاء قد ظلت مدة أسبوعين تلقى قنابلها على الأهداف الحربية فى مؤخرة روميل على حين كانت الطائرات البريطانية والأمريكية المطاردة تحاول أن تطهر الجو من الطائرات الألمانية . ولما دنت ساعة البدء اشتد الهجوم الجوى ، وأخذت القاذفات تذهب وتجيء ضاربة خطوط تموين روميل ومطاراته بينما كانت طائرات المطاردة تنزل أشد العقاب بخطوطه الأمامية ومواقع مدفعيته . ويعتقد مونتجومرى أنه ينبغى على كل رجل من القائد إلى الجندىّ ، أن يعلم ما يجرى فى الميدان وماذا ينتظر منه أن يعمل . ولذلك دعا ضباطه فى إبان اشتداد الهجوم الجوى ، وأفضى إليهم بخطته ثم صرفهم ليخبروا وحداتهم .

وقبل بدء الهجوم بثلاثين دقيقة قذفت المدافع قنابلها قذفاً لم يعرف له نظير منذ الحرب العالمية الأولى ، وكانت مدافع البريطانيين مصفوفة متلاصقة على طول خط العلمين البالغ أربعين ميلا . وكان مونتى يردد على الدوام : إن ستار نار المدافع يجب أن يبلغ من القوة والشدة مبلغاً يزعزع قلوب الأعداء . ففى الساعة العاشرة مساء ، إذ كان ستار نار المدفعية يتقدم رويداً رويداً ، أخذ المهندسون الحربيون يطهرون طرقاً واسعة فى حقول الألغام ، ويتقدم المشاة على أثرهم بعناد وعزم من موقع إلى موقع .

وباتت المعركة سجالا فوق رمال الصحراء ، ثم فى اليوم التالى إلى عدة أيام . وكان روميل يكر كرات محنقة ، وكم مات رجال فى سبيل كل ياردة تكسب أو تفقد ! وفى ٢ نوفمبر قرر مونتجومرى أن الوقت قد حان ليسدد ضربته المفاجئة القاصمة . فانطلقت دبابات شرمان من تحت أغطية الخيش التى تحجبها واندفعت فلقيت عند « العقاقير » فلول الفرقتين المدرعتين ، الخامسة عشرة والسادسة عشرة وصكتهما صكا شديداً وحطمت ثلثى الألف دبابة التى كانت مع روميل . وتهلل وجه مونتى ، وقال فى أحد أوامره اليومية للجنود : « فى أقصى الغرب صيد صالح فامضوا فى مهمتكم وأتمنى لكم جميعاً صيداً طيباً . . »

وأسرع روميل فى جمع شتات فيلقه المنهزم بسيارات النقل ، وترك معظم الجنود الإيطاليين خلفه حين أعوزته السيارات ، وانقلب فارًّا على طريق الساحل . وكان بين الحين والحين يحارب حرب مؤخرة ليكسب الوقت ، ومونتجومرى يتعقبه أسبوعاً بعد أسبوع بجيشه الثامن المتقم . فأسر فى الطريق ٨٠٫٠٠٠ من الإيطاليين ، و ٢٠٫٠٠٠ من الألمان . وصاح مونتجومرى

قائلا : «لم يعق تقدمنا شيء ولن يعوقه شيء» وقد حاول روميل في انسحابه الطويل أن يقف عند العقيلة ثم عند خط مارث ، وفي المرتين سحق مونتجومري دفاع المحور .

قال مونتي لوبلكي : « إن روميل قائد بارع ، ولكن فيه ضعفاً واحداً ، وهو أنه يكرر أساليبه وخططه ، وهذا الضعف هو طريقي إلى الانتصار عليه » .

أما مونتجومري فقد دل على أنه متنوع الأساليب . فقد يستعمل أحدث الأساليب الألمانية في معركة، ثم يعود إلى أحد الأساليب التاريخية في معركة تليها . فاتبع أسلوب الحرب العالمية الأولى ليحطم خط العلمين . أما في خط مارث فقد جمع بين الهجوم المواجه وبين الاندفاع الجريء في الصحراء للالتفاف حول جناح العدو الأيمن . وفي مواقع أخرى في الميدان الأفريقي حطم استحكامات العدو بهجوم قواته المدرعة .

وقد كان مونتجومري مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الكوارث البريطانية السابقة إنما نجمت عن ضعف التعاون بين سلاح الطيران والجيش الزاحف والمدفعية ، فصمم على أن لا يتكرر هذا الخطأ . وكان القائد الجوي السير أرثر كونتجهام يقيم مع مونتي في مقر قيادته ، فوضعا معاً خطة التعاون بين سلاح الطيران والجيش، وهذه الخطة لم تهزم روميل فحسب بل ستكون أنموذجاً يحتذى لكل هجوم آخر .

وحين كان الجيش الثامن يطارد روميل، كانت شهرة مونتجومري تذيع في الخافقين. أما الكسندر فقد كان في مقر القيادة العليا بالقاهرة يغمره النسيان . ولكن الرجلين يستحقان نصيباً متعادلا في القضاء على روميل فكلاهما أتم عمل صاحبه أحسن إتمام . فالكسندر بما له من القدرة على رؤية الأشياء في أفقها الواسع ، كان أمثل رجل لتناول مشكلات قيادة الشرق الأوسط الحربية والسياسية . أما مونتجومري المتفجر فقد قدح الشرارة التي جعلت الجيش الثامن لا يقاوم . وكلا الرجلين كان جندياً منذ البلوغ فقد انضم مونتجومري إلى فرقة وروكشاير الملكية بعد تخرجه في كلية سندرهست الحربية سنة ١٩٠٨ ، وجرح مرتين في الحرب الماضية ، ونال وسام الامتياز ووسام صليب الحرب الفرنسي. وعين في الفترة بين الحربين ضابط أركان حرب في إرلندة وانجلترا والهند . وتولى التدريس في كليتي أركان الحرب في كامبرلي بانجلترا وفي كويتا في بلوخستان ، وقاد فرقة في فلسطين سنة ١٩٣٨

والكسندر هو أحد أفراد فرقة « المحتقرين القدماء » (وهم أفراد فرقة

الحملة الانجليزية سنة ١٩١٤) وقد قاد كتيبة من الحرس الإرلنــدى الممتاز فى الرابعــة والعشرين من عمره فى الحرب المـاضية ، وأبلى بلاء حسناً أكثر من ثلاثين مرة ثم جرح جرحاً بالغاً ، ونال وسام الامتيــاز ووســام الصليب الحــربى وفى الفترة بين الحربين بذل معونته فى إعادة تنظيم جيش لاتفيـا ، وحارب فى حدود الهند الشماليــة الغربيــة ، وعقد له لواء القيادة فى جبــل طارق وفى انجلترا . وفى الخامسة والأربعين من عمره رقى إلى ميجر جــنرال ، فكان حينئذ أصغر القواد سناً فى الجيش البريطانى. وكلا الرجلين لا يزال صــغير السن لتولى قيادة عاليــة ، خلافاً لمـا يعهد فى الأوساط الحربية البريطانية فألكسندر عمره ٥١ سنة، ومونتجومرى عمره ٥٥ سنة .

ولكن الرجلين يتشــابهان فى أســس دراستهما الحربية وحسب . فالكسندر — الأنيق فى ملبسه المجزوز الشاربين ، والإبن الرابع للنبيل إرل كاليدون ، هو ثمرة يانعة من ثمرات مدرسة هارو الأرســتقراطية . وهو ذو لسان طليق يتكلم الفرنســية والإيطالية والألمانية والروســية والأردية وكان يوماً ما ياوراً للملك إدوارد السابع . وهو أحد القواد القلائل فى الجيش البريطانى الذين لهم إيراد خاص .

وأما مونتى فوالده أسقف ، وقد رحل بأسرته إلى تسمانيـا ، وعمر برنارد شهر واحد . وكان ينوى أن ينشىء ابنه تنشــئة دينية ، إلا أنه ، وهو فى الثانية عشرة رأى الاستراليين وهم يسيرون إلى حرب البوير فعقد عزمه على أن يصبح جندياً .

والكسندر دمث الأخــلاق ، كثير الأسفار، وهو ينال بغيته برقة أخلاقه . وهو ليس ممن يسهل التغلب عليهم ، ولكن أدبه يبلغ به أن يخفض جنــاحه حتى يرى كأنه يوارى نفسه . أما مونتجومرى فإنه وعر الجانب ، جهير الصــوت ، خشن اللهجة ، لا يحـاول أن يخفى أثرته ، ولا بد من أن يسيطر على كل محـادثيه . وهو ذو حاســة مسرحيــة قوية فلا يدع فرصة تفلت منــه ليظهر موقفاً يستوقف النظر . وحين أسرت جيوشه الجنرال ولهم ريتر فون توما لم يتريث ، فدعاه إلى الغذاء معه . وهو يحتفظ بصورة روميل معلقة فوق فراشه ، ويتمنى أن يكون قد عرف القائد الألمانى . قال : « لو أننا تلاقينا لعرفت من أى نمط من الرجال هو، وبذلك أستطيع أن أحسن تقدير ما ينتظر أن يفعله فى عقب ذلك » .

وقــد عثر فى مكان ما بمصر على بذلة داخلية حريرية لضابط ألمـانى وهو يرتديها الآن . ومونتى يزدرى القبعة المزركشة

بالشرائط التى يلبسها ضباط أركان الحرب ، ويفضل عليها القبعة الاسترالية المتدلية المرصعة بالشارات المميزة لجيشه ، أو القلنسوة التى يلبسها أفراد فرقة الدبابات . وهو ضابط يعزل أركان حربه لأقل غضبة ، وقد عزل مرة ضابطاً كان معيناً لمركز قيادته ولما يكد الرجل يشرع فى حل حقائبه ، قائلا له فى حدة : « أنت ضابط كفء ولكنك لست كفؤاً لأركان حربى » . وكان دأبه أن يستهل محاضراته بهذا الأمر الموجز : « لا أوافق على التدخين أو السعال . لا تدخين . وفى مدى دقيقتين لكم أن تسعلوا . وبعد ذلك ينقطع السعال عشرين دقيقة . وسأسمح بعدها بستين دقيقة أخرى للسعال » .

ولما تزوج فى سن الأربعين أقام أمر منزله على النظام الحربى ، فكان يصدر الأوامر اليومية للعناية بابنه الوحيد وتنشئته . ولما سأله بعضهم أهو يتمنى مزيدا من الأولاد ، أجاب « لا ، بكل تأكيد ، فعندى ما يكفينى من أعمال أركان الحرب » .

وقد كان لاشتراك الكسندر ومونتجومرى فى القيادة مزية إقبالهما على مهمتها فى وقت بدأت تصل فيه إلى الجيش الثامن أمداد بريطانية وأمريكية من الطراز الأول . وكان على أسلافهما أن يعملوا دون أن يكون لهم الأسلحة المناسبة ولكن مع توافر الدبابات والمدافع والطائرات لم يكن فى وسع قائد أن يتغلب على روميل لولا روح رجال الجيش الثامن المحاربين .

وقد قضوا ثلاث سنوات وهم يشنون حرباً تتردد بين الإقبال والإدبار فى بقعة من أجفى البقاع فى العالم . واحتملوا الحرارة التى تجعل أنابيب البنادق ساخنة مثل محراك النار ، واحتملوا رياح الخمسين التى كان رملها الملتهب ينفذ فى أبدانهم ، واحتملوا الذباب الذى كان يتكدس على أكلهم وأجسامهم ، واحتملوا المرض والخيبة والحرمان . وقد كانت خسائرهم فادحة ، فالفرقة الرابعة الهندية مثلا تطلبت تعويضاً ١٠٠ ٪ من الرجال ، لما فقدت من رجالها منذ ابتداء الحرب . وقد تركوا موتاهم — من أبناء بريطانيا وجنوب أفريقية ونيوزيلاندا وأستراليا وفرنسا واليونان وبولندا — على امتداد ساحل البحر المتوسط ، وغادروهم فى قبور قريبة القعر موحشة كتب عليها : « هذه أرض مقدسة . لقد قضوا نحبهم فى سبيل الوطن » .

وكانوا يقادون أحياناً قيادة سيئة ، كما كان أمرهم فى ذلك اليوم الفظيع من أيام يونيو سنة ١٩٤٢ حين قذف بدباباتهم فى كمين مدافع روميل من عيار ٨٨ مليمتراً وقد شهدوا أخطاء ولدتها الغفلة ، ففى مرة من المرات أخذت ٩٠ دبابة ثقيلة من دبابات

فالنتين تدمدم على حقل من حقول الألغام ولم ينج منها سوى ١٩ دبابة . وكان سبب ذلك توجيههم توجيهاً خاطئاً . ولم يكن عندهم أبداً ما يكفى من العتاد . ففى الأيام الأولى ردوا الإيطاليين بأقل من ١٥٫٠٠٠ رجل ، وعدد قليل من السيارات المصفحة العتيقة ، و٨٧ طائرة . ومع ذلك أبى رجال الجيش الثامن أن يعترفوا بالهزيمة ولذلك لم يهزموا . هم لم يفقدوا الثقة أبداً فى أنهم متى أعطوا العتاد الكامل قادرون على أن يهزموا جيوش روميل . وقد انتظروا زمناً طويلا ليثبتوا ، يوم يقاتلون رجلا لرجل ، أنهم خير من الجنود النازيين .

وقد ولد الجيش الثامن فى البأساء ، وغذى بلبان الهزيمة والارتداد ، ونشأ فى الرمل والدماء ، وترعرع فى المعارك ، ليصير أحسن الجيوش وأقواها عتاداً . وأتيح لتشرشل أن يفيه حقه ، ويقدم له تحية العالم الحر ، فلما زار طرابلس مشى فيها مختالا وقال : إذا سئل رجل ، بعد الحرب ، عما فعل فسيكفيه أن يقول : « لقد سرت مع الجيش الثامن » .

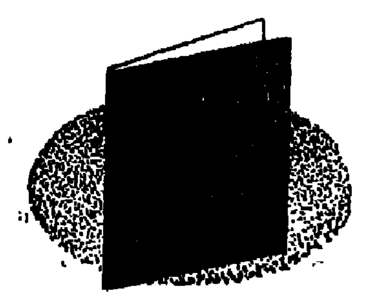
السؤال المسكت

● لما كان فيليب جاد الله المؤرخ الانجليزى المشهور ومؤلف سير ولنجتون وتشرشل وغيرها ، رئيساً لجمعية المناظرة فى جامعة أكسفورد ، طلب إلى صديق أن يوجه إليه قبل بدء المناظرة سؤالين كان جاد الله قد أعدَّ الجواب البارع عليهما إعداداً دقيقاً . فوافق الصديق ووجه إلى جادالله السؤال الأول فجاءه على الفور الرد اللبق المحكم فسرت فى الجمهور موجة من الضحك . فلما رد على السؤال الثانى رداً ألمعياً بارع النكتة ، ضج الجمهور بالضحك والهتاف . وعندئذ شعر الصديق أن فرصته قد سنحت ، فوقف وسأل فى وقار :—

ما هو السؤال الثالث الذى سألتنى أن أوجهه إليك ؟ !

(هسكيت بيرسون فى كتاب « تهوية »)

سرّ القصر



كاثارين دانلاپ

عن مجلة « ستردى رڤيو » الأدبية

فى مساء يوم من هذه الأيام الأخيرة رويت لجماعة من الأصدقاء قصة قرأتها من عهدٍ بعيد . ولم يستطع أحد أن يعرف كاتبها أو يذكر عنوانها . فهل تستطيعون ؟ وإليكم القصة .

لقد وقع فى نفسى شىء من توجس الشر وتوهم السوء حيال هذا القصر القديم ، بنوافذه المطبقة ، وأبوابه الموصدة ، وحديقته المهملة . فذهبت أستطلع خبره ، فعلمتُ أن القصر كان للكونت والكونتيس ميريه ، وأن الكونت كان حاد الطبع متكبراً . وأما هى فكانت رقيقة الشمائل ، متدينة ، جميلة الطلعة . ومضت سنوات وهما — كما يظهر للناس — فى عيشة منسجمة سلسة ، حتى كان ذات يوم فإذا القصر عاطلٌ منهما . وكان هذا آخر عهد مدينة ڤندوم بهما . وقد توفى مسيو دى ميريه على أثر ذلك فى باريس . وأما السيدة فعاشت وحيدة فى ضيعة لها نائية ، وكأنها شبح أشيب .

ولما أنْ علمتُ أنّ روزالى الخادمة فى الفندق الذى نزلت فيه كانت خادمة الكونتيس ، طلبتُ إليها أن تزيدنى بالأمر علماً . وقد أفرغتُ كل ما عندى من وسائل الإقناع ، وأخيراً أجابت طلبى .

قالت روزالى : « كانت الحياة فى القصر هادئة ، وكان فى المسيو دى ميريه شىء من التكبر والتحكم ، وأما السيدة فكانت شديدة التقوى ، وكانت تسلم له فى كل شىء . وبلغ من ذلك أنه فى الصيف الذى توعكت فيه السيدة بعض الوعكة ، لم يشأ أن يحتمل أدنى مضايقة فاتخذ غرفة مبيته فى الطابق الأعلى ، فلم تنطق السيدة باحتجاج ولا شكوى . بل لعلها وجدت متنفساً فى تركه حجرة نومها الكبيرة فى الطابق الأرضى لها وحدها ، وهى تطل على الحديقة الغناء وعلى النهر الجارى . وكان فى أحد طرفى الحجرة مدفأة ، وفى الطرف الآخر مقصورة كبيرة تعلق فيها السيدة ثيابها .

وكان السيد فى أثناء مرض زوجته يقضى سهراته فى النادى بالمدينة ، يلعب الورق أو يجادل فى السياسة . وكان فى المدينة وقتئذ الكثير من الإسبان يغدون ويروحون ، وهم أسرى الحرب أخذ عليهم

الإمبراطور نابليون العهد أن لا يحاولوا الهرب . وقد لحظت روزالى من بينهم خاصة فتى من علية الإسبان ، كان كثير الإنفراد بنفسه ، ثم يخرج فيطيل التجوال حين يخيم الظلام . وقد زعم أحد سوّاس الخيل أنه رآه يسبح فى النهر فى ساعة متأخرة من الليل على مقربة من القصر .

وكان المسيو دى ميريه إذا عاد من المدينة ذهب تواً إلى غرفته فى الطابق الأعلى ، إلا أنه فى ليلة من ليالى الخريف ، عاد من النادى متأخراً إلى داره ، فترك مصباحه بأسفل السلم ، وانحدر فى الممر الحجرى المعقود إلى باب حجرة السيدة . فلم يكد يبلغه حتى خيل إليه أنه سمع باب مقصورة ثيابها يغلق على عجل . ولكنه حين دخل الحجرة ألفى السيدة واقفة عند المدفأة .

وتلقته الكونتيس فى هدوء قائلة : « لقد تأخرت ! » .

وفى هذه اللحظة دخلت روزالى قادمة من الردهة . فليست هى إذا التى سمعها تغلق باب المقصورة ! ورأت روزالى الريبة فى وجه السيد ، ثم بدا عليه الغضب . فبادرت إلى الخروج من الحجرة ، ولكنها تريثت خارجها ، فسمعته يقول فى مثل برود الثلج :

« سيدتى ، فى هذه المقصورة شخص ! »

فأجابته زوجته بكل بساطة : « لا ، ياسيدى » .

فأسرع الخطى إلى المقصورة ، ولكن السيدة استوقفته دونها قائلة : « وإذا أنت لم تجد فيها أحداً ، فهذا آخر العهد بينى وبينك » .

فنظر الكونت إلى زوجته ملياً ، ثم قال : « حسناً سوف لا أفتحها . ولكن استمعى إلى . إنى أعهدك أحرص من أن تغضبى الله وتحرمى من جنته . فأقسمى أنْ لا أحد هناك فيظل الباب مغلقاً » .

وتناول الكونت صليبها — وهو صليب إسبانى بديع من آبنوس محلى بالفضة . فوضعت السيدة على الصليب يداً غير مرتجفة وقالت : « أقسم على ذلك » .

وعندئذ طلب إليها أن تدعو خادمتها . فلما حضرت روزالى قال لها الكونت : « هيا التمسى جورنفلو البناء . وقولى له أن يأتى ، ومعه محارته وبعض اللبنات والملاط مما يجده فى مربط الدواب الجديد » .

وهرعت روزالى مرتاعة إلى إنفاذ أمره . وأتى البناء وعليه سيماء الدهش ، فابتدره السيد : « عليك أن تبنى حائطاً يسد باب هذه المقصورة ، وليكن ذلك على عجل ومن غير جلبة . وليكن عملك متقناً محكما .. وسوف أواصل لك العطاء ،

ما أمسكت لسانك عن الكلام — وكذلك أنت ياروزالى » .

وجعل يرقب ، والبناء ماض فى عمله . وفى لحظـة من اللحظات نادت السيدة خادمتها روزالى لتأتيها بعطرف تضعـه على كتفيها . وفى أثنائها لمست بيدها المثلوجة أصابع الفتاة، وهمست لها : «قولى لجور نفلو أن يترك — كيفما كان — ثغرة فى البنيان » ثم قالت فى صـوت مسموع : « أحضرى شموعاً أكثر من هـذه حتى يكون البناء أبصر بما يعمل » .

وخيم الصمت فلم يكن يسمع غير مسح البناء بمحارته . وارتفع الجدار شيئاً فشيئاً فلما أن بلغ نصف ارتفاعه ، انتهز البناء أن كان السيد مولياً ظهره ، فكسر لوح الزجاج الصغير فى أعلى باب المقصورة بضربة من محارته فاطلت عينان سوداوان واسعتان من الفزع ، ولكن لم يرتفع صـوت ، وسرعان ما غابتا حين استدار الكونت .

وعند انبلاج الفجر كان البنيان قد تم . ونادى السيد خادمه الخاص وقال : «السيدة زوجتى مريضة ، ولن أدعها وحدها . فقدم لنا طعامنا هنا »

ولبث مسـيو ميريه عشرين يوماً فى حجرة زوجته لا يبرحها . وقد حـدث فى الأيام الأولى أن سمعت ذات مرة حشرجة أنفاس فى المقصورة المسـدودة فصاحت السيدة ، وهى يكاد يغشى عليها من الجزع ، ولكن السيد لم يدعها تلفظ ما كانت تهم به ، قائلا لها : « لقد أقسمت على الصليب أن لا أحد هناك . فى هذا الكفاية » .

وبعد برهة لم يعد ثمـة حس يسمع ، إلا نحيب السيدة فى صمت .



العيب فى كثيرين منا أنهم ينسافون مع الحياة . ولو فكروا فى ما يبتغونه منها ، قدر ما يفكرون فيما عساهم يفعلون بعطلة أسـبوعين ، لهالهم ما فى سياستنا من خطأ ، وما فى موكب أيامنا من سير بلا غاية .

(دوروثى كانفيلد)

ليست الهزيمة مرة الطعم إلا إذا ابتلعتها

باب الكتب



تجربة كاملة

قصة دييب

ملخص كتاب : كونتن رينولدز

« كان للاحكام الذى أديرت به غارة دييب العظيمة وقع بالغ فى نفس كونتن رينولدز ، ولكن وقع الذين اشتركوا فيها كان أبلغ وأعمق ، فكتب هذه القصة الشخصية الحية لما شهده من البسالة والمأساة والفكاهة ، بينما كانت سفينته تهاجم من الجو وتضرب بنار المدافع .

وقد ظل رينولدز عشر سنوات محرراً لمجلة « كوليرز » ، ثم صار مكاتبها الحربى منذ سنة ١٩٤٠ . وقد شهد انهيار فرنسا ، والهجوم الجوى الخاطف على لندن . واتفق له فى أثناء معركة فى لوبية أن أحاطت به ، وبلفيف من الجنود البريطانيين ، دبابات المحور وتعرضوا لضرب الطائرات المنقضة .

وله أربعة كتب أخرى عن تجاربه فى الحرب راجت كلها رواجاً عظيما » .

في مساء ١٧ أغسطس خاطبني الصاغ (ماجور) جوك لورنس تليفونياً في فندق سافوى بلندن وقال لي : « تعال إلى مكتبي في العاشرة صباحاً في ثياب مدنية ، وهات بذلتك العسكرية في حقيبة ، وأتمنى لك أحلاماً جميلة » .

فتجهزت ، ولكني لم أر أي حلم جميل .

وكان مكتب جوك هو ديوان اللورد لويس مونتباتن القائد العام للعمليات المشتركة ، وهي تشمل فصائل الفدائيين (كوماندو) . وطالما وددت أن أرافق الفدائيين في إحدى غاراتهم ، فالآن تيسر تدبير الأمر .

وكان كل امرىء في ديوان العمليات المشتركة ساكن الطائر غير معجل ، وليس في وسعك أن تعرف من سلوك الموجودين في الديوان أن هناك أمراً يوشك أن يحدث ، فقد كان سر الغارات يكتم كتماناً شديداً ، حتى إنه ما كان يعلم به سلفاً ، حتى في الديوان إلا القليلون جداً .

ومضى بي جوك إلى البكباشي بوبي باركس سميث ، فقال لي هـذا : « اذهب إلى حجرة جـوك ، وارتد فيها بزتك العسكرية ، وستحملك سيارة في الساعة الثانية ، وتقلك إلى ميناء فتركب المدمرة « كالب » . وسيكون الملازم « بويل » في انتظارك ، وسيخبرك بوجهتك بعـد إقلاعها ، وستكون المكاتب الوحيـد الموجود عليها ، وهي مركز القيادة ، ومنها تدار العملية كلها » .

وألفينا في حجرة جوك زميله فيها البكباشي لورين ب . هيلسنجر ، وهو ضابط أمريكي ، يتجهز بسرعة عظيمة ، وما لبث أن غادرنا فضحك جوك وقال : « إنه ماض إلى حيث تمضي . وسيكون هناك عدة مراقبين من الأمريكيين ، وبعض الجنود الأمريكية — قوة رمزية ليس إلا » .

ولما أبدلت ثيابي وارتديت بزتي العسكرية قال لي جوك : « انزع شارة المكاتب الحربي » .

فسألته : « لماذا ؟ » .

قال : « إنك ذاهب إلى ميناء ، وقد تعوق الحالة الجوية القيام بالعمل المنوى يومين ، فإذا رأى الناس شارة المكاتب الحربي على ثيابك ، فقد يستخلصون أن هناك عملا كبيراً يوشك أن يقع . فالرأي أن تضع لك شارة فضية لبكباشي ، فلا يرى فيك من يراك إلا ضابطاً أمريكياً آخر » .

قلت : « لماذا لا يمكن أن أكون جنرالا ؟ » .

قال : « ليست لك سماته ، وإنه ليكون من أسوأ التدبير أن تمثله » .

ثم ودعنى جاداً وقال : « أسأل الله أن لا يصيبك مكروه ، ولكنك فتى موفق » .

قلت ، وبى بعض الشك : « لا شك أنى فتى موفق » .

وما لبثت أن أقبلت سيارة مدهونة بلون أسمر خامد لا التماع له ، وجرت عجلاتها إذ وقفت إلى جانب البناء ، فخرجت وركبت فى مؤخرتها مع ضابطين — قائد جناح ، وصاغ بريطانى ، وبعد أن استعرف كل منا إلى الآخر . قال قائد الجناح للسائق : « سر إلى بورتسموث » .

وكانت رحلة طويلة ، مسافتها ٧٨ ميلا ولكنه كان يوماً جميلا ، وكانت الشمس تريق ضوءها على حقول ديفون الخضر ، فتبدو كأنما رشقت ألف زهرة شتى الألوان واشيات فى شعرها .

وتمتم قائد الجناح : « هذا وقت لا يطيب فيه السفر » .

فسألته : « كيف ؟ » .

قال : « فى هذا الوقت لا توجد حانة واحدة مفتوحة على طول الطريق ، مزعج هذا التنظيم لساعات الشراب وحظره » .

***

ووقف بنا السائق على رأس رصيف من الأسمنت المسلح ، وتقدم منا صول ، وطلب منا بادب بطاقاتنا المثبتة لشخصياتنا ، ورجا منا أن ننتظر دقائق ، فقعدنا على حافة الرصيف نتحدث عن كل شىء ، إلا الغارة وكان فى الثناء الجميل على مونتباتن وما فرضه على رجاله من تحرى الكتمان ، أن رفيقىّ لم تندّ عن أحدهما كلمة عن الخطة .

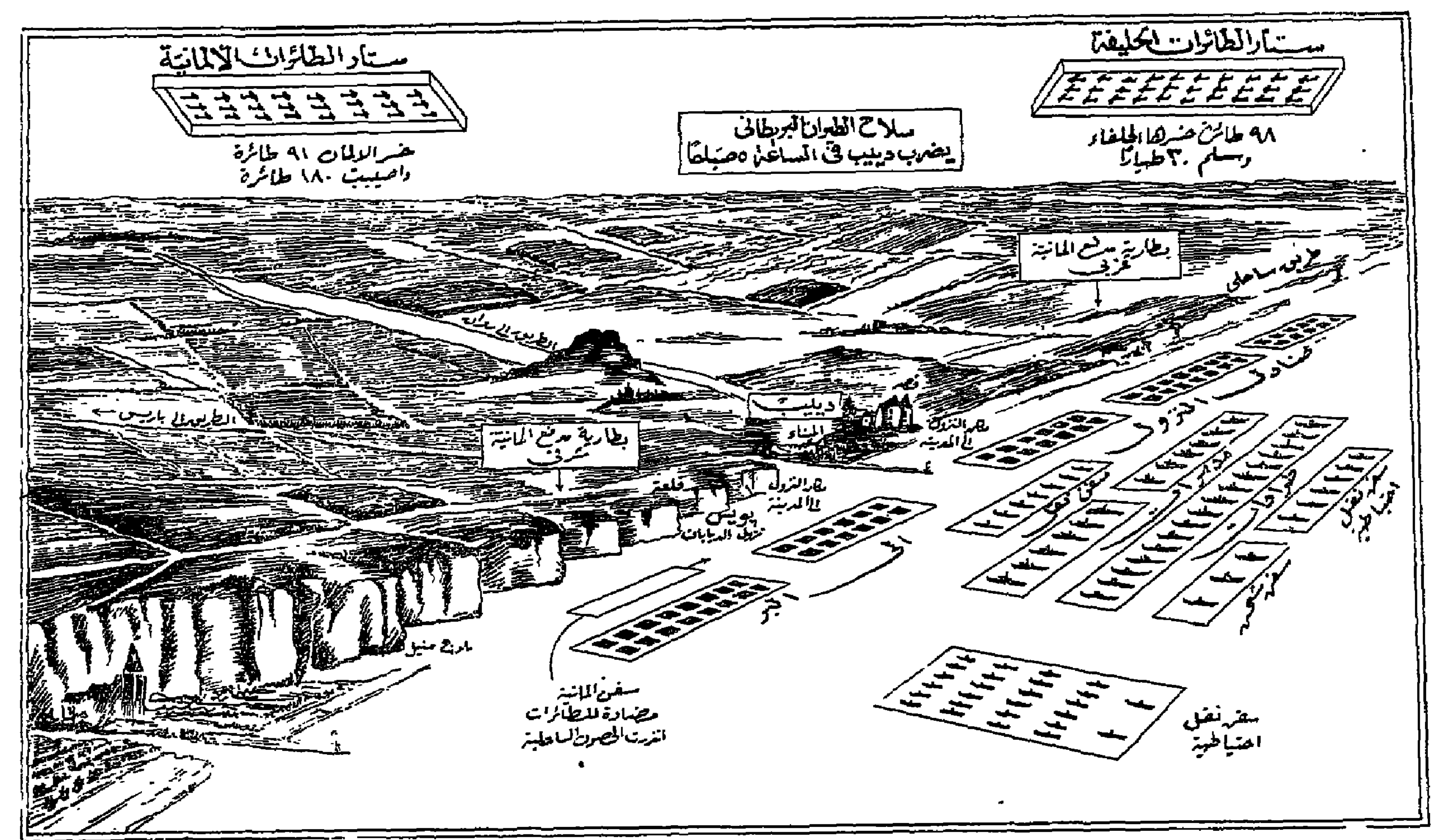
وما عتمنا أن انضم إلينا يوزباشى كندى من الضباط الموكلين بالصحافة والنشر ، فسألنا عن السفن التى ألحقنا بها فقال قائد الجناح والصاغ إنهما سيركبان المدمرة « بيركلى » ، (وقد حدث بعد ساعات أن أصيبت هذه المدمرة بضربة مباشرة فقتل الرجلان) .

وسألته : « كيف اتفق أن يلتحق ضابط صحفى كندى بهذه الحملة ؟ » .

فابتسم وقال : « إنها تكاد تكون حملة كندية بحتاً ، فقد مل جنودنا الجمود عامين ولجت بهم الرغبة فى القتال . ليتك سمعتهم يهتفون صباح اليوم حين أبلغهم « هام روبرتس » أنه قد جدّ الجد ! » .

وكنت قد سمعت أن اللواء ج . ه . روبرتس يوصف بأنه « رجل حرب » ، فذكرت ذلك للضابط الصحفى .

فقال : « إنه لكذلك ، وقد قال لرجاله هذا الصباح إن عليهم أن يعبروا مضيق « المانش » ، ويخترقوا حقل ألغام ألمانياً طوله عشرة أميال ، يمتد ثلاثة ارباع



السـاحل الفرنسي في جوار دييب حيث نزلت القوات المغيرة في ستة أماكن وكانت هـذه القوات في صنادل صنعت خاصة لمثل هذه الأعمال الحربيـة وقد نقلت بهـا فصائل المشاة والدبابات إلى السـاحل .

وكان بين الأهداف الرئيسية للغارة بطاريتا مدافع إحداهما غربي المدينة والثانية شرقيها وقد نجح الهجوم على الأولى ولم يصب الهجوم على الثانية نجاحاً كاملا لأن المغيرين التقوا بسفن ألمانية أنذرت الحامية .

الطريق ، وأردف ذلك بقوله : « وأحب أن تعلموا أن قائدكم سيكون على رأسكم وفى طليعتكم عند اجتياز هذا الحقل ، فإذا اجتزته فإنكم ستجتازونه جميعاً مثلى » .

قلت : « لا بد أن يكون شديدالقلب »

قال الضابط وهو يهز رأسه هزة الإعجاب : « نعم . وستمضى مدمرته فى الطليعة ، ومن المحتمل جداً أن تنسف ، والآن هيا بنا » .

وخيل إلى أن المدمرة « كالب » صغيرة جداً ، وكأنما تخلل بها الأعياء ، على أن كل مدمرة تبدو كذلك من جراء ما تدهن به وتصبغ للتمويه . فصعدت إليها والتقيت بشاب وسيم عرفنى بنفسه ، وقال إنه اللازم بويل .

وقال مقترحاً : « هل نذهب إلى المقصف ؟ » .

فإن من التقاليد المرعية فى سفن الحرب البريطانية أن يكون أول مظاهر الحفاوة بزائرها تقديم الشراب إليه وقد طلب لى بويل كأساً ، ولنفسه شاياً .

وسرعان ما اهتزت السفينة كالجرو حين يخرج من الماء ، فقال بويل : لقد أقلعنا ، والآن أريد أولا أن أريك السفينة » .

وصعدنا فى سلمين من الحديد إلى غرفة حسنة على شيء من السعة ، وكان فيها ثلاثة رجال على أجهزة الراديو ، وعلى آذانهم السماعات ، ولكن عينى كانت على الرجل الجسيم المبسم الذى نهض واقفاً لما دخلت .

وأقبل علىّ باشاً يقول : « يسرنى أنك على ظهر هذه السفينة . أنا روبرتس »

فقلت ، وأنا أشعر بقلبى يهبط : « يسرنى أن أعرفك يا سيدى » . ودار فى نفسى ما روى الضابط الكندى أنه قال لرجاله : « أحب أن تعلموا أن قائدكم سيخترق حقل الألغام فى طليعتكم » .

* * *

وأخيراً أخبرنى بويل أن غايتنا هى دييب ، وكانت كاسحات الألغام تتقدمنا وتحاول أن تشق لنا طريقاً فى حقل الألغام الألمانى .

وسألنى بويل مستطلعاً : « هل سبق لك أن ذهبت إلى دييب ؟ » .

فقلت له بغير احتفال : « نعم ، منذ أسبوعين ، مع طائرات القتال الليلية » .

فجحظت عيناه ، وقال وقد تمشت فيه النشوة : « وطرت فعلا معهم ، وخضت ما خاضوا من قتال ؟ لطالما اشتهيت أن أفعل ذلك ! إن هؤلاء الطيارين آية فى البسالة ! وهم مع ذلك أحداث صغار — معظمهم » ! .

فسألته متردداً : « كم عمرك ؟ » .

فاتقد وجهه قليلا وقال : « سأبلغ الحادية والعشرين بعد نحو ثلاث ساعات . وغداً عيد ميلادى » .

وأطل نوتى بوجهه فى الغرفة وقال : « إن الربان هيــوز هاليت يود أن يراكما فى غرفة الملاحة » . فصعدنا ثلاثة سلالم من الحديد إليه .

وكان الترتيب الموضــوع يقضى بأن يوكل زمام الأعمال البحرية كلها إلى الربان ج . هيوز هاليت إلى أن نبلغ دييب ، وهناك يتولى الجـنرال روبرتس القيادة بالاشتراك مع القائد الجوى ا . ت . كول . وهذا هو مؤدى العمليات المشتركة : أن يعمل الجيش والأسطول والقــوة الجوية كفرقة واحدة ، مع التحرى الدقيق للتناسق التام .

وكنا على مسافة ميلين تقريباً من الشاطىء ، عند موضع التلاقى على ما يظهر . وكان الظلام حالكا ، ولكنا كنا نستطيع أن نرى سفناً حولنا فى كل ناحية . وكانت هناك ناقلات ضخمة عظيمة الجوف ، على ظهورها صنادل غزو صغيرة ، ومراكب طويلة لإنزال الدبابات ، ومعظمها غاطس فى المـاء ، وكنا نلمح من حين إلى حين مدمرة تفرق البحر على مقربة منا .

وسألت الربان : « هل معنا طرادات أو بوارج ؟ »

فهز رأسه وقال «معنا مدمرات، ولكن ليس معنا ما هو أكبر ، على أن كل طائرة قتال ميسورة ستكون معنا عند الفجر» .

وتنبهت فجأة إلى أننا سائرون ، وأن وراءنا وعلى آثارنا خطاً طويلاً من السفن لايستبين إلا لأنه أحلك من الماء . وهبطت أنا وبويل إلى القصف مرة أخرى ، فنشر خريطة وعدة صور فوتغرافية على منضدة .

وقال وهو يشير إلى الخريطة : « هذا منظر عام لدييب . وترى عليه ترقيمات شتى مثل « مدفع خفيف » أو « حواجز فى الطريق » أو « عوائق ضد الدبابات » أو « منزل مقوى » ، إلى مئات من أمثال ذلك ، فقد دأب السلاح الجوى الملــكى أسابيع على أخذ صور لدييب ، وكان آخر ما أخذ البارحة . ألق نظرة على هذه » .

وكانت الصور تبدو كأنها أخذت من ارتفاع مائة قدم ، فإن العدسات التلسكوبية التى يستعملها قسم التصوير التابع للسلاح الجوى الملكى تستطيع أن « تبصر » من ارتفاع مهول حقاً . وقد برزت المنازل والعمائر والطرق حيث تتلاقى وتتقاطع ، وأوكار المدافع المبنية من الأسمنت المسلح هنا وهنا — فى وضوح تام .

ثم قال بويل : « وهــذا هو جدول العمل » .

وناولنى ثلاث صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة ، قرأتها فتبينت مبلغ الجهد الذى بذله مونتباتن وهيوز هاليت وروبرتس ، والأسابيع التى سلخوها لإعداد هذه الغارة وتدبير خطتها وتفاصيلها . فقد رتب الأمر بحيث يقع شىء كل عشر دقائق . مثال ذلك ، أن الشروع فى الإغارة مقرر فى الساعة الخامسة والدقيقة العشرين ، وفى هذا الوقت ينزل الجنود إلى الشاطىء ، ولكنه كان مقرراً أن تقوم المدمرات فى الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة بضرب هذا الشاطىء عشر دقائق . ولكل مدمرة هدفها الخاص ، وكان عليها جميعاً أن تطلق ١٧٨٠ قنبلة ، وكان طول الشواطىء الثلاثة التى ستضرب ١٧٨٠ ياردة . وهذا مثال كاف للتعريف بالجدول .

وقال خادم المطعم بإيجاز : « سندخل حقل الألغام ، فيحسن أن تلبسوا مناطق النجاة ، وأن تصعدوا إلى ظهر السفينة » .

ومناطق النجاة تسمى باسم ممثلة السينما « مى وست » ، حتى فى الاصطلاح الرسمى الآن . ومتى انتفخت وضح السبب فى إطلاق هذا الاسم عليها . وقد لبسناها وصعدنا ونظرت فرأيت أمامى نوراً .

فقال بويل على سبيل الإيضاح : « إن كاسحات الألغام تلقى طافيات مضاءة فى حيث طهرت البحر ـ واحدة كل نصف ميل تقريباً » .

واجتزنا الضوء الأخضر الصغير على مسافة عشرين ياردة منه ، ودخلنا فى حقل الألغام . ومضت السفينة مسرعة .

فقلت . « إنه لا موجب للعجلة فى الحقيقة ، أليس كذلك ؟ ألا نستطيع أن نسير على مهل ونحن نجتاز هذا الحقل الملغم ؟ » .

فضحك بويل وقال : إذا مسست لغما فإنه يستوى أن تكون مسرعاً أو متمهلا ، فالنتيجة واحدة » .

ورأيت على بعد ضوءاً آخر من هذه الأضواء الصغيرة ، وإلى هنا كان السير طيباً وكل شىء فيه على ما يرام . وكانت الريح قد هبت متداركة باردة ، ولكنى لاحظت أنى أتصبب عرقاً ، فحدقت أمامى متطلعاً إلى الطافية التالية ، غير أنى لم أر إلا الظلمة ومن ورائها العدو ، ولم يقطع السكون صوت ما . ومالت السفينة قليلا إلى اليمين ، وكانت لحظة من الجزع خطر لى فيها أنْ لعلنا فقدنا الدلالة التى تركتها كاسحات الألغام ، ثم مالت السفينة يسرة ، فأيقنت أننا ضللنا الطريق ، وإذا بضوء صغير يبدو فجأة على مسافة مائة ياردة .

وما زال الانتظار فى الحرب ، أبعث على الفزع من القتال حين يدور ، فإن الانتظار

يعذبك يبطء، ويضعفك ويتركك مسترخياً.

ومضينا على وجهنا آخذين سمتنا على الأضواء الخضر الصغيرة ، وإذا بناقوس يدق فى مكان ما ، فسمعت أصوات ظلت ساكنة نحو ساعة ، فكأنما تنفست السفينة الصعداء ، فقد اجتزنا منطقة الألغام، وصار يسع الواحد منا الآن أن يهز كتفيه ، ويحدث نفسه أن الرحلة لم تكن ثقيلة الوطأة على النفس .

والآن انقضى الوقت الذى كان ينبغى فيه كتمان الأسرار ، فأفضى إلىّ روبرتس وكول ، ونحن فى المقصف ، بالخطة المرسومة للعمل .

وقد سألت روبرتس : «لنفرض أن كل شىء سار وفق الخطة الموضوعة ، فهل هناك أى تفكير فى إقامة رأس جسر دائم ؟ » .

فابتسم وقال : « كلا . فإن معنا طعاماً وعقاقير وذخائر ليوم واحد ليس إلا . ونحن نبغى — إذا تيسر ذلك — أن ندمر السفن التى فى المرفأ ، ونستولى على جهاز لاسلكى لكشف الطائرات ، وننسف مصانع الطوربيد . وأهم من ذلك أن هذه الغارة ستثبت للألمان أنهم لا يستطيعون أن يتراخوا عن اليقظة والحراسة فى أى مكان على طول الساحل ، بل أن عليهم أن يعززوا استحكاماتهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا بسحب الجنود والطائرات والمدافع من روسيا . ولا شك أننا كنا نؤثر أن نهجم على نطاق واسع ، وأن نفتح مايسميه الناس جهلا منهم « الميدان الثانى » ، ولكنك تعرف كما أعرف المصاعب التى تعترض ذلك » .

فهززت رأسى موافقاً ، فقد شهدت اجتماعات عقدت فى لندن فى سبيل الميدان الثانى ، وكان إخلاص الخطباء والمستمعين وصدق سريرتهم من أوقع الأشياء فى النفس ولقد عدت من روسيا منذ بضعة شهور ممتلىء النفس إعجاباً بالشعب الروسى ، ومن أشد الناس حماسة للميدان الثانى .

ورحت أجوب لندن وليس على لسانى سوى سؤال واحد : « لماذا لم يفتح إلى الآن ميدان ثان ؟ » . ولم أكن ألقى هذا السؤال إلا على الذين يعرفوننى معرفة كافية تسمح لهم بأن يتكلموا معى بغير تحرز . وقد خاطبت فى ذلك رجالا مثل أفريل هريمان ، والسفير أنطونى بيديل ، وبعض القواد الأمريكيين الذين يعملون تحت إمرة أيزنهاور ، وهم فيما أرى من الصفوة المختارة، شباباً ، وعزماً ، وصلابة ، وإقداماً على الحرب . وخاطبت أيضاً رجالا فى وزارتى البحرية والطيران . فلما انتهيت من هذا التساؤل ، عرفت لماذا لا يتسنى فتح ميدان ثان فى التو والساعة . فقد كان هؤلاء

الرجال لا يتكلمون إلا بالحقائق والأرقام ، وليس الميدان الثانى فى نظرهم أمراً وطنياً ، أو مسألة تستثار بها حماسة الجماهير ، وإنما هى مسألة عسكرية جافة ، مدارها على الجند وأدوات الحرب ، ليس إلا .

ولم يكن فى الوسع الإفضاء بالحقائق المتعلقة بهذا الأمر فى ذلك الوقت ، ولكن الواقع أن جنود المظلات الذين لا غنى عنهم فى أى هجوم كبير ، كانوا لا يزالون يدربون فى ذلك الحين ، ولم يكن هناك من الجنود الأمريكيين إلا أقل من مائة ألف أوشكوا أن يتموا تدريبهم فى شمال إرلندا ، أما بريطانيا فلم يكن فيها جندى أمريكى واحد ، ولم تكن قوتنا الجوية قد بدأت تصل ، ولا كانت هناك مطارات معدة لها . ولقد هيئت بعد ذلك بشهور قليلة مطارات عظيمة بديعة لسلاحنا الجوى الأمريكى — ولكنك لا تستطيع أن تبنيها فى ليلة ، ولا سيما المطارات اللازمة لاستعمال القاذفات الضخمة .

فالمدنيون الذين كانوا ينتقدون الرؤساء العسكريين ، من بريطانيين وأمريكيين ، كانوا يفعلون ذلك لأنهم يجهلون حقائق الحالة

* * *

وصعدت إلى مركز القيادة فأدهشنى أنى وجدت أن السفينة كفت عن السير تقريباً . فمن الجلى إذن أننا قد بلغنا حيث نريد . ورأيت عن بعد نوراً يضطرب كأنه يطرف ، فقال لى أحد الضباط فى مركز القيادة ، وهو متجهم : « هـذه منارة . وإنها لبشرى . فإن معناها أن القوم لا يتوقعون مجيئنا » .

فسألته : « أين نحن الآن ؟ » .

قال : « على نحو عشرة أميال من دييب » .

وكان على القوة الرئيسية التى كان هدفها دييب أن تنزل إلى اليمين من الميناء ، وعلى الوحدة الرابعة من الفدائيين أن تنزل على مسافة ستة أميال تقريباً إلى الشرق من ذلك ، وأن تدمر بطارية مدافع من عيار ست بوصات . وكان هذا حتما مطلقاً ، فقد قال قائد الوحدة — البكباشى اللورد لوفات وهو شاب متوقد الذكاء — فى الليلة السابقة لرجاله ببساطة وإيجاز : « افعلوا هذا ، ولو احتاج الأمر إلى أعظم مخاطرة ممكنة » .

وكان هناك إلى الغرب من دييب بطارية أخرى من مدافع عيارها ست بوصات مقامة على مرتفع من الأرض يشرف على الساحل المنبسط أمام المدينة ، وقد وكل تدمير هذه البطارية إلى الوحدة الثالثة من الفدائيين .

وعند منتصف المسافة بين دييب

والموضع الذى ينبغى أن ينزل فيه لوفات ورجاله ، أمكن أن يعرف مكان جهاز لاسلكى لكشف الطائرات ، وقد عهد إلى كتيبة « سوث سسكاتشوان » أن تدمره أو ، إذا أمكن ، أن تجرده وتعود به . وقد رافق رجال الكتيبة أحد المدنيين وهو ذو شأن عظيم ، ويعرف باسم «الأستاذ ويندل » ، ولا يعرف اسمه الحقيقى سوى قليلين جداً فى بريطانيا ، وهو فى الواقع صاحب الفضل فى ابتكارات شتى فى فن تعيين المواقع بأشعة الراديو ، وقد جعل الآلات البريطانية خير ما فى العالم ، وإليه يرجع الفضل فى أن سلاح الطيران الملكى وجماعات المدافع المضادة للطائرات فى بريطانيا تستطيع دائماً أن تعرف أن الطائرات الألمانية مقبلة قبل أن تصل إلى أهدافها بزمن طويل .

ولم تكن المهمة الموكولة إلى الأستاذ « ويندل » مما يطيب للمرء . وكان له حرس من أربعة جنود عليهم أن يفتحوا عيونهم وبنادقهم أيضاً على الأستاذ . وكان على الأستاذ أن يفحص الجهاز اللاسلكى الألمانى لكشف الطائرات لعله يقع فيه على جديد . وحسبه بضع دقائق لهذا الغرض بفضل ما له من التجربة الفنية العظيمة ، ولكن هب الألمان كانوا أقوى مما كان مقدراً ، وفاجأوا الأستاذ وحرسه ؟ الجواب بسيط . فقد كانت الأوامر الملقاة على الجنود الأربعة تقضى عليهم بأن يطلقوا النار على الأستاذ فوراً ، فما كان يسع بريطانيا أن تدع هذا العبقرى فى معرفة أجهزة اللاسلكى الخاصة باكتشاف الطائرات يقع فى أيدى الأعداء .

وقد شرح لى مونتباتن نفسه سبب هذا الزهد فى المخاطرة بوقوع أحد فى الأسر يمكن أن يستفيد العدو من معارفه . وقد عرفنا من طيارى السلاح الجوى الملكى الذين فروا من معتقلات الأسر الألمانية ، مبلغ حذق الألمان وبراعتهم فى استخلاص الحقيقة من الأسرى ، وقد كفوا ، إلى حد ما ، عن الالتجاء إلى وسيلة التعذيب البدنى الذى جروا عليه مع البولنديين والتشيك والنرويجيين . ولم يكونوا فى ذلك صادرين عن بواعث إنسانية ، وإنما كان السبب أنهم اهتدوا إلى وسيلة أخرى أنجع إلى التعذيب .

ذلك أن عندهم عقاراً يؤثر فى العقل ، ومتى تناوله الأسير فإن المسكين يصبح عاجزاً عن الكذب ، أو عن الامتناع عن الإجابة فكأنه مصل لكشف الحقيقة ، وهو يترك الضحية فى مثل « نوم السحر » وتأثيره . إن العقل الباطن ، أو الذى وراء الوعى ،

يسيطر سيطرة تامة على العقل الواعى ، فلا يبقى للارادة مهما تبلغ من قوتها أى غناء . وقد أثبت العلماء البريطانيون أن مثل هذا العقار موجود .

ومن هنا كان مصير رجال مونتباتن أن يَقتلوا أو يُقتلوا . وكانوا يعرفون ذلك حين تقدموا متطوعين للعمل تحت قيادته . وكان ويندل يعرف ما هو مقدم عليه من الخطر العظيم ، ولكن وطنيته كانت أعظم . ومن حسن حظه وحظنا أنه نجا بعد أن أدى مهمته .

* * *

وكان من الجلى أن العدو لم يدر بتقدمنا إلى الآن ، فراح أسطولنا يزحف ويدنو ، وكانت الساعة قد بلغت الدقيقة السابعة والأربعين بعد الثالثة صباحاً ، ثم استيقظ الليل الذى كان راقداً ، على جمهرة باهرة من الأضواء الخضر والحمر ترسم أقواساً فى السماء ، ويومض سناها فى ظلمة الليل المخملية ، فوقفنا مبهوتين فى غرفة القيادة . وكانت هذه قذائف تترك وراءها أثراً يدل على أنها صادرة عن يسارنا . ثم سمعنا مما يلى الماء بمعمعة المدافع المضادة .

وعاد بويل من غرفة الجنرال روبرتس وقال : « إن باخرة زيت كانت داخلة على بضعة أميال إلى الغرب من دييب ، تحرسها أربعة أو خمسة من زوارق الطوربيد ، وقد رأت الزوارق صنادل الفدائيين فشرعت تمطرها وابلا من النيران » . وأضاف إلى ذلك وهو مقطب : « إن هذا سيقلب جدولنا » .

فذهبت إلى غرفة روبرتس ، وقعدت على الأرض قريباً من الباب من حيث لا أكون فى طريق أحد . وكان روبرتس وكول يتكلمان فى هدوء ، وكان رجال على أذانهم السماعات وأمامهم أفواه التليفون ، يتلقون الأنباء ويقدمونها إلى روبرتس .

« شتتت زوارق الطوربيد ، وأغرق ثلاثة منها ، وقد دمرت باخرة الزيت ، وتحاول الوحدة الثالثة من الفدائيين والكتيبة الملكية أن تجدا مكان الميعاد ، وتمضيا إلى وجهتهما » .

ولكن نيران زوارق الطوربيد كانت قد شتتت الصنادل الغاصة بالفدائيين وأغرقت بعضها ، فمات كثيرون من الفدائيين قبل أن يبلغوا الشاطىء ، ودار غيرها ورجع . على أن أحد الصنادل استطاع أن يغافل زوارق الطوربيد ويصل إلى الشاطىء ، ولم يكن رجاله من الفدائيين المقاتلين ، فى الحقيقة ، فقد دربوا على أعمال الاتصال والمخاطبات ، ولكنهم كانوا يحملون بنادق . وقد لبثوا بضع دقائق ينتظرون

ثم قال لهم الصـــاغ بيتر ينج ، وعمره أربع وعشرون ســنة : « لقد أمرنا أن نسكت هـذه البطارية ، ونعطلها ، أليس كذلك ؟ » .

فقال بعضهم : « هذا صحيح » .

فصاح بهم : « إذن ماذا ننتظر . ؟ »

وكانوا عشرين فقط ، فمشـــوا مسافة ربع ميل دون أن يراهم أحـد ، ووجدوا البطارية ، فتفرقوا ، على نحو ما يصنع الهنود وأطلقوا النار من بنادقهم الآلية الصغيرة . ولم يكن فى مقدورهم أن يسكتوا البطارية ولـكنهم أزعجوها بنيرانهم ، حتى لقد عجزت عن التفرغ لنا نحن الواقفين على مسافة من الشاطىء .

وكان الفجر يزداد نوراً ، فنظرت إلى ساعتى وإلى الجدول . وقد بدأ ستار النار لما أتم عقرب الثوانى دورة الدقيقة ، فصار الهواء كأنما يضطرب ويختلج من أصوات القذائف .

وظلت المدافع عشر دقائق تقصف ، والومضات الذهبية تشق ضوء القمر ، ثم كأنما كان كل شىء يدير تجربته مدير حاذق ، فانطوى ستار الليل ، وطاردت الشمس قطعاً قليلة من الضباب ، فتبدت لنا مدينة دييب .

وتأدى إلينا من الغرب قصف المدافع من عيار ست بوصات ، ثم جاءت معمعة المدافع الرشاشـة ، وسمعت فوق ذلك صـوت طائرات سبتفاير الرنان ، وكانت أربعاً وعشرين ، فى سربين . وتمتاز هذه الطائرات بهيفها وأناقتها ، ولا شبه لها فى ذلك ، ومحركاتها لا تزأر بل تترنم وتشدو ، وقد غيرت نظام صفوفها ، وصار كل أربع معاً ، وتفرقت جماعاتها هـذه ، وخالفت بين ارتفاعاتها لتحمينا من كل جانب .

وظل روبرتس يتلقى الأنباء ، وقليل منها ما كان حسناً ، وكان لـكل رقعة من الساحل ، ولـكل هدف ، اسم .

« تقرير من الساحل البرتغالى يا سيدى أتمت الوحدة الرابعة من الفدائيين مهمتها وهى عائدة » .

« وماذا عن الساحل الأحمر ؟ » .

فهز الضابط رأسه وراح يكرر تكريراً مملا : « ادعو الساحل الأحمر ، ادعو الساحل الأحمر » ، وهو الموضع الذى كان مفروضاً أن تـكون الوحدة الثالثة من الفدائيين قد نزلت فيه .

« هنا الساحل الأرجوانى . نطلب ستاراً آخر من الدخان على صخور الشاطىء الغربية . وابل الرصاص علينا شديد » .

فقال روبرتس : « أبلغ ألفريد هذا يا هندرسون » .

وكان القائمقام هندرسون أحد أركان

حرب الجنرال روبرتس ، فأدنى فمه من الميكروفون وقال : « ادعو ألفريد . ادعو ألفريد . ألقوا سحابة من الدخان على صخور الشاطىء الغربية حالا . هل تسمعنى ؟ انتهى »

وكان « ألفريد » هو الذى اتخذ فى يومنا رمزاً لمقر قيادة السلاح الملكى البريطانى فى إنجلترا . وهناك فى مكان ما ، وعلى بعد ثلاثمائة ميل سمعت هـذا النداء آذان لا تنفك لاصقة بالسماعات . وصدرت الأوامر . وما لبثنا أن رأينا طائرات من طراز دوجلاس بوستون تحلق فوقنا ، وهى تحمل جهازاً لاسلكياً مزدوجاً للارسال والتلقى . وتمشيت على ظهر السفينة فأبصرت طائرتين من طراز بوستون ، تنقضان من حيث لا ندرى ، وتخلفان وراءها دخاناً أبيض كالريش استقر على صخور الشاطىء . ثم مالتا ميلا حاداً وعادتا أدراجهما ، واحتجبت ذرى صخور الشاطىء بفضل هذه الطبقة الصناعية من السحاب ، وصار رجال المدافع الرشاشة فوق هذه الربى لا يستطيعون أن يروا رجالنا لابدين خلف جدار البحر الواطىء على الشاطىء .

وكان هـــذا هو العنصر الجوهرى فى العمليات المشتركة ، فما مضت دقيقتان على ما طلبه الجنرال روبرتس من إلقاء الدخان على الربى — وها هى ذى قد حجبت !

وكنا قد زدنا اقتراباً من الشاطىء ، وكان المنظر مما لا تستطيع هوليود أن تأتى بمثله ، وكانت القنابل تقذف من البطاريات الساحلية ، وقد سقطت إحداها على مسافة خمسين قدماً منا ، فدفعت فى الهواء نافورة من الماء ، وقعت عليها أشعة الشمس ، فأرسلت شرراً أحمر وذهبياً . وكانت المراكب من كل نوع تمتد إلى آخر مدى البصر ، والزوارق التجارية الصغيرة تنطلق من سفينة إلى أخرى . وقوارب الطوربيد تزأر وهى تمر ، والصنادل الكبيرة الموقرة بالرجال والمدافع تتجه إلى الشاطىء .

ودنا منا صندل ، ووقف ، وصعد رجاله إلينا . وكانت عليهم طوائف شتى من الأوساخ والأقذار ، ووجوههم ملطخة بالسواد ، ولكنهم كانوا يبتسمون . وكان هؤلاء فريقاً من وحدة «لوفات» الرابعة لم يستطيعوا أن يهتدوا إلى سفينتهم فجاءوا إلينا.

وسألت فدائياً ضخما منهم وهو يصعد إلى السطح : « كيف كان الحال ؟ » .

فضحك وقال : « كقطعة من كعكة ! لقد صرنا أدنى شىء إليهم قبل أن يتنبهوا إلى أننا هناك . وكان الحظ حليفنا ، فقد أصابت قذيفة من مدفع مورتر من مدافعنا ، مستودع الذخائر فنسف كل شىء . ثم هجمنا وقضينا عليهم . وقد دافعوا

ولـكنهم لا يستمرئون هذا السلاح ، أليس كذلك ؟ » .

فهز رفقاؤه رءوسهم مؤمنين ، وقال أحدهم : « حدثهم عن الـكولونيل » .

فانفجر الفدائى الضخم يضحك ويقهقه وقال : « أما إنه لرجل — هذا القائمقام لوفات ! فقد كان فى العودة آخرنا على الشاطىء ، وهو أبدا هكذا ، وكانت الصنادل على مسافة ١٥ قدماً من البر ، حتى لا تنغرس وتتعطل إذا احتاج الأمر إلى الجلاء السريع ، وكانت قنابل المورتر التى تضرب من مكان ما إلى الوراء تسقط قريباً منه ، والمدافع الرشاشة تنطلق بسرعة من فوق صخور الشاطىء ، والقذائف تتساقط فى كل مكان . فشرع القائمقام يخوض الماء ، فلما بلغ ركبتيه كان لا يزال على مسافة عشر أقدام من صندلنا ، فصاح بنا : « لماذا ينبغى أن أبتل من أجل أنكم أكسل من أن تدفعوا الصندل إلى الشاطىء ؟ تعالوا وخذونى ! » .

وضحك القوم وقال بعضهم : «القذائف تنهمر حوله وهو لا يزعجه إلا أنه يبتل ! » .

ثم جاءت الطائرات الألمانية . فما زلنا بعد ذلك تحت ضغط مستمر من طائرات العدو ، ففى حيثما صعدت طرفك ، كنت ترى معارك جـوية ، إذ تحاول طـائرات فوك — وولف ، ودورنير أن تخترق مظلتنا الواقية من طائرات سبتفاير . وقد شاهدت اثنتين من طائرات دورنير تضرعان وتهويان ، كأنهما كرتان من النار ، إلى البحر . وأصيبت ثالثة وهى فى الجو بقذيفة فانشطرت وصارت حطاماً متناثراً . ولم يتمثل للخاطر قط أن رجالا من لحم ودم كانوا بعض هذا الحطام .

وحاذانا صـندل وألقى إلينا بالفوج الأول من الجرحى ، وكان الطبيب ينتظر فى غرفة صغيرة فى طبقة أدنى . فأمر الذين يستطيعون السير أن يجلسوا فى الممر ريثما يعنى باثنين كانت إصابتهما بالغة . وكان كلاهما راقداً وعيناه مفتوحتان ، وقد غاض الدم من وجهه ، وخلا من كل تعبير ، كأنما أسدل الألم عليه قناعاً . وكان أحدهما قد أصيب فى بطنه ، ولم يبن على وجه الطبيب تغير ما ، حين تناول أبرة وغرزها فى ذراع الرجل ، ونهض ، ونظر إلى ، وهز كتفيه .

أما الثانى فكانت إصابته فى رجله ، فحقنه الطبيب بشىء ، وأسرع مساعدان فقصا سراويله . وعريا الجرح ، فإذا رجله مما يلى الركبة لا يمسكها إلى جلدة .

وقال الرجل وكان صوته واحداً لا تتفاوت نبرته : « كيف نجوت ؟ لقد

بلغنا الشاطىء . ونزلنا ، وكانت المدافع الرشاشة ترمينا من الجانبين... كلهم أصيبوا إلا أنا ... وواصلوا رمينا بالرصاص ... ولم يصيبونى ... قتلوا جميعاً ... جميعاً إلا أنا ... لم يصيبونى قط ... » .

وخفت الصوت حتى انقطع . وتمتم الطبيب : « فات الوقت مع الأسف ! » .

وحينئذ فقط أدركت أن الرجل الذى على المائدة ميت .

وكانت مدافعنا المضادة تنطلق بشدة ، ومعنى هـذا أن الطائرات المعادية لا تزال تقبل ، وصار المقصف غاصاً ، وفيه على الأقل اثنا عشر رجلا فى بذلات مبتلة ، وكان خادم المقصف — جو كراوذر — يساعدهم على نزع ثيابهم المبللة والتوشح بالأغطية أو البطانات الدافئة .

وكان معظم الجروح من شظايا الشرابنل وهى ليست بالخطرة ما لم تكن الإصابة بها فى البطن ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع لشق الجروح وإخراج الشظايا ، فكان الطبيب يكتفى بأن يريق على الجروح مادة مطهرة ثم يضمده .

وكنا ربما سقطت قنبلة على كثب منا ، فكنا لانعرف هل أصبنا تحت خط الماء إصابة مباشرة أو لا ، فكنا نسمع انفجاراً فتميل السفينة قليلا ويسمع لها صرير وصريف ، ونسكت ، ثم يضحك جو كراوذر ويقول : « يا للجحيم ! هذه كانت على مسافة نصف ميل » . ولم يكن جو كراوذر قبل ساعات معدودات إلا رجلا له لهجة أهل يوركشير أما الآن فقد صار شخصية تبرز ، وكان وجهه مستديراً ، وعيناه واسعتين حائلتين وكان يتكلم ببطء شديد .

وقال وهو يلف بطانية على قادم جديد : « هذه سفينة مجدودة . نعم ، فقد أصيبت مرات عديدة ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا منها منالا . وإنها لمتينة طيعة ، أى نعم وخير من ذلك كله أنها مجدودة . خذ قطرة من « البراندى » يا صاحبي ، فإنه كله على حساب جلالة الملك . ولن يطالب المقصف رواده بأثمان ما يشربون اليوم » .

ونزل بعضهم على السلم الحديدى متعثراً وانطرح إلى المقصف حتى بدا لى أنى أعرفه وقد تبينت أنه ولاس ريبورن مكاتب الستندارد التى تصدر فى مونتريال ، وكان وجهه شاحباً . نخطا خطوتين فى الغرفة ثم تهافت إلى الأرض ، فرفعت رأسه ، وصببت فى حلقه شيئاً من « البراندى » فشرق ، وهز رأسه ، وفتح عينيه ، وعرفنى .

وقال : « يا لها من قصة ! » ، وابتسم بضعف ثم قال : « لست واثقاً ، ولكنى أحسبنى أصبت إصابتين » ففحصناه ، أنا

وجو ، فألفيناه أصيب فى كتفه وفى موضع آخر .

وضحكت وقلت له : « بك جرح لن تستطيع أن تراه إلا إذا لويت جسمك فصار وجهك فى موضع قفاك . وهو ليس بالبالغ — شظية صغيرة من الشرابنل. كيف كان الحال على الشاطىء ؟ » .

فقال وهو يرعـد : « فظيع . كنت مع كتيبة سسكاتشوان . وكان هناك جدار على الشاطىء ارتفاعه اثنتا عشرة قدماً وفوقه أسلاك شائكة متينة جداً. فراح فتياننا يعالجونها ويلحون عليها ، وأخيراً شق أحدهم طريقه فيها فتخطيناها . وفى هذا الوقت تنبهوا لوجودنا. فأطلقوا علينا المدافع الرشاشة ، فطأطأنا رءوسنا لنتقيها . وبلغنا بيتاً مهجوراً ، ولـكنهم جعلوا يرموننا فيه بقذائف المورتر ولم يكن هذا مما يطيب ، فخرجنا نقصد إلى المدينة نفسها .

« وكان علينا أن نعبر نهراً عليه جسر فأما الذين شرعوا فى ذلك أول من شرع فقد حصدوا جميعاً . ثم جاء ميريت — أعنى البكباشى س . س . ا . ميريت — وياله من رجل ! فتى جسيم عليه رونق الشباب ، ولا يتجاوز عمره الثالثة والثلاثين . لم يزد على أن قال لرجاله فى هـدوء : « لاتحتشدوا . . هيابنا ! » . ثم حمل خوذته بيده ، وذهب يمشى على الجسر كأنما يتمشى متريضاً . وكان آخر عهدى به أنه كان متجهاً إلى دييب ، وفى كلتا يديه مسدس. سألت الله أن يرده سالماً » .

« كم لبثتم على الشاطىء ياولاس ؟ » .

« أكثر من ست ساعات . وكان شرها الساعة الأخيرة ، وقد قضيناها فى انتظار المراكب لحملنا . وقد أقبلت فى الموعد المضروب ولم تتأخر عنه ثانية ، ولـكن البحر كان قد مدّ ، فاحتجنا أن نخوض مسافة ثلاثمائة ياردة تحت رصاص المدافع الرشاشة وقذائف المورتر لنصل إلى الزوارق .

« ولا بد أن الحال كان شبيهاً بما حدث فى دنكرك — رقود على الشاطىء ما بين جريح وقتيل ، وآخرون فى الماء إلى ركبهم ينتظرون الزوارق ، ورجال يسددون بنادقهم إلى الطائرات التى تخطف فوق رءوسهم خطفاً حتى لا يكاد المرء يراها .

« وكان الزورق الذى ركبته قد انغرز فى الرمل ، ولـكننا أخرجناه منه . ولما سار بنا نحو خمسين ياردة إذا به قد بدأ يغرق ، كان الله فى عوننا — غطس تحتنا . وكان هناك صندل آخر على نحو عشرين ياردة فسبحنا إليه ، ثم بدأ هـذا أيضاً يغرق ، ولـكن النوتية البريطانيين طافوا بالجنود واحداً واحداً، وانتزعوا الخوذات والبنادق

وكل ثقيل غير ذلك ، وألقوا به فى الماء للتخفيف ، فتسنى لنا بذلك أن ننجو » .

وكانت مدافع أورليكون ومدافعنا الأخرى من عيار أربع بوصات تنطلق الآن ، فكان الضجيج والرجفان يملآن الغرفة الصغيرة . وشرع المصباح الموضوع فوق المنضدة يترجح من ناحية إلى ناحية كالمخمور ومالت السفينة ميلا شديداً يسرة ثم يمنة . وكان سيرنا معوجاً ملتوياً ، فكان من الجلى أن طائرات العدو تحلق فوقنا .

وأكبر ظنى أن السفينة ترنحت أولا قبل الانفجار بثانية . فقد ارتفع مقدمها ، ثم مال إلى اليسار ، ثم كان الانفجار ، فكأنما دقفت زجاجاً ضخماً بشوكة متذبذبة ضخمة ، فظل دوى الصوت فى أذنيك بعد الدقة بوقت طويل . ثم سمعنا من ناحية بيت المؤونة المجاور للمقصف ، صوت اندفاع الماء بقوة ، فتعلقنا جميعاً بالمناضد والكراسى . وإذا بضحكة مجلجلة ــ ضحكة جهيرة من أعماق القلب والجوف ــ تستعلى على هذه الضجات . وكان الذى أطلقها هو جو كراوذر .

وقال بصوت قوى وبلهجته الإقليمية : « أسمعتم مدفعنا الجديد من عيار ثمانى بوصات ؟ إن من يسمعه يخيل إليه أن قنبلة أصابتنا ، أليس كذلك ؟ ياله من مدفع ضخم يرج السفينة رجاً ! . ولقد حطم لى كل الزجاج فى مخزنى » .

فنظرت إلى وجه جو ، الكبير المستدير البرىء ، ودعوت الله أن يباركه ، فقد كان مكاننا من السفينة تحت خط الماء بكثير ، فلو كانت السفينة قد بدأت تغرق ، لضعف الأمل فى إمكان الصعود فى السلم الحديدى . ولم يكن ثم مدفع من عيار ثمان بوصات ، ولكن بعض التوتر الذى استولى على الجرحى زايلهم .

وأسرع بعضهم إلى بيت المؤونة بأدوات وآلات ، وكانت السفينة قد استوت ولكنها كانت لا تزال تتعرج فى سيرها ، فالطائرات لم تطرد إذن .

وقال جو كراوذر فى هدوء : « إننا نلقى ستاراً من الدخان . ومن عادتنا أن نتعرج فى سيرنا كلما فعلنا ذلك » .

* * *

وصعدت إلى ظهر السفينة ، فألفيت كل سفينة تتحرك حتى لا تكون هدفاً ثابتاً . وكانت هنالك زوارق صغيرة لا تحمل إلا مدافع مصادة للطائرات ، فكانت ترسل ميزابا من رصاصها فى السماء . وكانت طائرات سبتفاير تمرق هنا وهناك وفى كل مكان . ولكنها كانت أحياناً ، وهى تطارد العدو ، تترك ثغرات فى الفضاء فتنشق طائرات دورنيير وفوك ــ وولف طريقها فيها ،

وتلق قنابلها على سفننا وتطلق عليها مدافعها الرشاشة .

وحاذانا صندل ، وألقى إلينا نحو ثلاثين رجلا كلهم تقريبـاً من الجرحى ، فصارت سطوحنا كلها غاصة بالجرحى . وكان بعضهم رقوداً على محفاتهـم متجاورين ، وبعضهم يتكىء على الحافة أو صناديق الذخيرة ، وكان اثنـان من الذين جىء بهم أخـيراً من « الرينجرز » الأمريكيين ، من مدينة مينا بوليس وكانا حدثين فى رأى العين .

فسألت أحـدهما وكان أشقر : « مع من كنت ؟ » .

وكان اسمـه الجـاويش كنث كنيون ، فقال : « مع الوحدة الرابعة من الفدائيين : وكانت المعركة شديدة على الشاطىء . ولـكن هؤلاء الفدائيين والله أمجاد مغاوير ، وكان هدفنا بطارية مدافع من عيار ست بوصات ، وكان هناك بستان قبيلها ، فهل تدرى ماذا صـنع هؤلاء الفـدائيون ؟ كانوا يرقدون ويطلقون النـار ، ثم يثبون إلى أقدامهم ويقطفون التفاح عن شـجره ، ويعودون إلى إطلاق النار » .

وكان زميله الجاويش ماتشيل سوانك من المدينة نفسها ، وكان جرحه فى ذراعه ولـكنه كان يهزأ به .

وقال مبتسما : « لقد كنت واثقاً أنْ لن يصيبنى سوء . فقد كان معى عوذة بديعة — إنجيل » . ورفع يده فى ثيابه المبتلة وأخرج كتاباً صغيراً مبللا : « وقد حمله أبى معه فى الحرب الماضية فلم يصب قط . وقد أعطانيه لما سافرت ، وصدقنى حين أقول : إنى سأحمله معى دائماً » .

وذهبت إلى مؤخر السفينـة ، ورأيت الموضع الذى أصابته القنبلة ، وكان الحطام قد جمع ورفع ، ولـكن بعض الدم كان باقياً . ورأيت عدة محفـــاة متجاورة ووجوه الراقدين عليها مغطاة .

ثم أصيبت السفينـة « بركلى » — سقطت عليها قنبلة فى وسطها فقصمت ظهرها ولم نسمع القنبلة وإن كانت البركلى لا تبعد عنا إلا أربعمائة ياردة ، لأن الضوضاء الحاصلة من انطلاق مدافعنـا ومن انفجار القنـابل التى تسقط على كثب منا ، صارت نعيراً يمزق الأذن ، ولا يتسنى فى ضجته العظيمة تمييز صوت معين على حدة .

وخففنا إلى معونة السفينة المصابة وكانت زوارق الطوربيـد البخارية والصنادل قد حفت بها ، وتولى الأسطول البريطانى مهمته الآن . ولست أظن أن أى رجل مكث فى الماء أكثر من ثلاث دقائق . وقد قتـل كثيرون لما انفجرت القنبـــلة ، ولـكن الجرحى نقلوا عن آخرهم .

وحمل بعض الناجين إلى مدمرتنا ، وكان أحدهم يوزباشى فى الجيش البريطانى ، فسألته : هل رأى القائمقام هيلسنجر زميل جوك لورنس فى مكتبه ؟ فهز رأسه أنْ نعم . وقال بإيجاز : « لقد أصيب . وكنت معه على ظهر السفينة لما أصيبت ، فلم يمسسنى أذى ، ولكن أصابته هو بالغة . وكان يتكلم مازحاً عن حذائين جديدين يلبسهما لما سقطت القنبلة . فمالت السفينة ميلا شديداً إلى اليسار ، وكنا فى هذا الجانب ، فلم أصب . وقصدت إلى هيلسنجر لأسعفه ، فألفيته يسخط ويلعن ، وكان ظهر السفينة قد صار فى مستوى الماء ، فرأيت أحد حذاءى هيلسنجر الجديدين طافياً على الماء على مسافة ثلاث أقدام ، فطار عقله ، وخلع الحذاء الآخر على نحو ما ، ورمى به وراء الحذاء الطافى » .

فسألته متحيراً : « هل تعنى أن انفجار القنبلة أطار أحد الحذائين ؟ » .

فقال وهو يملأ صدره بنفس طويل : « نعم أطار الحذاء . وكان طافياً هناك وفيه قدم هيلسنجر أيضاً . وإن حالته لسيئة ، ولكنه شجاع جداً » .

« إذن قد فقد رجله ؟ » .

فقال بصوت ممسوح : « نعم فقد رجله »

* * *

وأقبل بويل علينا فى المقصف فقال بهدوء : « انتهى الأمر . والجميع الآن عائدون من حيث أتوا — الجميع ما عدانا . فإن الجنرال روبرتس سيرجع إلى الشواطىء ليلتقط من عسى أن يكون فى الماء ، وسنكون هنا وحدنا ، وسنلقى على التحقيق مثل حر الجحيم » ، قال هذا بلهجة المغتبط المستبشر .

وكنا نستطيع ونحن على ظهر السفينة أن نرى السفن عائدة ، أما مدمرتنا فاستدارت متجهة إلى الشاطىء ، ودنت منه حتى لقد سدد الألمان مدافعهم الرشاشة إلينا . فوقفنا وراء أستار المدافع وغيرها مما يصلح للوقاية ، فكان الرصاص يطقطق عليها . وكان بعضنا ، من حين إلى حين ، يلمح رجالا متشبثين بألواح أو غيرها من الحطام ، فكانت السفينة تمضى على مهل إليهم وترفعهم إليها .

وكان الضرب المنصب علينا شديداً ، لأنه لم يكن ثم غيرنا ، أما قبل ذلك فقد كان هناك أكثر من مائتى هدف فى منطقة نصف قطرها أربعة أميال .

وإنى لواقف خارج الممر قليلا ، وفى منتصف السفينة ، وإذا بصوت جديد يشق الفضاء فجأة على الرغم من أصوات مدافعنا : صوت لا تنساه أبداً إذا سمعته . وذلك أن

طائرة من طراز فوك — وولف ١٠٩ مرقت فى المظلة التى نشرتها طائرات سبتفاير وذهبت تقذف بنفسها علينا . فجمدت فى مكانى ، وجمد مثلى الأربعة الذين كانوا حولى ، ومن بينهم بويل وكومودور الجو كول . وهبطت الطائرة من ارتفاع خمسة آلاف قدم إلى ثلاثة آلاف فى بضع توان ، ثم ألقت قنابل ، وصار الجو كله جحيما وزئيراً . فارتددت متراجعاً إلى الممر ، واستلقيت على ظهرى ، ورحت أصغى إلى العالم وهو يقضى نحبه .

وذهلت ، ولم أدر هل أصبت أو لم أصب ، ثم انطبقت أسنانى على شىء ، فلفظته فإذا هى قطعة ذهب كانت غطاء ضرس ، فالتقطتها ودسستها فى جيبى ، فمن البديهى أن الرجة فكتها .

ونهضت متخاذلا ، ومشيت خطوتين إلى ظهر الباخرة ، فإذا الرجلان اللذان كانا واقفين على يمينى ويسارى ميتان . وجاء نوتى فساعد كومودور الجو كول على الدخول ، وكان وجهه ملوثاً بالدم . ومر بى بويل متعثراً ويداه على عنقه ، فقد أصيب فى عنقه ورأسه .

وتحسست أصابعى الحلية الذهبية التى فى جيبى . كنت واقفاً مع أربعة ، اثنان منهم قتلا ، والآخرون جرحا جروحاً بليغة ، أما أنا فما فقدت سوى « غطاء ضرسى » فلماذا نجوت ؟ ولأى شىء ادّخرت ؟

* * *

وكنا قد قضينا هنا نحو تسع ساعات إلى الآن ، فتحلل التعب بنا جميعاً ، ولم يعد هناك ذلك الصياح الذى كان يند عن رجال الدفعية كلما رأوا طائرة ألمانية . فصاروا يحشون المدافع ويطلقونها على نحو آلى وكان فى السفينة حوالى خمسمائة من الجرحى، وغص القصف والسطوح بالصامتين .

والبدن يستطيع أن يحتمل ضربا شديداً وأذى أليما ، وهو يكاد يكون غير قابل للتلف ، ولكن الأعصاب لا تستطيع الاحتمال إلا إلى حد ما ، فإذا كلت ، وجاوز ما تكلف من جهد فى فترة ما ، حد الطاقة ، فإن بعض الناس يصبح شكساً ضجوراً ، والبعض يعتريه شىء من الهستيريا . ولا يقدح هذا فيما فطر عليه الرجل من شجاعة وشدة قلب ، فإن رد الفعل هنا خارج عن الإرادة كل الخروج .

ونهض فجأة ملازم مجروح وقال : « دعونا نعُدْ بالله عليكم » ، وشهق شهقة البكاء وقال : « لقد عانيت الكفاية فدعونا نعد » .

فقال جو كراوذر معالجاً تسكينه والترفيه عنه : « اشرب قدحاً يا رجل .

إننا جميعاً قد عانينا ما فيه الكفاية، ولكن الربان يعرف ما هو صانع».

فكرع اللازم كرعة روية من الزجاجة وحول الباقون عيونهم عنه، كأنما يريدون أن لا يشهدوا ما بدر منه أو يلاحظوه. فقد خالف القاعدة والأصول.

ودخل القصف ماتشيل سوانك الشاب الأمريكى يطلب منعشاً، فناولته البراندى وقلت له: «جرعة من هذا تنفعك».

فنظر إلى الزجاجة مستغرباً وسأل: «ما هذا؟».

قلت: «براندى — براندى جيد. يجعل شعرك جعداً، وينفع الأسنان، ويخفف متاعب الحمل!».

فنظر إلى الزجاجة مرتاباً، وشرب شيئاً، وشرق، وسعل، ومج الذى فيه، وسأل بصوت شجى: «أليس عندك شىء من السكوكا — كولا؟».

وأدخل كبير المهندسين رأسه فى مدخل الباب وقال بإيجاز: «إننا عائدون الآن»، فتنفس الصعداء الأربعون رجلا الذين كانوا فى الحجرة.

وظلت طائرات دورنيير وفولك — وولف تتعقبنا، وأخطأتنا مرتين أخريين خطأ يسيراً، ولكننا أدركنا أسطولنا وجزناه. وكان هذا حسناً فى رأينا، وسنكون فى الميناء بعد ساعتين، ولكن هذا لم يكن ما أراده الجنرال روبرتس، كلا، فقد أراد مرة أخرى أن يكون هو فى الطليعة عند اجتياز حقل الألغام.

ومضت الساعات، واستوت الشمس فى كبد السماء بعد أن رأت ما فيه الكفاية فى يومها هذا. ولمحنا من بعيد خطاً دقيقاً ثم بدت لنا إنجلترا، وعدنا، ولكنه لم يكن هناك فى هذه السفينة لا جذل ولا سعادة. فقد كان كل امرىء متعباً. وكان العائدون يفكرون فى زملائهم الذين خلفوهم وراءهم.

والآن زال الأثر المخدر الرحيم الذى كان للصدمة، وبدأ الوجع يلح على الجرحى. وكانت الجروح مضمومة ضماً خفيفاً بالضماد والجبس، فانفتحت وانتقضت فسخط الجرحى على ما يكابدون من ألم، وعلى الضعف العجيب الذى حل بهذه الأجسام التى احتملت الآلام طول النهار وكتمتها، ثم عادت الآن ففترت عن المكافحة، وتركت الوجع يستعلى عليها.

وخرج الجنرال روبرتس إلى ظهر السفينة، وكان يبدو عليه هو أيضاً أنه متعب، واتكأ على الحاجز وعينه مصوبة إلى الماء.

فسألته: «كان الأمر أصعب مما قدرت أليس كذلك؟».

فتنفس نفساً عميقاً وقال ببطء : « نعم كان أصعب مما قدرنا » .

* * *

وفى اليوم التالى قال مونتباتن لمندوبى الصحف وقد دعاهم إليه : « إننا لم نحقق كل أغراضنا ولم نبلغ كل أهدافنا ، ولكنا أدركنا غاية رئيسية . فقد أرسلنا إلى دييب قوة بحرية كبيرة إلى حد ما ، وأبقيناها هناك أكثر من تسع ساعات ، ولم نفقد إلا مدمرة واحدة ، وفقد السلاح الجوى الملكى ٩٨ طائرة ، ولكن ثلاثين من الطيارين نجوا ، وأسقطنا على التحقيق إحدى وتسعين طائرة ألمانية على الأقل ، وهناك مائتان أخريان يرجح أنهما سقطتا . وقد علمتنا هذه الغارة كثيراً مما سينفعنا فى أعمال مقبلة » .

وقد اشترك فى الغارة حوالى عشرة آلاف رجل ، فى جملتهم رجال البحرية وطيارو السلاح الملكى الجوى ، وقتل أو جرح أكثر من ثلثهم . ولكن كون الغارة وجهت إلى ما لعله أمنع موضع على الساحل معناه : أنه ما من موضع آخر فى مأمن من الغزو . واضطر العدو إلى المبادرة إلى تعزيز حصونه فى عدة أماكن ، وعدل عما كان يرجو من إرسال عدة فرق من فرنسا إلى الميدان الشرقى .

وقد قصم ظهر السلاح الجوى الألمانى فى ذلك اليوم فى أغسطس ، فما قام بعده إلا بهجمة جوية حقيقية واحدة على بريطانيا ، واستطاعت طائراتنا أن تغير نهاراً على فرنسا ولا تجد إلا مقاومة أضعف مما كانت تلقى من قبل . فما كانت طائرات فوك — وولف البديعة التى دمرت فى ذلك اليوم ، ولا الطيارون الألمان المدربون الذى فقدوا * مما تهون الخسارة فيه ، أو يعوض بسهولة .

وقد درس الجنرال أيزنهاور كل حركة فى غارة دييب وهو يضع الخطة لحملة أفريقية الشمالية ، بل قد بلغ من حصافته وزكانة عقله أن طلب من مونتباتن وأركان حربه أن يساعدوه فى رسم هذه الخطة . وكان مونتباتن قد درس موضوع غارة واسعة النطاق على المواضع التى هوجمت آخر الأمر فوضع خطة وقدمها إلى الجنرال أيزنهاور . وبعد ثلاثة أيام من نزول الأمريكيين فى أفريقية الشمالية بعث أيزنهاور ببرقية شكر إلى مونتباتن على مساعدته له . والمرء يستطيع أن يستخلص أنه كان يفكر فيمن ماتوا فى دييب ، فإن من الصواب أن نقول إن أرواحاً أمريكية كثيرة أنقذت فى أفريقية الشمالية بفضل الدروس التى استفيدت من تجربة دييب .

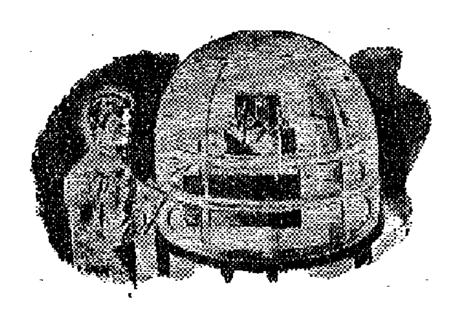


وقد قضى الله للأقلام مذ بريت
أن السيوف لها مذ أرهفت خدم
"ابن الرومى"
فى وقت مثل وقتنا هذا ، أصبحت الكلمات سلاحا أشد مضاء من السيف !
فالكلمة المكتوبة تلعب دورها فى إعادة بناء صرح الحرية ، سواء فى ذلك
أوامر القواد فى ساحات القتال أو أوامر المديرين بين جدران المصانع
وأغلب هذه الوثائق الكتابية الخطيرة يوقع عليها أربابها بأقلام باركر . .
ولا عجب ! فإن قلم باركر قد ظفر منذ أمد بعيد بتفضيل الزعماء والقادة .
واليوم ، انقطعت مصانع باركر وخبراؤها الإخصائيون فى الأدوات الدقيقة
لإنتاج المهمات الحربية للدول المتحدة ولهذا السبب ندعوك إلى أن تتريث حتى
ما بعد الحرب لشراء قلم باركر ! شركة أقلام باركر — جانسفيل ويسكونسين
بالولايات المتحدة .
باركر
Parker
Quink
PERMANENT
BLUE BLACK



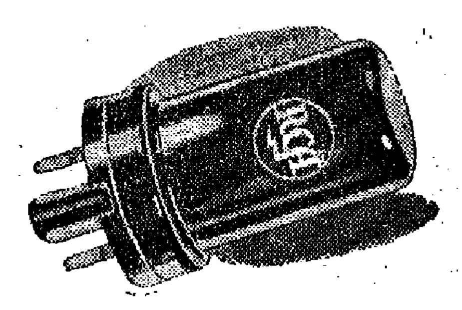
RCA تقدم

أحدث الأنباء



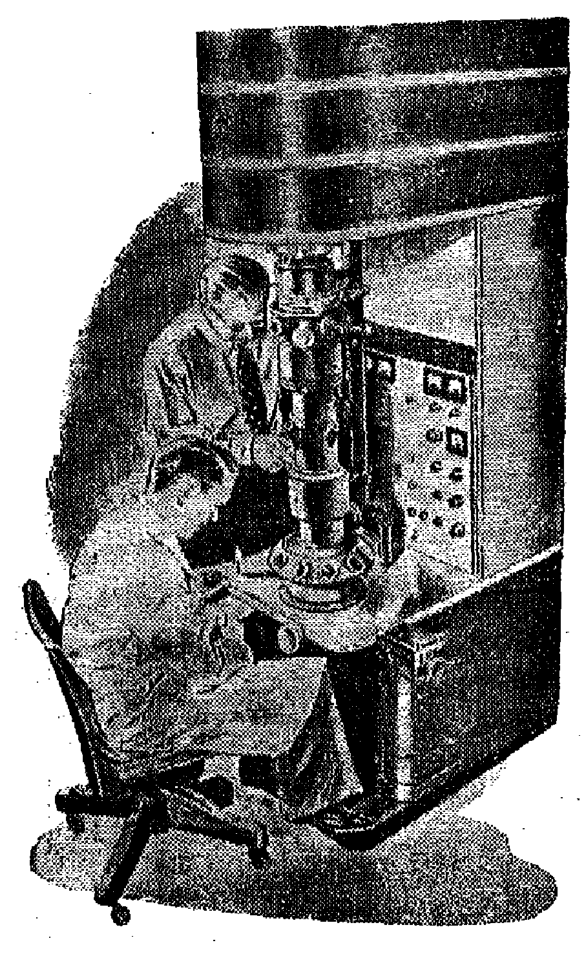
٨ أميال فوق مستوى سطح البحر

لكي يتاح دراسة لاسلكي الطيران دراسة دقيقة على مختلف الأبعاد فوق سطح البحر أتقنت شركة RCA حجرة دعتها « حجرة التحليق » وهي حجرة يمثل في داخلها ما تكون عليه حالة الضغط الجوي على ارتفاع ٤٠ ألف قدم .



مفتاح الأنباء في أجهزة الاستقبال

المنزلية ، وفي الأجهزة اللاسلكية وفي التليفزيون — يستعمل هذا الصمام الأليكتروني الذي يضم كل ما اشتهرت به منتجات شركة RCA من إتقان وكمال .



اكتشاف العالم غير المنظور ! إن مجهر

RCA أليكتروني أقوى بمعدل ٥٠ مرة من أحسن ميكروسكوب طبي فهو يكبر الأشياء ١٠٠ر٠٠٠ مرة أو أكثر ويبشر بفوائد كبيرة في مكافحة الأمراض ! وشركة RCA التي انقطعت الآن لخدمة حاجات الأمم المتحدة الحربية ، تنتظر اليوم الذي يتسنى لها فيه أن تقدم منتجات أكثر كمالا — عندما يستتب السلام !



راديو كوربوريشن أوف أمريكا

قسم R. C. A. ڤيكتور — كامدن ، نيوجرسي بالولايات المتحدة



إن طرق المواصلات فى بعض أصقاع نصف الكرة الأرضية الغربى هى على الأكثر طرق مائية وقد أسدت مصانع هيجنز من عشر سنوات خلت ، خدمة كبيرة إلى هذه الأصقاع بأن أتقنت صنع الزورق الوحيد الذى يصلح لمثل تلك الأماكن . وهو زورق يرسو مباشرة على الساحل دون احتياج إلى رصيف ويمخر عباب البحار بنفس السهولة التى يجتاز بها أنهار الأدغال والسواحل الصخرية . . . هذه الزوارق التى كنا ننتجها فيما مضى للتجارة — نرانا مضطرين اليوم لتسليم أكبر عدد ممكن منها ، فى أسرع وقت ، إلى الحكومات الأمريكية والبريطانية والهولندية التى تستخدمها فى الأغراض الحربية . ولكن عند ما يستتب السلام ستعود إليك هذه الزوارق — من أكبر مصانع العالم — وقد اكتسبت مرونة جديدة تجعلك تعتمد عليها كل الاعتماد .



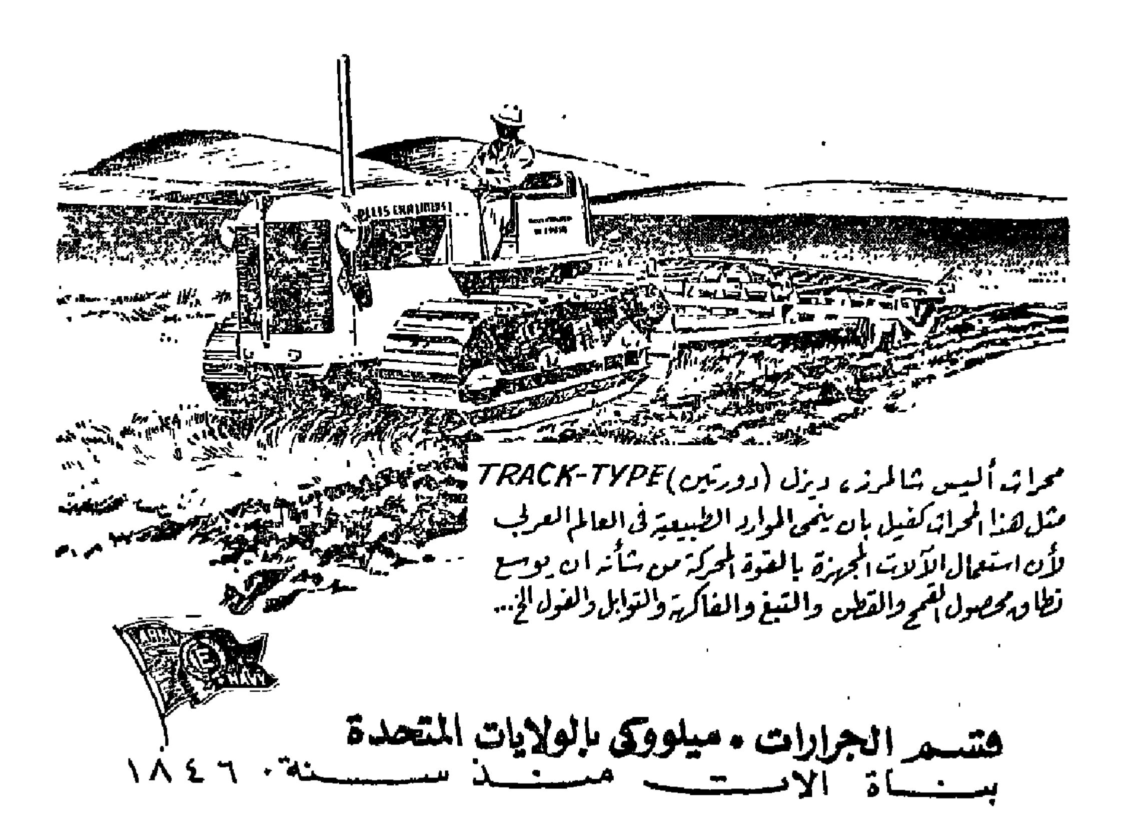
ضروريّة

في الحرب والسلم على السواء

في كل جهة من جهات القتال تعمل الجرارات الآن على قدم وساق فى التعجيل برفع المهمات الحربية ونقلها من مكان إلى آخر إجابة لمقتضيات الحرب الميكانيكية الحديثة التي تقوم على الضربة الخاطفة والحركة السريعة ، فالجرارات تؤدى فى بضع دقائق أو بضع ساعات ما كانت تؤديه الدواب خلال الحروب الماضية فى أسابيع وشهور .

وعند ما تضع الحرب أوزارها ستتفرغ الجرارات من جديد لخدمة أغراض السلم وتساهم مساهمة جدية فى تقدم الزراعة والصناعة وحفر المناجم .

ومصانع أليس — شالمرز باعتبارها أولى مصانع العالم فى إنتاج الجرارات والمحاريث ومعداتها ، تدعو زعماء العالم العربى الثاقبى النظر إلى دراسة فرص الإصلاح العديدة التي يهيؤها استعمال هذه الآلات — لكافة الاستعلامات اكتب إلينا اليوم .



اللسان . وقد طالعت « ريدرز دايجست » بالإنجليزية من سنوات ، فوجدت فيما تختاره من المقالات صفتين مميزتين : أما الأولى فتفسير الحاضر . وأما الثانية فالتوجيه إلى المستقبل . والأفكار الحية الصادقة فيها صفة التطلع إلى المستقبل ، وإعداد الذهن وإذكاء العزم لمواجهته . وليس ثمة ريب فى أن النظم الاجتماعية القائمة ، بعيدة عن الكمال من غير ناحية واحدة ، والأفكار التى ستسيطر على نظم المستقبل وتوجهها تتوالد الآن وتنمو . إن أسلوباً جديداً للحياة موجود الآن فى الفكر ، وإذ تنهار الأجزاء الفاسدة من النظم القديمة ، تتقدم الجديدة لتحل محلها .

وإننا لنلمح خطوط صورة المستقبل من خلال المقالات النيرة الحكيمة التى تكتب الآن وتنشر . ولولا عناية محررى « ريدرز دايجست » وعينهم الفاحصة لفات كثيرين الاطلاع على بعضها .

لقد كنت أقرأ بإمعان وانتظام مجلة « الريدرز دايجست » ، كما قرأت بإمعان العدد الأول من « المختار » ، بل قرأت فى « المختار » بعض المقالات ، التى سبق أن قرأتها من مدة وجيزة فى « الريدرز دايجست » ، فأصبحت بعد ذلك فى حيرة : أى الشقيقتين أقدر على إيصال تلك الأفكار النيرة التى تنشرها ، إلى عقول قارئيها .

أرجو للمختار انتشاراً عاماً لمصلحة أبناء هـــذه البلاد ، ولجميع أبناء الشرق العربى .

حافظ عفيفى

الأفكار: قوة وثروة

لحضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا

رئيس مجلس إدارة بنك مصر ، وعضو مجلس الادارة المنتدب
وزير الخارجية ، وسفير مصر فى لندن ، سابقاً

« إذا كنت تعلق بالمال أملك الوحيد فى الاستقلال والسعادة ، فلن تنال استقلالك ولا سعادتك . إن الضمان الوحيد الذى يستطيع المرء أن يفوز به فى هذه الدنيا هو ذخيرة كافية من المعرفة ، والتجربة ، والقدرة على العمل » .

قرأت هذا القول من سنوات ، وهو يعزى إلى هنرى فورد رجل الصناعة الأمريكية العظيم . وإنى لأجد هذه الكلمات أصدق ما تكون فى هذه الأيام ، التى لا نجد فيها المال وحسب ، بل جميع معانى الحضارة وقيمها ، مصهورة فى بوتقة الحرب الكبيرة .

من الصفات البارزة التى تتصف بها الأفكار الصادقة ، هى أنها لا تحتجز ، فالأفكار تتحرك وتتنقل وتتلاقح ، والناس فى شتى أقطار الأرض يشاركون فيها . إنها النقد العالمى المشترك . وهى مباحة حرة ، لكل من يريد الاغتراف منها ، ويصح عزمه على تطبيقها . وليس هناك ما هو أجدى على جميع طبقات الشعب وأنفع ، من الأفكار الحافزة . فكل من يجمعها ثم يعرضها على جماهير الناس فى قالب قريب التناول ، سهل المأخذ ، قمين بالإقناع ، يسدى فى الحق ، خدمة عظيمة إلى عقول الناس وإلى حياتهم .

ولما كانت مجلة « المختار » ــ وهى الطبعة العربية لمجلة « ريدرز دايجست » ــ تنشر الأفكار ، فإنها فى هذا العمل تسدى خدمة إلى هــذه الأقطار العربية

| البقية على الصفحة السابقة |

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية